A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

808.1
D270
V.2
c.1
A

الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية

٢ - في مكة

تأليف

الدكتور شوقي ضيف

أستاذ الأدب العربي المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الكتاب هو الحلقة الثانية من مجموعة « الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية » . وسبق أن بَيَّنْتُ فى مقدمة الحلقة الأولى الخاصة بالمدينة أن الشعر الغنائى بمعناه الواسع يشمل كلَّ موضوعات الشعر العربى من مديح وهجاء وفخر ورثاء وعتاب واستعطاف وغزل إلى غير ذلك . غير أنى لم أُجْرِ هذه المجموعة فى ذلك المعنى الواسع ، وإنما أجريتها فيما يقابل كلمة « أغانى » فأنا أدرس فيها مقطَّعات الشعر التى غُنِّيت وعُزِف بها العازفون على آلاتهم الموسيقية .

ورأيتُ قَبْلاً أن نسمِّى شعر المديح والهجاء وما إليهما ، مما لم يُغَنَّ ولم يُعْزَف ، شعراً تقليدياً ، حتى نميِّز بين نوعين متقابلين من الشعر عندنا ، تطوَّر كل منهما تطوُّراً منفصلا . فالأغانى تطورت تحت تأثير موسيقى الآلات فى صور مختلفة حتى انتهت إلى الموشحات والأزجال ، بينما تطور الشعر التقليدى فى مذاهب ومدارس فنية ، صَوَّرْناها فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » .

وهذه الحلقة خاصة بدراسة الأغانى التى أُلِّفَتْ فى مكة أثناء العصر الأموى ، وهو عصرها الزاهر فى الموسيقى والغناء . ولما كان هذا النوع من الشعر لا يستقلُّ بنفسه ، بل يعتمد اعتماداً على فن الغناء ، لذلك عُنِيتُ بدرس هذا الفن وأصحابه ، كما عنيت بدرس الأغانى ومؤلفيها ، محاولا أن أصور التفاعل بين الغناء والأغانى ومدى ما أثر به المغنون فى الشعراء حتى يلائموا بين أغانيهم وحاجات الغناء الجديدة . ورأيتهم يكثرون من التحريف والتحوير فى أوزانهم ، كما رأيتهم يكثرون من استخدام الأوزان الخفيفة السهلة ، حتى يتيحوا للمغنين كل ما يريدون من ذبذبات موسيقية وتموجات صوتية .

واشتهر فى هذا الجانب شاعران هما ابنُ أبى ربيعة وابنُ قيس الرُّقَيَّات ، ومن ثمَّ أفردت لكل منهما فصلا ، حتى أُوَضِّحَ ما نهضا به من ملاءمة دقيقة بين أغانيهما وضرورات الغناء المستحدثة فى عصرهما . وجعلت الفصل الأول فى الكتاب دراسة موجزة لمكة فى العصر الجاهلى وما شاع فيها من شعر ، وفى العصر الأموى وما صارت إليه من ترف وتحضُّر . وكل ذلك ليتضح المسرحُ الذى وُقِّعت عليه هذه الأغانى المكية ، وليسمعها القارئ لا فى ضجيجها الموسيقى فحسب ، بل أيضاً فى ضجيج الجماعة التى عاصرتها ، وكانت من أسباب التطور بها

والرقى بصيغها ، حتى أصبحت وكأنها مؤلفات غنائية كاملة .

وإنى لعلى يقين من أن ما قلته حتى الآن سواء فى أغانى المدينة أو أغانى مكة إنما هو الكلمة الأولى ، وأرجو مخلصاً أن يُتيح الباحثون استيعابَ هذا الجانب ، واستكشافَ أرجائه .

والله ولىُّ التوفيق ؟

القاهرة فى ١٥ من مارس سنة ١٩٥٣ شوقى ضيف

الفصل الأول

مكة

١

موقع مكة

مكة أهم مدن الحجاز، وهى تقع فى منتصف الطريق بين الشام واليمن، وتقوم فى بطن وادٍ شقته الطبيعة فى جبال السَّرَاة، ذلك الحاجز الطبيعى الذى يفصل بين نجد فى الشرق وتهامة فى الغرب. وتأخذ مكة فى هذا الوادى شكل هلال، طوله ضعف عرضه[١]، ويتخلل هذا الهلال مرتفعات كثيرة تنتهى شرقاً بجبل أبى قُبَيس وغرباً بجبل قُعَيْقِعَان. ويسمى قاع هذا الهلال باسم البطاح، وفيه بئر زمزم والكعبة المقدسة. وما وراء البطاح إلى الجبال يسمى باسم الظواهر[٢].

والشقة بين مكة والبحر الأحمر تبلغ نحو سبعين كيلو متراً، ومرفؤها عليه فى الإسلام جُدة، وكان فى الجاهلية الشعيبة[٣]. وبرغم ارتفاع

---

(١) انظر مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت ١/١٧٨.
(٢) معجم البكرى طبعة أوربا ١/١٥٥.
(٣) أخبار مكة للأزرقى طبع أوربا ص ١٠٧.

سطحها عن البحر بنحو ٢٨٠ متراً جوّها حار فى الصيف حرارة شديدة[١] حتى ليقول ابن بطوطة إن حصباءها تشبه صفحات محماة[٢]. وشتاؤها أيضاً قاس فى برودته . ومن هنا يقول شاعر قديم فيها[٣] :

وليس بها مَشْتًى ولا متصيَّفٌ ولا كجُوانَى ماؤها يتفجَّر

وجوانى : عين بالبحرين . وواضح أن الشاعر يعيبها أيضاً بقلة مائها . ومعروف أنه ليس بها آبار مهمة سوى زمزم[٤] ، فهى أطيب آبارها . ويقول ياقوت إنه لا يمكن الإدمان على شربها[٥] ، ولعل ذلك ما جعل الخلفاء يعنون بتوفير المياه للحجاج . وليس من ريب فى أن مكة أثناء العصر الجاهلى عانت كثيراً فى هذا الجانب ، ولذلك كان من الوظائف المقدسة فيها حينئذ سقاية الحجيج .

وندرة المياه بمكة تدل بوضوح على أن المملكة النباتية ليس لها هناك مكان سوى بعض أشجار البادية من مثل السَّلم والإذْخِر[٦] . وفى القرآن الكريم على لسان إبراهيم « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرَّم » . وفى السيرة النبوية أن قريشاً

---

(١) أحسن التقاسيم طبع ليدن ص ٩٥ .
(٢) رحلة ابن بطوطة طبع أوربا ١/٢٨٠ .
(٣) رسائل الجاحظ طبع فان فلوتن ص ٦١ .
(٤) انظر فى حفائر مكة وآبارها فتوح البلدان للبلاذرى طبع دى جويه ص ٤٨ والأزرقى ص ٤٣٦ .
(٥) معجم ياقوت طبع مطبعة السعادة ٨/١٤٢ .
(٦) البيان والتبيين للجاحظ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١/٣١٦ .

قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : إنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسيِّر عنا هـذه الجبال التى ضيّقت علينا ، وليبسط لنا بلدنا ، وليفجِّر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق[1] . وفى سورة الإسراء : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً » .

مكة إذن بلد قاحل تحيط به الجبال من كل جانب إلا نوافذ أربعة تصل بينها وبين ما حولها . وقد قامت — على ما يظهر — فى الزمن الأقدم حول بئر زمزم ، لتكون محطة للقوافل التجارية المصعدة إلى الشام والمنحدرة إلى اليمن . وسميت فى العصر الجاهلى أسماء مختلفة ، سميت مكة وبكة وأم القرى وناسّة ، كما سميت باسم صلاح . وسماها القرآن الكريم « البلد الأمين » .

٢

مكة فى العصر الجاهلى

تاريخ مكة فى العصر الجاهلى غامض ، ولذلك كانت تحف به الأسطورة . ويزعم مؤرخو العرب أنه كان يسكنها فى قديم الدهر قبائل من جرهم وبقايا من الأمم البائدة[2] ، ثم نزلتها خُزاعة حين نزحت

(١) السيرة النبوية لابن هشام طبع الحلبى ١/٣١٦ .
(٢) ابن هشام ١/١١٦ وانظر الحيوان طبع الحلبى ٧/٢١٤ .

مع مَن نزح من قبائل اليمن إلى الشمال . ويمكن أن نؤرخ لهذا النزوح بأواخر القرن الثالث للميلاد ، أو أوائل القرن الرابع حين أخذت آخر الدول اليمنية ، وهى الدولة الحميرية ، فى الاضمحلال[١] ، فنزحت هذه القبيلة من هناك لتسيطر على هذه المحطة التجارية التى كانت تمر بها القوافل اليمنية إلى الشام محمَّلة ببضائع اليمن والهند[٢] .

وما زالت خزاعة قائمة على هذه المحطة التجارية حتى انفجر سَدُّ مأرب حوالى سنة ٤٥٠ للميلاد[٣] ، فضعفت الدولة الحميرية فى اليمن ضعفاً تاما . وحول هذا التاريخ يظهر قُصَىٌّ مع قبيلة قريش فى مكة ، فيستولى عليها ، ويطرد خزاعة منها[٤] .

وقد ازدهرت التجارة فى مكة أثناء هذا العهد القرشى ، إذ أصبحت تحتكر التجارة فى بلاد العرب ، وأصبحت محطة كبيرة للتجارة الآتية من الجنوب ، تجارة اليمن وما يأتيها من الهند ومن الحبشة . وكانت أيضاً تأتيها من الشرق قوافل محملة بتوابل الهند التى تهبط على الخليج الفارسى . وقد كانت الحقبة الأخيرة من العصر الجاهلى حقبة ذهبية لتجارة مكة بسبب ما كان بين الروم والفرس من تصادم ، فكانت مكة

---

(١) O'Leary, Arabia Before Muhammad (London, 1927) p. 17.

(٢) المصدر نفسه ص ١٨١ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه ص ٨٩ وانظر تاريخ العرب المطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) ص ٨٤ .

(٤) الطبرى ١/١٠٩٢ وانظر مروج الذهب للمسعودى طبع باريس ٣/١١٩ .

مركز كل القوافل والتجارة الذاهبة إلى الشمال والمنحدرة إلى الجنوب أو الشرق ، وكانت قوافلها تذهب إلى غزة[١] ومنها إلى مصر[٢] ، كما تذهب إلى بُصْرَى فى سوريا[٣] .

ومن يقرأ أخبار هـذه القوافل يخيَّل إليه أن مكة نفسها كانت قافلة كبيرة مقيمـة ، تخرج منها هذه القوافل المتتابعـة إلى الشمال والجنوب . وفى القرآن الكريم : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » . أما رحلة الشتاء فكانت إلى اليمن ، وأما رحلة الصيف فكانت إلى الشام . والإيلاف : المعاهدة مع الملوك[٤] . وطبيعى أن يعقد زعماء قريش مع الملوك الذين يتاجرون وينزلون فى بلادهم معاهدات ، ويقال إن هاشماً جد الرسول عقد مع قيصر معاهدة[٥] ، وعقد عبد شمس أخرى مع النجاشى ، بينما عقد نوفل معاهدة مع الأكاسرة[٦] .

وفى هذا ما يشير إلى حركة هـذه القوافل الدائبة . وطبيعى أن هؤلاء الزعماء كما تعاقدوا مع ذوى الشأن فى البـلاد الأجنبية حتى ينظموا قواعد هـذه التجارة ، كذلك تعاقدوا مع أشراف العرب

---

(١) المغازى للواقدى ص ١٩٨ .
(٢) الولاة والقضاة للكندى ص ٧ .
(٣) ابن سعد المجلد الأول القسم الأول من الطبقات طبعة أوربا ص ٤٣ .
(٤) المسعودى ٣/١٢١ .
(٥) اليعقوبى طبع أوربا ١/٢٨٠ والطبرى ١/١٠٨٩ .
(٦) اليعقوبى ١/٢٨٢ والطبرى ١/١٠٨٩ .

وقبائلهم التى يمرون بها فى طرقهم حتى لا يقربوا قوافلهم نظير إتاوات وهدايا خصصوها لهم [١].

ونحن لا نستطيع أن نقف على مدى ما كانت تضطلع به مكة فى هذا العمل الشاق إلا إذا تصورنا الطرق الوعثة الطويلة التى كانت تمر بها هذه القوافل ، ويقال إن إحداها بلغت ٢٥٠٠ جمل [٢]. وتدل الأخبار المختلفة أنه كان يتقدم القافلة روّاد مستطلعون يتعرفون على أخبار الطريق كما حدث فى غزوة بدر ، فإن هؤلاء الرواد عرفوا أن الرسول سيهجم على القافلة التى وراءهم ، فذهبوا إلى مكة واستنفروا أهلها لإنقاذ القافلة [٣]. وكان يوجد مع القافلة أيضاً أدلاء يرشدونها فى طريق سيرها حتى لا تضل فى شعاب الصحراء [٤] ، وأيضاً كانت توجد معها حامية لحراستها ، وكانت أخلاطاً من قريش وعبيدها ، ثم شذاذ العرب وصعاليكها [٥].

وهكذا كانت قوافل قريش تجوب بلاد العرب شمالا وجنوباً وشرقاً ، تنقل تجارة المحيط الهندى والبحر الأحمر إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط . فمن إفريقية عن طريق اليمن كانت تنقل التبر

(١) اليعقوبى ١/ ٢٨٠ . (٢) طبرى ١/ ١٢٧١ .
(٣) ابن هشام ٢/ ٢٦٠ .
(٤) الأغانى طبع بولاق ١٩/ ٧٤ وانظر ابن هشام ٢/ ١٢٩ .
(٥) الأزرق ص ٤٦٢ ورسائل الجاحظ السابقة ٦٥ — ٦٦ وأغانى طبع بولاق ١٠/ ٢٨ ، ١٠/ ٣٢ ، ١٢/ ٤٩ ، ١٩/ ٧٥ .

والرقيق والصمغ والعاج ، ومن اليمن نفسها كانت تنقل الجلود والعطور والبخور وثياب عدن النفيسة ، ومن العراق كانت تنقل توابل الهند ، وأيضاً كانت تنقل الزبيب من الطائف والذهب من مناجم بنى سُليم ؛ كل ذلك تنقله إلى الشام ومصر ، ثم تعود محملة بالأسلحة والغلال والزيوت والخمر والأقمشة القطنية والكتانية والحريرية[١] .

ولعل فى هذا كله ما يرينا أهمية مكة فى العصر الجاهلى ، وقد جعلت هذه الأهمية أبرهة والى الحبشة على اليمن يغزوها سنة ٦٧٠ أو ٦٧١ للميلاد ابتغاء الاستيلاء على ما فيها من ثروة ، وإن كانت المصادر الإسلامية تجعل حملته دينية ، فتزعم أنه كان يريد هدم الكعبة . وباءت حملته بالفشل الذريع ، ففشت الأوبئة فى جيشه ولم ينج أبرهة نفسه من المرض والموت[٢] .

لم ينجح غزو أبرهة لمكة ، بل زاد فى تقديسها و إعظامها لما شاع من أخبار هذا الجيش المنهزم عنها ، وقد جمعت هذه الهزيمة قلوب العرب حولها ، وجعلتهم يحسون شيئا من القومية والاعتداد بأنفسهم وأمتهم . ولم يحاول ولاة الحبشة على اليمن بعد ذلك غزو مكة ، ولا حاولته أمة أخرى . فكانت مكة خالصة للعرب ، وكانت بكعبتها المقدسة رمزاً لاستقلالهم وقوتهم ، ومن هنا سميت أم القرى . وفى

---

(١) الأزرقى ص ٥٥ ومكة فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) ابن هشام ١/٥٤ وما بعدها .

القرآن الكريم « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً » فكان البيت آمناً ، وكانت مكة آمنة ، لا تدخلها أمة ، ولا تدين لأمة .

ويقول الجاحظ : « لم تزل مكة أمنًا ولَقَاحًا[1] ، لا تؤدى إتاوة ، ولا تدين للملوك ... » وقال حرب بن أمية فى ذلك :

أبا مطرٍ[2] هلمَّ إلى صَلَاحِ　　فتكفيكَ النَّدَامَى من قريشٍ
فتأمنَ وَسْطَهُم وتعيش فيهم　　أبا مطرٍ هُدِيتَ لخير عيش
وتنزلَ بلدةً عَزَّتْ قديمًا　　وتأمن أن يزورك ربُّ جيش[3]

ويقول ابن الفقيه : « إن أهل مكة لم يؤدوا فى الجاهلية إتاوة قط ، ودانت لهم خزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة ، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحِلِّ إذا دخلوا الحرم ... وهم بعد أعز العرب ، يتأمَّرون على العرب قاطبة»[4] . ويقول ابن دريد : إنهم كانوا يأخذون من العرب إتاوة تسمى الحريم ، كان يدفعها كل من نزل مكة فى الجاهلية[5] .

ولم تكن مكة تأخذ إتاوة من العرب فحسب ، بل كانت تأخذها أيضاً من التجار الأجانب الذين ينزلون بها ، وكانت تسمى ذلك

---

(١) اللقاح : الذى ليس فى سلطان أحد .
(٢) أبو مطر هو أبو الحضرمى يدعوه حرب لحلفه . وصلاح : اسم مكة كما تقدم .
(٣) الحيوان للجاحظ ١٤١/٣ .
(٤) كتاب البلدان لابن الفقيه طبع أوربا ص ١٨ .
(٥) الاشتقاق لابن دريد ص ١٧٢ وانظر الأزرق ص ١٧٥ .

العشور . ويذهب أوليرى إلى أنه كان بها وكلاء بيزنطيون ، وكانت مهمتهم تجارية أكثر منها سياسية[١] ، ولعل صهيباً الذى أسلم فيما بعد كان واحداً منهم . وأيضا كان ينزلها بعض الفرس[٢] ، وكان بها جالية[٣] حبشية كبيرة .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على عِظم شأن مكة فى الجاهلية ، وقد ذهب لامنس فى كتابه عنها إلى أنها كانت جمهورية وأنه يمكن مقارنتها بالبندقية[٤] ، وذهب أوليرى إلى أنها لم تَعْدُ اتحاد قبائل ارتبط بعضها ببعض فى حلف ، هدفه نقل التجارة[٥] . ولعل من الطريف أنه كان بها مَلأ ، وهو مجلس شيوخ مصغر ، وكان لا يدخله إلا من بلغ أربعين سنة[٦] . ولم يكن هناك انتخاب لاختيار شيوخ مكة فى الملأ ، إنما كانوا يختارون ، على ما يظهر ، حسب غناهم وخدماتهم التى يؤدونها . وكل ما فى الأمر أنهم كانوا يختارون من بطون قريش البطاح ، وهم : هاشم وأمية ومخزوم وجمح وسهم وتيم وعدى وأسد

---

(١) كتاب أوليرى السابق ص ١٨٤ .

(٢) المسعودى ٢/١٤٨ إذ يزعم أن الفرس كانت تقصد البيت الحرام وتطوف به .

(٣) كتاب أوليرى ص ١٨٤ وانظر مجلة كلية الآداب (الجامعة المصرية) سنة ١٩٣٣ .

(٤) Lammens, La Mecque (Beyrouth, 1924) p. 175.

(٥) كتاب أوليرى ص ١٨٣ .

(٦) الاشتقاق ص ٩٧ وابن هشام ٢/٢٩٨ .

ونوفل وزهرة[١] . وكان هؤلاء الشيوخ ينظرون فى شئون مكة الدينية والتجارية ، ولم يكن لأحد منهم امتيازات على نظرائه وأقرانه ، وإنما كانوا جميعا متساوين بتراض منهم .

ومن غير شك كان ينمو فى هذه الجمهورية أو فى هذا الاتحاد للقبائل القرشية نظام تجارى معقد ، فكانت هناك المكاييل والموازين[٢] ، وكان هناك البيع الحاضر و بيع النسيئة أو البيع المؤجل[٣] ، كما كانت هناك المضاربة ، وهى أن يأخذ الشخص مالا من غيره فيتجر فيه ، ويكون له حظ معلوم من الربح على نحو ما صنعت خديجة مع الرسول صلى الله عليه وسلم قبل زواجه منها[٤] ، وكانوا يتعاملون على أساس دنانير الروم ودراهم الساسانيين[٥] . ويقول لامنس إنها كانت تشبه مصرفاً كبيرا ، وكان الربح فى هذا المصرف عظيما[٦] ، ومن هنا كان الربا فيه فاحشا ، حتى لقد يخرج أهله الدينار بدينارين . وفى القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » .

وكان يساهم فى هذه التجارة كل فرد من أفراد قريش فى مكة حتى النساء كان لهن سهم فيها ، وقد اشتهر الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) المحبر لابن حبيب طبع الهند ص ١٦٧ والمسعودى ٣/١١٩ .
(٢) كتاب مكة للامنس ص ٢٢٤ وفتوح البلدان ص ٤٦٦ .
(٣) مسند ابن حنبل ١/٣٩٨ .
(٤) الطبرى ١/١١٢٧ والأزرقى ص ٤٧١ .
(٥) كتاب مكة ص ٢٢٦ وانظر مكة فى دائرة المعارف الإسلامية .
(٦) كتاب مكة ص ٣٠٥ وانظر الطبرى ١/١٤٦٠ والواقدى ص ١٩٨ .

بتجارته فى أموال السيدة خديجة ، ويروى الرواة أن هنداً زوجة أبى سفيان وأم معاوية كانت تتجر فى قبيلة كلب بالشام .

وقد اشتهر فى مكة قبل الإسلام بيتان بالثراء : بيت الأمويين و بيت المخزوميين . ويقال إن أكثر قافلة بدر كان للأمويين[١] ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان يرأس هذه القافلة . وفى الاشتقاق لابن دريد معلومات طريفة عن ثروات المخزوميين ، حتى كان منهم من يسمى ربّ مكة[٢] . ويظهر أن الثراء لم يكن خاصا بهذين البيتين ، فنحن نجد من قبيلة أبى بكر الصديق عبد الله بن جُدْعان وكان يتجر فى الرقيق ، وقد شبّهه بعض الشعراء بقيصر إذ يقول[٣] :

يومَ ابنُ جُدْعانَ بجنبِ الحَزْوَرَهْ كأنَّهُ قَيْصَرُ أو ذو الدَّسْكَرَهْ

وفى اليعقوبى أن سادات قريش فوق آل جفنة[٤] . وفى الحيوان للجاحظ أنهم فوق كسرى وآل كسرى[٥] .

وهذه البلدة التاجرة استلزمت تجارتها كما استلزمت الحياة فيها أن توجد بعض الصناعات بها ، وفى أخبارها أن منها من كان حدّاداً أو نجاراً أو خياطا أو جزاراً أو صانع بُرَم[٦] . ومعنى ذلك أن مكة

(١) انظر مكة فى دائرة المعارف الإسلامية .
(٢) الاشتقاق ص ٦٠ وكذلك ٩٢ .
(٣) معجم البكرى ص ٤ . (٤) اليعقوبى ١/٢٨١ .
(٥) الحيوان ١/١٦٥ ، وفى الحيوان ٢/٢٤٦ : إذا قالوا سيد قريش فقد قالوا سيد العرب .
(٦) الأعلاق النفيسة لابن رستة طبع ليدن ص ٢١٥ ، والمحاسن والأضداد للجاحظ طبع فان فلوتن ص ١٦٥ .

فى الجاهلية كانت أشبه بمدينة ، ففيها الملأ أو مجلس الشيوخ ، وفيها البطون الممتازة بطون النبلاء التى تنزل فى البطاح . ووراءهم قريش الظواهر ومعهم الحلفاء والفازلة[١] والموالى والرقيق . ويروى الرواة عن بعض المخزومين أنه كان له رقيق أو عبيد من الحبشة يحترفون جميع المهن ، وكان عددهم كثيراً[٢] .

وتكوين مجتمع مكة على هذا النمط من أحرار وعبيد أو أشراف ورقيق ، كثير الشبه بمجتمع أثينا القديمة . ويقال إن هنداً بنت عبد المطلب عمة الرسول أعتقت فى يوم واحد أربعين رجلا من عبيدها[٣] . وهذا معناه أن العبيد كانوا كثيرين جداً فى مكة قبل الإسلام .

وليس عندنا نصوص كثيرة تصور مدى ترف أشراف مكة ، ولكن لا بد أنهم بلغوا من ذلك حدًّا واسعاً بحكم ما تمتعوا به من ثراء حتى ليقال إنهم كانوا يصيِّفون فى الطائف ويشتّون فى جدة . ويقال إنه كان لأبى سفيان ضيعة فى سوريا ينزل فيها أثناء تجارته . ونجد فى سورة الزخرف استهزاء بمن ينشَّأ فى الحلية والزينة[٤] ، ويقال إن عبد المطلب دفن فى حلتين قيمتهما ألف مثقال من الذهب[٥] . وكان بينهم من يلبس الثوب بخمسين[٦] دينار أو نحو ثلاثين جنيها . وكما

---

(١) الطبرى ١/١٢٠٣ والحيوان ٧/٢١٤ .

(٢) أغانى طبع دار الكتب ١/٦٥ وفى الأجزاء التسعة الأولى دائماً نرجع إلى طبعة دار الكتب .

(٣) المحاسن والأضداد ص ٧٧ .

(٤) سورة الزخرف آية ١٨ .

(٥) اليعقوبى ٢/١٣ .

(٦) مسند ابن حنبل ٣/٤٠٣ .

تأنقوا فى ملابسهم تأنقوا شيئا فى طعامهم فعرفوا أنواعا من طعام الأمم الأجنبية من مثل الفالوذج[١] .

وكانت مكة فى الجاهلية وثنية ، بل كانت حارسة الوثنية فى الجزيرة العربية ، فقد كان بها الكعبة بيت الأوثان والأصنام . ويستطيع من يتتبع أخبارها فى هذا الجانب ويقف عند الآلهة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم وما جاء فيه من وصف عباداتها أن يعرف أنها كانت تقدس بعض الأجرام السماوية . وفى القرآن « أفرأيتم اللات والعُزَّى ومَناة الثالثة الأخرى » .

ويذهب أوليرى إلى أن العُزَّى تطابق كوكب الزهرة ، بينما تمثل اللات الشمس[٢] ، ونجد فى أسمائهم كثيراً عبد شمس . أما مناة فكانت صخرة لهذيل وخزاعة ، وفيها ما يشير إلى أنهم قدَّسوا بعض الأحجار . وفى القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام[٣] رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . والأنصاب : حجارة تُنْصَبُ وتصبّ عليها دماء الذبائح وتُعْبَد باعتبارها مقرًّا للروح . وكما قدسوا الحجر قدسوا الشجر مثل ذات أنواط التى كان يحج إليها المكيون سنويا .

ويذكر القرآن الكريم بجانب مناة واللات والعزى آلهة أخرى ،

---

(١) أغانى ٨/٣٢٩ .
(٢) انظر كتاب أوليرى ص ١٩٤ .
(٣) الأزلام : القداح .

إذ يقول جل وعز فى سورة نوح : « ولا تذرُنَّ وَدًّا ولا سُوَاعاً ولا يغوثَ ويعوقَ ونَسراً » . وكلمة نَسْر تشير فى وضوح إلى الطائر المعروف ، ولعل فى هذا ما يدل على أنهم قدسوا بعض الحيوان والطير ، أما كلمة ود فمعناها الصداقة ومعنى يغوث يعين ، ومعنى يعوق يحافظ ، وهى صفات تشير إلى أرواح حافظة .

وكان العرب فى الجاهلية يحجون إلى الكعبة بيت هذه الآلهة وأصنامها وأوثانها ، وتزعم الرواية العربية أن عمرو بن لُحَى الخزاعى هو الذى أدخل الأصنام مكة[1] ، ويقال إنه كان فى الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة ثلاثمائة صنم وستون[2] أشهرها اللات والعزى ومناة ، ثم هُبَل ، وهو كبير آلهتهم ، ويظهر أنهم كانوا يرمزون به لربهم . وفى القرآن الكريم ما يدل على أنهم كانوا يؤمنون بالله ، قال تعالى على لسانهم : « وقالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلفى » ، ولكنهم على كل حال كانوا وثنيين يعبدون ويقدسون أشياء كثيرة من نجوم وأحجار وأشجار .

على أن هذه الوثنية فى مكة لم تمنعها من الاتصال بالمسيحية واليهودية عن طريق الرقيق الحبشى وغير الحبشى الكثير فيها ، وأيضاً عن طريق المستعمرات اليهودية التى كانت منبثة فى الحجاز ، ثم ما كان من اختلاط أهلها أنفسهم أثناء تجارتهم فى الشام وغير الشام بالمسيحيين واليهود ، حتى

(١) ابن هشام ١/ ٧٨ والمسعودى ٣/ ١١٤ والأزرقى ص ١٣٣ .
(٢) الأزرقى ص ٧٦ .

ليقال إن بعضاً من أهلها تنصروا قبيل الإسلام ، فاليعقوبى يقول : « أما من تنصّر من أحياء العرب فقوم من قريش[١] » ويذكر منهم ورقة بن نوفل ، ومنهم أيضاً عتبة بن أبى لهب وعثمان بن الحويرث الأسدى[٢] . وفى السيرة النبوية أن حليمة السعدية حين رجعت بالرسول من البادية بعد فطامه لقيها نفر من الحبشة نصارى[٣] ، وفى ابن سعد أنهم كانوا يهوداً[٤] . ونجد فى أسد الغابة شخصاً يسمى شمعون[٥] ، وفى السيرة النبوية شخصا يسمى جبراً كان عبداً لبنى الحضرمى ، وكان مسيحيا[٦] . ويذكر الواحدى عبدين نصرانيين نزلا فى مكة وأصلهما من عين التمر[٧] . ولا بد أن بعض مسيحيى الجزيرة فى نجران وفى الحيرة وبعض يهودها المنتشين فى الحجاز كانوا يفدون على سوق عكاظ وسوق ذى المجاز اللتين كانتا تقومان بجوار مكة ، وقد وفد قس بن ساعدة على سوق عكاظ وخطب فيها قبيل الإسلام[٨] .

ويقال إن شماساً زار مكة فى الجاهلية[٩] وكان يعيش فى مَرّ الظهران راهب مسيحى[١٠] . ومن طريف ما يذكره ابن الأثير فى

---

(١) اليعقوبى ١/٢٩٨ .
(٢) المحبر ص ١٧١ وابن هشام ١/٢٣٩ .
(٣) ابن هشام ١/١٧٧ .
(٤) القسم الأول من المجلد الأول ص ٧١ .
(٥) أسد الغابة ٣/٤ . (٦) ابن هشام ٢/٣٣ .
(٧) أسباب النزول ص ٢١٢ . (٨) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .
(٩) ابن هشام ١/٣٤٩ وأسد الغابة ٣/٣٧٥ .
(١٠) السيرة الحلبية ١/٧٥ .

أسد الغابة أنه كان بمكة جوار روميات[١] .

ومع ذلك فإن هذا كله لم يكن له قيمة بالنسبة لوثنيّي مكة ، فقد كانوا محافظين على دين آبائهم ، وكانوا حراساً على الوثنية الجاهلية ، فهم سَدَنة الكعبة وأصنامها ، وحقا إن جماعة منهم تشككت فى دينها وتحنَّفت[٢] أو تنصرت ، ولكن هؤلاء كانوا شذوذاً فى قومهم ، وكانوا يعدونهم مارقين من دينهم .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على ارتفاع شأن مكة فى الجاهلية ، فقد كانت تعد عاصمة الجزيرة العربية ، وقد اتخذت من عكاظ سوقاً يلتقى فيه الخطباء والشعراء ، وبذلك كانت قطب الدائرة الأدبية فى الجزيرة ، فضلا عن ثرائها ومكانتها التجارية والدينية .

٣

فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين

ما زالت مكة قائمة بوظيفتيها التجارية والدينية حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم حين استكمل أربعين عاماً يدعو الناس إلى هدى الإسلام . وأسرع إلى تلبية دعوته زوجه السيدة خديجة ، ومولاه زيد ابن حارثة ، وابن عمه على بن أبى طالب ، وأبو بكر الصديق ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه

(١) أسد الغابة ١/٣٨٧ وانظر ٤/٢٣٢ ، ٥/١٩٤ ، ٥/٤٦٢ .
(٢) ابن هشام ١/٢٣٧ وانظر المحبر ص ١٧١ .

عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر بن قحافة[١] . وعلى يد أبى بكر أسلم عثمان والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن أبى وقاص ، ثم أسلم أبو عبيدة وأبو سلمة والأرقم وعثمان بن مظعون وسعيد بن زيد وزوجه[٢] أخت عمر بن الخطاب .

وأقام رسول الله بمكة ثلاث سنين يدعو سرًا إلى الإسلام[٣] ، ثم أمره ربه أن يصدع بما أرسله ، فأخذ يدعو قومه جهراً بالحكمة والموعظة ، ويجادلهم بالتى هى أحسن فى آلهتهم وعبادتهم . وفزعت قريش إذ كانت تعدُّ نفسها حارسة للوثنية فى الجزيرة ، وغضبت غضباً شديداً حين رأت الرسول الكريم يسفه آلهتها وأحلامها ، فناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته ، وراجعوا عمه أبا طالب ، وقالوا له : اعرض عليه أن يترك دعوته وأن يحتكم فى أموالنا بما يشاء[٤] ، فأجابه : ياعمّ والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته[٥] .

ومضى الرسول يجهر بدعوته ومضت قريش تحادُّه وتعانده ، بل لقد ذهبت تعذب من أسلموا وتحاول أن تفتنهم عن دينهم الجديد ، فلم يكن ذلك يردهم ، بل كان يزيدهم إيمانا[٦] . وقد أخذ سفهاء قريش

(١) ابن هشام ١/٢٦٩ .
(٢) نفس المصدر السابق وانظر اليعقوبى ٢/٢٢ .
(٣) اليعقوبى ٢/٢٣ .
(٤) نفس المصدر ٢/٢٣ .
(٥) انظر ابن هشام ١/٢٨٠ — ٢٨٥ .
(٦) ابن هشام ١/٢٧٨ .

يتعرضون للرسول بالإيذاء و يرمونه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ومن أهم من آذوه ونصبوا له العداوة أبو جهل[١] . وقد عدد ابن حبيب المؤذين من قريش للنبى وأصحابه ، فذكر منهم أبا لهب والحكم بن أبى العاص وعقبة بن أبى معيط وعدى بن حمراء الثقفى وعمرو بن الطُّلاطلة الخزاعى[٢] . و بجانب هؤلاء الذين آذوه كانت طائفة تتعمد الاستهزاء به و بدعوته وعلى رأسها العاص بن وائل السهمى والحارث بن قيس الكعبى ، وهو صاحب الأوثان ، وكان إذا مرَّ بحجر أحسن من الذى عنده أخذه وألقى الذى عنده ، وفيه نزلت الآية « أرأيت من اتخذ إلٰهه هواه » ومنهم أيضاً الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة المخزومى والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف ابن زهرة[٣] .

ووثبت كل قبيلة تعذب من أسلم منها ، وخاصة الموالى ، بالضرب والجوع والعطش و برمضاء[٤] مكة إذا اشتد الحر . وكان أبوجهل إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرفٌ ومنعة أنَّبه وأخزاه ، وقال : تركت دين أبيك ، وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ولنضعن شرفك ، و إن كان تاجراً قال والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، و إن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به[٥] .

---

(١) ابن هشام ١/٣١١ .
(٢) المحبر ص ١٥٧ وانظر اليعقوبى ٢/٢٣ .
(٣) المحبر ص ١٥٨ .
(٤) ابن هشام ١/٣٣٩ وما بعدها .
(٥) ابن هشام ١/٣٤٢ .

ولما رأى رسول الله ما يصيب أصحابه من العذاب والجهد الشديد أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ، وكان ذلك فى السنة الخامسة للبعثة ، حتى يجعل الله لهم مخرجا مما هم فيه ، فخرج أولا اثنا عشر رجلا ثم خرج سبعون[١] سوى أبنائهم ونسائهم ، فأكرم النجاشى وفادتهم ، وتبعتهم قريش هناك إذ نراها توجّه بعمرو بن العاص وعمارة بن الوليد المخزومى إلى النجاشى ومعهما الهدايا ، يطلبان منه أن يخرج هذه الجماعة المسلمة من بلاده ، وأن يكف عنهم حمايتهم[٢] ، ولكن النجاشى لم يُصْغ إلى قريش ورد رسولها ردا قبيحاً[٣] . وفى هذه الأثناء أسلم حمزة وعمر بن الخطاب ، فقويت شوكة المسلمين بهما . غير أن ذلك لم يفتّ فى عضد قريش ، فنرى ملأها أو مجلس شيوخها يجتمع ويقرر كتابة صحيفة ظالمة ، تتعاقد فيها قبائل قريش ضد بنى هاشم و بنى المطلب على ألا يصهروا إليهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم . فكتبوا ذلك وعلقوا صحيفته فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم[٤] .

ثم حصرت قريش رسول الله وأهل بيته من بنى هاشم و بنى المطلب فى شِعْبٍ يسمى شعب بنى هاشم ، وكان ذلك فى السنة السادسة من

---

(١) اليعقوبى ٢/٢٨ وانظر ابن هشام ١/٣٥٣ .
(٢) اليعقوبى ٢/٢٨ وابن هشام ١/٣٥٦ .
(٣) انظر القصة فى ابن هشام ١/٣٥٦ وما بعدها .
(٤) ابن هشام ١/٣٧٥ .

البعثة ، واستمر الحصار ثلاث سنين[(١)] . ولما سمع من هاجروا إلى الحبشة بإسلام حمزة وعمر وآخرين معهما ظنوا أن مركز المسلمين قوى فى مكة فعادت كثرتهم[(٢)] ، وتصادف أن الصحيفة التى علقتها قريش فى الكعبة أكلتها الأرضة ، أو لعل قريشا نفسها رأت أن تعود فيما أبرمته ضد آل المطلب وهاشم ، فمزقت الصحيفة[(٣)] ، وعادت بذلك للمحصورين حريتهم أو على الأقل عاد شىء من حريتهم .

وقد أخذت أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته قريشا تُنْقَل من مكة إلى القبائل المجاورة وغير المجاورة ، فإن مكة كانت مركزاً تجاريا يلتقى العرب إما فيها وإما فى أسواقها ، فطبيعى أن تسمع القبائل بهذه الدعوة الجديدة ، وكان الرسول يسعى إلى رؤساء العرب الذين يتجمعون هناك يعرض عليهم الإسلام . ويقال إن قريشاً رصدت له سبعة عشر نفرا اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عنه[(٤)] . وروى اليعقوبى أن رسول الله قام بسوق عكاظ عليه جبة حمراء ، فقال : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا . وإذا رجل يتبعه له غديرتان كأن وجهه الذهب ، وهو يقول : يا أيها الناس إن هذا ابن أخى وهو كذاب فاحذروه . ولم يكن هذا الرجل سوى أبى لهب عم الرسول[(٥)] ، وكان يكثر من إيذائه هو

---

(١) اليعقوبى ٢/٣٠ . (٢) ابن هشام ٢/٣ .

(٣) ابن هشام ٢/١٤ وما بعدها وانظر اليعقوبى ٢/٣١ .

(٤) المحبر ص ١٦٠ . (٥) اليعقوبى ٢/٢٣ وما بعدها .

وزوجه ، وفيهما نزلت السورة الكريمة « تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد » .

ولم تلبث السيدة خديجة أن توفيت فى السنة العاشرة من البعثة[١] وتوفى على أثرها أبو طالب ، فأثّر ذلك فى نفس الرسول واجترأت عليه قريش ، إذ كان أبو طالب يحميه ، وهمّوا به غير مرة ، فرأى رسول الله أن يولى وجهه نحو الطائف وأن يدعو أشرافها إلى الإسلام ، لعلهم يأوونه وينصرونه ، غير أنهم هزئوا به ، ورماه سفهاؤهم بالحجارة ، فعاد محزونا إلى بلده[٢] .

وفى أثناء ذلك لقى الرسول صلى الله عليه وسلم جماعة من أهل المدينة ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا[٣] . ولما دار العام أقبل عليه وفد يضمّ عشرة من الخزرج واثنان من الأوس فبايعوه بيعة العقبة الأولى ، وبعث معهم مصعب بن عمير يعلمهم فروض الإسلام ويفقههم فى الدين[٤] ، حتى إذا استدار العام أتاه وفد ثمان يضم سبعين رجلا وامرأتين ، فسألوه الخروج إليهم وبايعوه بيعة العقبة الكبرى[٥] . وقد عاهدوه أن ينصروه على القريب والبعيد والأسود والأحمر وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وأولادهم .

---

(١) اليعقوبى ٢/٣٤ .
(٢) ابن هشام ٢/٦١ واليعقوبى ٢/٣٦ .
(٣) ابن هشام ٢/٧٠ .
(٤) ابن هشام ٢/٧٥ وما بعدها .
(٥) ابن هشام ٢/٨٤ وكذلك ٢/٩٧ وانظر اليعقوبى ٢/٣٨ .

وكانت هذه البيعة إيذانا بانتقال النبى وأصحابه إلى المدينة فأمرهم أن يسبقوه إليها ، فلم تمض بضعة أشهر حتى نزلوها جميعا . ثم هاجر الرسول فى أثرهم ، فدقت البشائر عند هجرته فى المدينة وخرج أهلها فاستقبلوه استقبالا كريما ، وكلٌّ وَدَّ لو ينزل فى داره ، فنزل فى دار أبى أيوب الأنصارى ، حتى بنى له داراً و بنى بجوار الدار مسجدا[1] .

ولم تقف هجرة الرسول وأصحابه الصراعَ بينه و بين قريش ، فإنها خشيت من وجوده فى المدينة ، وهى فى طريقها إلى الشام ، تلك الطريق التجارية التى هى عماد ثروتها وحياتها . ولم تلبث الفرصة من قريش أن تعرضت للرسول فإن أبا سفيان قدم من الشام بعير لقريش تحمل أقواتاً وأموالا ، فخرج رسول الله يطلبه ، وعرف أبو سفيان ، فأرسل إلى مكة بضمضم بن عمرو الغفارى يستصرخ أهلها[2] ، فخرجوا لقتال رسول الله وصحبه ، وكانوا ألف رجل أو يزيدون ، وخرج رسول الله فى ثلثمائة فالتقى الجمعان فى بَدْر ، وكان ذلك فى السنة الثانية من الهجرة ، ودارت الدائرة على المشركين ، وقتل كثير من رؤساء قريش وسادتها ، ولم يبق إلا القليل الأقل من مَلَئِها أو مجلس شيوخها ، فقد قتل أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والعاص ابن هشام بن المغيرة وزمعة بن الأسود والحارث ابنه والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط . وقد بلغ من قتل من سادات قريش

(١) ابن هشام ٢/١٤١ .　(٢) اليعقوبى ٢/٤٥ .

سبعين رجلا[١] ، وتوفى أبو لهب بعد وقعة بدر بأيام كمداً وغيظاً . ويقول اليعقوبى إن العرب حين رأت من قُتِل من قريش فى وقعة بدر أوفدت وفودها إلى الرسول[٢] ، فقد أخذت كلمة الحق تعلو كلمة الباطل .

على أن قريشاً لم ترد الاستكانة لهذه الهزيمة المنكرة ، فجمعت جموعها فى العام التالى مستعينة بكل ما قدم به أبو سفيان فى قافلته من مال[٣] ، وخرجت من مكة فى ثلاثة آلاف . والتقى الفريقان فى أُحُد شمالى المدينة ، وكادت الدائرة أن تكون على المشركين لولا مخالفة النبّالة لأوامر الرسول ، فإنهم تركوا أماكنهم حين ولى المشركون الأدبار ، غير أنهم لم يلبثوا أن أتوهم من خلفهم وأعملوا السلاح فى ظهورهم ، وقتل حمزة بن عبد المطلب ، وهزم المسلمون[٤] .

ورجعت قريش إلى مكة وقد غرها ما أصابت من النبى وأصحابه ، فأخذت تجمع الأحزاب والقبائل ضده ، حتى إذا تم لها ما أرادت خرجت فى العام الخامس للهجرة يناصرها فى ذلك بنو النضير الذين أجلاهم الرسول عن المدينة[٥] ، كما يناصرها غطفان وقبائل كثيرة . ولما رأى الرسول أن لا قبل له بأعدائه حفر الخندق حول المدينة وبذلك سميت الغزوة غزوة الخندق ، وقد تسمى غزوة الأحزاب . ولما طالت محاصرة المدينة ولم تستطع هذه الأحزاب أن تصل إليها دَبَّ الشقاق بينها ، وأرسل الله

(١) اليعقوبى ٢/٤٦ . (٢) نفس المصدر ٢/٤٧ .
(٣) نفس المصدر ٢/٤٧ وابن هشام ٣/٦٤ .
(٤) اليعقوبى ٢/٤٨ . (٥) ابن هشام ٣/١٩٩ .

عليها ريحاً صرصراً عاتية ، عجلت برحيلهم دون أن يصيبوا من المدينة شيئاً[١] .

وفى السنة السادسة للهجرة خرج الرسول صلى الله عليه وسلم يريد العُمْرَة ، وساق من الهدى سبعين بدنة وساق أصحابه أيضاً ، وكان معهم السلاح ، أو كانوا مسلحين ، وقد بايعوا النبى بيعة الرضوان على القتال . ولما علمت قريش بذلك رأت أن تدخل مع الرسول فى معاهدة على أن لا يعتمر هذا العام ، ويؤجل ذلك إلى العام القابل فيخلوها له ثلاثة أيام وعلى أن الهدنة بينهم ثلاث سنين ، لا يؤذون فيها أحداً من أصحاب رسول الله ، ولا يمنعونه من دخول مكة ، وأيضاً لا يؤذى أحد من أصحاب رسول الله أحداً منهم . ورجع رسول الله إلى المدينة ثم خرج فى العام القابل فأدى العمرة ، وهى عمرة القضاء[٢] .

وكانت خزاعة قد دخلت فى عَقْد رسول الله بينما دخلت كِنانة فى عقد قريش ، فشجر الخلاف بينهما ، وأعانت قريش كنانة فأرسلوا مواليهم إليهم ، فقتلوا فى خزاعة . حينئذ استنجدت خزاعة بالرسول وبما بينها وبينه من عقد ، فصمم على غزو مكة ، وجمع لها كثيراً من القبائل التى دخلت فى الإسلام . وأقبل بهذا الجيش الضخم على مكة ، ورأت مكة أن لا طاقة لها به وبمن معه ، فأرسلت أبا سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء ليأخذوا لها الأمان . وفتح الله على نبيه وكفاه القتال ، ودخل الجيش مكة من أربع جهات ، ودخل رسول الله الكعبة

(١) اليعقوبى ٢/٥٠ . (٢) اليعقوبى ٢/٥٤ .

وأزيلت الأصنام، ومحيت الصور، وخطب فى القوم، فقال: « ألا كل دم ومال ومأثرة فى الجاهلية فإنه موضوع تحت قدمى هاتين إلا سِدانة الكعبة وسِقاية الحاج فإنهما مردودان إلى أهليهما، ألا وإن مكة محرّمة بحرمة الله لم تحلّ لأحد من قبلى ولا تحل لأحد من بعدى ... فهى محرمة إلى يوم القيامة، لا يُخْتَلَى[1] خلاها ولا يُعْضَد[2] شجرها ولا ينفّر صيدها ولا تحلّ لُقَطَتها إلا لمنشد[3] ». واستسلمت كنانة كما استسلمت قريش.

وبذلك انتهى الصراع بين الرسول ومكة ولكن بعد أن دوّخها وزعزع مركزها التجارى، فإن الطريق إلى الشام قطعه الرسول والمسلمون من حوله، وكان لذلك شأنه فى تدهور التجارة بمكة. وقد أخذت الأموال تستخدم لا فى البيع والشراء، ولكن فى حرب الرسول والمهاجرين وأهل المدينة، وأخذت الحرب تأكل هذه الأموال فلا تُبْقِى ولا تَذَرُ.

ومعنى ذلك أن التجارة أخذت تكسد فى مكة، وقد كان بعض المهاجرين من التجار كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، فخسرت مكة بعض رءوس الأموال، وأيضاً هؤلاء أنفسهم أخذوا يرسلون بالعير إلى الشام، فنافست المدينة مكة فى قوافل التجارة. ولما فتحت مكة

(١) يختلى: يقطع، والخلا: الكلأ.

(٢) يعضد: يقطع.

(٣) اليعقوبى ٢/٥٨ وما بعدها.

انتقل كثير من الأسر المهمة إلى المدينة ، وازداد هذا الميل إلى المهاجرة أثناء حكم الخلفاء الثلاثة الأول ، وقليل هم الذين عادوا بعد هجرتهم [١] ، وانتقلت بطون بأكملها [٢] . وضاع سلطان مكة القديم على العرب ، إذ تحول هذا السلطان إلى المدينة ، وأصبحنا لا نسمع عن قوافل مكّيّة كبيرة تقطع بلاد العرب صيفاً أو شتاء ، وحتى أسواقها كعكاظ وذى المجاز لم يعد لها أخبار تذكر . وكان الاستيلاء على العراق والشام فى عهد أبى بكر وعمر ورجوع الطريق التجارى القديم من خليج فارس إلى بلاد الموصل فالشام الضربةَ القاضيةَ على مركز مكة التجارى .

ولعل فى ذلك كله ما يوضح كيف أن مكة أخذت تضعف بعد الفتح ، فلم تعد البلدة الأولى فى الحجاز ، بل سبقتها ونافستها المدينة ، وقد أصبحت تابعة لها ، وولى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب [٣] ابن أسيد واستمر عليها فى عهد أبى بكر ، وولى عليها عمر ولاة مختلفين أهمهم نافع [٤] بن عبد الحارث الخزاعى ، أما عثمان فولّى عليها خالد بن العاص بن هشام ، ثم ولاة آخرين ولما خلفه علىّ ولى عليها قثم بن العباس بن عبد المطلب .

---

(١) انظر ابن سعد ٥/٣٢٨ .
(٢) نفس المصدر ٥/٣٣٦ .
(٣) ابن هشام ٤/١٤٣ .
(٤) ابن سعد ٥/٣٣٩ .

٤

فى العصر الأموى

لعل أهم ما يلاحظ على مكة فى أوائل هذا العصر أنها أو قُلْ إن كثرتها لم تكن مغاضبة لمعاوية ، إذ نهض للأخذ بثأر شيخها المقتول : عثمان . غير أن الظروف أخذت تتطور بعد ذلك ، فإن أهل مكة والحجاز جميعاً أخذوا ينقمون على الأمويين نقلهم عاصمة الدولة الإسلامية إلى دمشق فى الشام ، حتى إذا ولى الأمر يزيد بن معاوية رأينا المدينة تثور عليه ، وقد قتل الحسين فى وقعة كربلاء على ما هو معروف ، وخرج عبد الله ابن الزبير إلى مكة ، وعاذ بالبيت وسمى نفسه العائذ ، وأعلن هناك العصيان ، وطرد والى يزيد ، ومكث ينظر [١] .

وأرسل يزيد جيشاً كبيراً بقيادة مسلم بن عقبة ليديل من الثائرين فى المدينة ومكة ، وهاجم هذا الجيش المدينة فى وقعة [٢] الحرة ، ثم خرج منها يريد مكة وابن الزبير . واحتضر قائده فى الطريق فاستخلف الحصين بن نمير ، وقدم بالجيش مكة ، فحاصرها ورماها بالنيران فاحترقت الكعبة [٣] ، وكان ذلك سنة ٦٣ هـ . وفى هذه الأثناء توفى يزيد ، فرفع الحصار عن مكة ، ويقال إن الحصين قال لابن الزبير « هل لك أن أحملك إلى الشام ، فليس بالشام أحد فأبايع لك ، فليس يختلف عليك

(١) طبرى ٢/٢٢٢ . (٢) طبرى ٢/٤٠٥ .

(٣) طبرى ٢/٤٢٦ وما بعدها .

اثنان ؟ فقال ابن الزبير رافعاً صوته : لا والله الذى لا إله إلا هو أو نقتلَ بأهل الحرة أمثالهم من أهل الشام ، فقال له الحصين : من زعم أنك داهية فهو أحمق ، أقول لك مالك سرًّا وتقول لى ما عليك علانية ، ثم انصرف[١] » إلى الشام .

وأعلن ابن الزبير أنه خليفة المسلمين وتبعه كثير من البلدان ، تبعه الحجاز ، وتبعته مصر و بعض بلدان الشام ، كما تبعه العراق وخراسان ، ولم تبق ناحية خارجة عليه سوى الأردن وصاحبها يومئذ حسان بن بجدل الكلبى[٢] . وقد أخطأ ابن الزبير خطأ شنيعا ، إذ أمر بطرد بنى أمية من المدينة إلى الشام ، فساروا إليها وعلى رأسهم مروان بن الحكم[٣] . وهناك دعا مروان لنفسه ، وعُقِدَ مؤتمر فى الجابية عقدت فيه الخلافة لمروان[٤] . واتجه مروان مع أصحابه إلى دمشق حيث التقوا بالضحاك ابن قيس فى مرج راهط[٥] ، فكانت الدائرة عليه . وبذلك خلصت الشام لمروان ، وولى وجهه نحو مصر فدخلها وصالح أهلها وأعطوه الطاعة[٦] . وفى هذه الأثناء اضطرب حبل الأمور فى العراق ، وسرعان ما توفى مروان ، وولى الأمر من بعده ابنه عبد الملك .

وكان عبد الملك داهية من دواهى قريش ، ولعل من أهم ما يدل

---

(١) اليعقوبى ٢/٣٠١ وما بعدها وانظر المسعودى ٥/١٩١ .
(٢) اليعقوبى ٢/٣٠٤ .
(٣) طبرى ٢/٤٦٧ .
(٤) اليعقوبى ٢/٣٠٤ .
(٥) اليعقوبى ٢/٣٠٥ .
(٦) اليعقوبى ٢/٣٠٦ .

على دهائه أنه لما رأى ابن الزبير يتصل بأهل الشام وخاف أن يفسدهم عليه منعهم من الحج ، فقالوا له : أتمنعنا من حج بيت الله الحرام ، وهو فريضة فرضها الله ، فقال : بل هذا ابن شهاب الزهرى يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى ، ومسجد بيت المقدس . وبذلك صرفهم مؤقتا عن المسجد الحرام إلى مسجد بيت المقدس، واستغلّ الصخرة فيه التى يُرْوَى أن رسول الله وضع قدمه عليها حين صعوده إلى السماء ، فأقامها لهم مقام الكعبة ، فبنى عليها قبة ، وعلق فوقها ستور الديباج ، وأقام لها سدنة ، وأمر الناس أن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة[1] .

وقد أخذت الأمور تتطور فى جانب عبد الملك ، فإن العراق كثرت فيه الفتن ، فتن الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق وقد غلبوا على البصرة ، وفتن الشيعة بقيادة المختار الثقفى وقد غلبوا على الكوفة . فأرسل ابن الزبير أخاه مصعبا ، وكان بطلا من أبطال قريش وسيدا من سادتها ، فاستقام له العراق ، وقضى على المختار كما قضى — أو كاد يقضى — على الخوارج[2] .

وكان من أهم الأمور التى أساءت إلى ابن الزبير أنه تحامل على بنى هاشم فأخرجهم من مكة ، ويقول اليعقوبى إنه ترك الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبته فقيل له : « لم تركت الصلاة على النبى ؟

(١) اليعقوبى ٢/٣١١ . (٢) انظر اليعقوبى ٢/٣١٤ وما بعدها .

فقال : إن له أهل سوء ، يشرئبون لذكره ، و يرفعون رءوسهم إذا سمعوا به[١] » . وعلى كل حال كانت الأحوال مضطربة ، ولعل من أوضح ما يدل على اضطرابها أن نجد فى سنة ٦٨هـ أربعة ألوية بعرفات لواء مع محمد بن الحنفية وأصحابه ، وثان مع ابن الزبير ، وثالث مع نجدة ابن عامر الحَرورى ، ورابع مع بنى أمية[٢] .

وأخيراً سار عبد الملك إلى مصعب بن الزبير ، فلقيه بموضع يقال له دير الجاثليق على فرسخين من الأنبار ، فاقتتلا هناك قتالا شديداً ، ولم يلبث أصحاب مصعب أن انحازوا عنه ، ولكنه استمر يقاتل حتى قُتل[٣] ، وكان ذلك فى ذى القعدة سنة ٧٢ هـ .

وندب عبد الملك الناسَ لحرب ابن الزبير فى مكة فتقدم إليه الحجاج وكثيرون معه ، فوجهه إليه فى عشرين ألفا من أهل الشام وغيرهم . وقدم الحجاج بن يوسف ، فقاتل ابن الزبير قتالا عنيفا ، ولم يغن ابن الزبير تحصنه بالبيت ، فقد رماه الحجاج بالمجانيق من كل جانب ، حتى هدمه[٤] ، بعد أن بناه ابن الزبير وأنفق كثيراً فى بنائه[٥] .

ولما رأى ابن الزبير أنه لاطاقة له بحرب الحجاج دخل على أمه أسماء بنت أبى بكر فقال لها : كيف أصبحت يا أمى ؟ فقالت له : إن

---

(١) اليعقوبى ٢/٣١١ .
(٢) اليعقوبى ٢/٣١٤ وطبرى ٢/٤٥٢ وانظر ٢/٧٨١ .
(٣) انظر الطبرى ٢/٨٤٤ .
(٤) الطبرى ٢/٨٤٤.
(٥) اليعقوبى ٢/٣٠٩ وما بعدها .

فى الموت لراحة ، ثم قال لها : إنى أخاف إن قتلنى هؤلاء القوم أن يمثلوا بى ، فقالت يابنى إن الشاة لاتألم للسلخ إذا ذبحت ، فخرج وقاتل حتى قتل[١] وكان ذلك فى سنة ٧٣ هـ .

ولا ريب فى أن هذه الحوادث التى ألمت بمكة من عام ٦٣ هـ إلى عام ٧٣ هـ جعلها تقف فى صفوف المعارضة من بنى أمية ، ونحن نعرف أن هذه المعارضة كان موطنها العراق من حيث الخوارج والشيعة ، وقد اشتركت فيها الحجاز ومكة أثناء خلافة ابن الزبير . وأخذت حدّة هذه المعارضة تضعف مع مر الزمن ، ولكن استمرت النفوس مطوية على الإحن .

وإذا رجعنا إلى ولاة مكة فى هذا العصر الأموى وجدنا بينهم خالد[٢] بن العاص بن هشام والى عثمان ثم والى معاوية ، ويظهر أنها لم تدم معه طويلا ، فقد أخذت تتبع والى المدينة وممن ولاه عليها معاوية الوليد بن عقبة ، ونزعه يزيد وولى عمرو[٣] بن سعيد بن العاص ، ثم عزله وأعاد الوليد[٤] ، ثم عزله وولى عثمان[٤] بن محمد بن أبى سفيان وكان فتى حدثا لم يجرب الأمور ولم تجربه ، فكان لاينظر فى شىء من سلطانه وعمله[٥] .

ثم غرقت مكة فى حوادث ابن الزبير ، وكانت إذ ذاك عاصمة

---

(١) الطبرى ٢/٨٤٤ واليعقوبى ٢/٣١٩ .
(٢) طبرى ٢/١٦ وكذلك ص ٧١ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ .
(٣) طبرى ٢/٢٥٥ . (٤) طبرى ٢/٣٩٩ . (٥) طبرى ٢/٤٠٢ .

لخلافته ومقراً لإدارة سياسته ، ثم عادت إلى الأمويين . وكانت تمنح فى العادة لقرشى ، وإن كان قد تولاها عقب قتل ابن الزبير الحجاج ابن يوسف فأقام فيها سنة ثم تركها إلى العراق ، وفى أثناء حكمه لها وللحجاز بنى الكعبة وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابين[١] . ثم تعاقب عليها ولاة مختلفون أشهرهم نافع بن علقمة الكنانى وقد شدد فى النبيذ والغناء والمغنين[٢] . ومن أهم ولاتها خالد القسرى وليها فى عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٩ هـ ، وفى ولايته كتب الحجاج إلى الوليد « إن أهل النفاق والشقاق قد لجأوا إلى مكة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فيهم . فكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله القسرى ، فأخذ عطاء وسعيد بن جبير ومجاهدا وطلق بن حبيب وعمرو بن دينار ، فأما عمرو ابن دينار وعطاء فأرسلا لأنهما مكيان ، وأما الآخرون فبعث بهم إلى الحجاج[٣] » . وكانت فى خالد شدة ، وقد خطب فى أهل مكة يوما فقال :

« يا أيها الناس ! إنكم بأعظم بلاد الله حرمة ، وهى التى اختار الله من البلدان ، فوضع بها بيته ، ثم كتب على عباده حجه من استطاع إليه سبيلا . أيها الناس ! فعليكم بالطاعة وازوم الجماعة و إياكم والشبهات فإنى والله ما أوتى بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته فى الحرم ، إن الله جعل

---

(١) طبرى ٢/٨٥٤ .
(٢) أغانى طبع بولاق ١١/٢٠ .
(٣) طبرى ٢/١٢٦٢ .

الخلافة منه بالموضع الذى جعلها ، فسلّموا وأطيعوا ، ولا تقولوا كيت وكيت ، إنه لا رأى فيما كتب به الخليفة إلا إمضاؤه ، واعلموا أنه بلغنى أن قوماً من أهل الخلاف يقدمون عليكم ويقيمون فى بلادكم ، فإياكم أن تنزلوا أحداً ممن تعلمون أنه زائغ عن الجماعة ، فإنى لا أجد أحداً منهم فى منزل أحد منكم إلاهدمت منزله ، فانظروا من تُنزلون فى منازلكم ، وعليكم بالجماعة والطاعة فإن الفرقة هى البلاء العظيم[١] » .

ويروى أنه كان يقول : « والله لو أعلم أن هذه الوحش التى تأمن فى الحرَم لو نطقت لم تقر بالطاعة لأخرجتها من الحرم ، إنه لا يسكن حرم الله وأمْنَه مخالف للجماعة[٢] » . وأقر سليمان بن عبد الملك خالداً على مكة وأحدث فيها أحداثاً ، منها أنه أدار الصفوف حول الكعبة وقد كانت صفوف الناسَ فى الصلاة بخلاف ذلك[٣] .

ولعل فى هذا ما يدل على أن مكة انصرفت عن بنى أمية ، فقد أصبحت بينها وبينهم دماء منذ قام فيها ابن الزبير ، وقد حج الوليد سنة ٩٤هـ فخطب بها خطبة بتراء ، توعد فيها أهلها ، وتهددهم[٤] . وينتهى القرن الأول وندخل فى القرن الثانى ولا توجد حوادث واضحة فى هذا القرن سوى ما كان من استيلاء الإباضية برئاسة أبى حمزة الخارجى على مكة سنة ١٢٧هـ ، واستولوا أيضاً على المدينة ، ثم ولوا وجوههم نحو

(١) طبرى ٢/١٢٣١ .
(٢) طبرى ٢/١٢٣٢ .
(٣) المسعودى ٥/٣٩٩ .
(٤) اليعقوبى ٢/٣٤١ .

الشام ، فلقيتهم جيوش مروان بن محمد ، وهزمتهم هزيمة نكراء ، وتبعتهم ، حتى اليمن حيث قتل زعيمهم عبد الله بن يحيى الكندى الذى يسمى طالب الحق [١] .

٥

ثراء وحضارة

من أهم ما يميز مكة فى العصر الجاهلى أنها كانت بلد ثراء شديد ، فقد كانت تتجر كما قدمنا ، وكانت قوافلها تجوب بلاد العرب ، وكان فيها بيوت ثرية كبيرة ، أهمها بيت بنى أمية و بنى مخزوم . ولا بد أن عبد الله ابن جدعان كان ثريا ثراء عظيما ، فقد قرنه بعض الشعراء — كما تقدم — إلى قيصر ، و يبالغ الرواة فى كرمه وما كان يبذل للناس [٢] . وقد بلغت الأرباح فى قافلة بدر خمسة وعشرين ألف دينار ، وتنازل عنها أصحابها لحرب النبى [٣] ، وفى هذا التنازل ما يدل على أن أصحاب هذه الأموال كانوا من ذوى الألوف . ومن أشهر الأثرياء حينئذ أسرة سعيد بن العاص وكان لها فى قافلة بدر ثلاثون ألف دينار ، ولبقية الأمويين عشرة آلاف . فأكثر مال القافلة كان للأمويين ، ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان يرأس هذه القافلة . ومن أثرياء مكة من بنى مخزوم

---

(١) اليعقوبى ٢/٤٠٦ .
(٢) أغانى طبع دار الكتب ٨/٣٢٢ وانظر المحبر ص ١٣٧ .
(٣) اليعقوبى ٢/٤٧ .

الوليد بن المغيرة وعبد الله والد عمر بن أبي ربيعة . وقد دفع المخزوميون للرسول فى فداء بعض أسراهم أربعة آلاف درهم[١] ، وافتدوا رفات قتيل يوم الخندق بعشرة آلاف درهم[٢] . ومن أثرياء بنى هاشم المعدودين العباس ابن عبد المطلب ، وقد افتدى نفسه يوم بدر وابنى أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بمائة وأربعين أوقية[٣] .

وفى كل مكان نسمع أخبار هذا الثراء الفاحش وما يتبعه من كرم وضيافة . عن أبي ذر قال : « قدمت مكة معتمراً فقلت أما من مضيف ؟ قالوا : بلى كثير وأقربهم منزلا الحارث بن هشام المخزومى ، فأتيت بابه ، فقلت : أما من قِرًى ، فقالت لى الجارية : بلى ، فأخرجت إلىّ زبيباً فى يدها ، فقلت : ولمَ لم تجعليه فى طبق ؟ فعلمت أنى ضيف ، فقالت : ادخل ، فدخلت ، فإذا أنا بالحارث على كرسى و بين يديه جفان فيها خبز ولحم وأنطاع عليها زبيب فقال : أصِبْ ، فأكلت ، ثم قال هذا لك ، فأقمت ثلاثاً ، ثم رجعت إلى المدينة فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم خبره ، فقال : إنه لسرى ابن سرى ، وددت أنه أسلم[٤] » . وأخبر الكلبى فى إسناده عن رجلين من بنى سُليم أخوين قالا : « دخلنا مكة معتمرين فى سنة ، فما وجدنا بها شواء ولا قرى ، فبينا نحن كذلك إذ رأينا قوماً يمضون ، فقلنا أين يريد هؤلاء القوم ؟ فقيل لنا يريدون

(١) الواقدى ص ١٣٦ .
(٢) ابن هشام ٣/٢٦٥ .
(٣) اليعقوبى ٢/٤٦ .
(٤) المحبر ص ١٣٩ .

الطعام ، فمضينا فى جملتهم حتى أتينا دارا ، فولجناها ، فإذا رجل آدم أحول على سرير وعليه حلة سوداء ، وإذا جفان مملوءة خبزا ولحما فقعدنا فأكلنا ، فشبعت قبل أخى ، فقلت له : كم تأكل ؟ أما شبعت ؟ فقال الجالس على السرير : كل ، فإنما جُعِل الطعام ليؤكل ، فلما فرغنا خرجنا من باب للدار غير الذى دخلنا منه ، فإذا نحن ببابل موقوفة ، فقلنا : ما هذه الإبل ، قيل : للطعام الذى رأيتم ، فسألنا عن الرجل صاحب الطعام ، فإذا هو أبوجهل بن هشام[1] » وفى أبيه هشام يقول بجير بن عبد الله[2] :

فأصبح بطنُ مكة مقشعرًا كأن الأرض ليس بها هشامُ

ومن هؤلاء المخزوميين من كان يقال له ربّ مكة كما قدمنا . والحق أن قريشا بلغت مبلغاً عظيما من الثراء أثناء العصر الجاهلى ، حتى اشتهر أشرافها بأنهم كانوا يملكون دوراً ليصيفوا فيها بالطائف .

وليس من ريب فى أن هذا كله يؤكد أنه كان هناك ثروات ضخمة فى الجاهلية . وقد أخذت هذه الثروات تتأثر أثناء الحروب بين النبى صلى الله عليه وسلم و بين مكة ، كما أخذت تتأثر أكثر بهجرة كثير من أصحابها إلى المدينة . بل لقد أغلقت طرق القوافل المكية حينما فتح طريق العراق إلى الشام بعد فتح البلدين ، فحملت فيه تجارة الهند . غير أن مكة فتح لها طريق آخر ، لم يكن فى هذه المرة طريق قوافل ،

(١) المحبر ص ١٤٠ . (٢) المحبر ص ١٣٩ .

ولا كان خاصا بها ، بل كان عاماً لها ولأهل المدينة والعرب جميعا وهو هذا الطريق ، بل الطرق الحربية ، التى انتهت بالعرب إلى كنوز بلاد فارس ومصر والشام . وكان القرشيون مميزين فى هذه الفتوح ، فكان كثير منهم يرأس الجيوش والحملات ، وكان كثير منهم يتولى على المقاطعات والولايات . وقد انصبت كنوز الأرض فى حجورهم وحجور العرب ، ويقول ابن خلدون : «إن بحار الرفه زخرت لديهم حتى كان يقسم للفارس الواحد فى بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب»(١) وقد روى أن الأسلاب قسمت بعد موقعة القادسية فبلغ سهم الفارس أربعة عشر ألفاً وسهم الراجل سبعة آلاف ومائة(٢) . ويروى أن عمر خطب فى الناس مرة ، فقال : « إنه قدم علينا مال كثير إن شئتم أن نعده لكم عداً ، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلا(٣) » وبلغ خراج سواد الكوفة وحدها فى عهد عمر عشرين ومائة ألف ألف(٤) ، وكان سعيد بن العاص يقول إن سواد الكوفة بستان قريش(٥) . ويقول الرواة إنه لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة رأى عمر أن الفتوح قد توالت وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت ، وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت ، فدوّن الدواوين وفرض العطاء وجعل لكل واحد من المسلمين نوعا مقررا تراوح بين

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٧ .
(٢) اليعقوبى ٢/١٦٥ .
(٣) البلاذرى طبع أوروبا ص ٤٥٣ .
(٤) اليعقوبى ٢/١٧٤ .
(٥) ابن سعد ٥/٢٢ .

ألف وخمسة آلاف فى العام[١] .

وهذا كله كان يصبُّ فى بلاد العرب وخاصة فى البلدتين الكبيرتين اللتين كانت تقيم فيهما قريش ، وهما مكة والمدينة . وأخذ القرشيون يثرون ثراء لا نكاد نتصوره الآن ، فقد خلف طلحة بن عبيدالله ثلاثمائة بهار من ذهب وفضة[٢] ، والبهار : مزود من جلد عجل . ووقف المسعودى عند هذه الثروات وقفة طويلة ، واستعرض ما صار إليه كبار الصحابة وعجَّب منه[٣] . ولا عجب فقد ملك العرب الأرض ، وأصبحوا من ذوى الألوف المؤلفة ، ومنهم من بلغت ثروته نحو مليون من الدنانير ، فقد روى المسعودى أن يَعْلى بن مُنية مات عن خمسمائة ألف دينار وديون وعقارات قيمتها ثلاثمائة ألف دينار . ويعلى بن منية أحد من نزلوا مكة بعد أن هاجروا منها فى عهد الرسول[٤] .

ونحن إنما تصادفنا مثل هذه النصوص القليلة ولكنها تدل على ما وراءها ، وأن كثيرين من أهل مكة أثروا ثراء واسعاً على نحو ما أثرى طلحة ويعلى بن منية . ومن أهم أثريائها وأجوادها فى العصر الإسلامى الأول عبد الله بن عامر والى عثمان على البصرة ، وقد اشترى سوق البصرة من ماله ووهبها لأهلها ، فلم يكونوا يؤدون عنها خراجا[٥] ،

(١) الفخرى طبع أوربا ص ١٠١ .
(٢) العقد الفريد طبع بولاق ٢/٢٧٩ .
(٣) المسعودى ٤/٢٥٣ وما بعدها .
(٤) ابن سعد ٥/٣٣٧ .
(٥) المحبر ص ١٥٠ .

واتخذ فى مكة حياضا ونخلا بعرفات ، وأقام النباج ، وهى قرية على الطريق بين مكة والبصرة ، واتخذ قريتين أخريين وغرس بهما نخلا وأنبط عيونا[١] . ويعرض ابن حبيب لجود القرشيين فى أوائل العصر الإسلامى عرضاً يشبه الآن أن يكون قصصاً ، فمنهم من كان يهب البستان قيمته ستمائة ألف دوهم ، ومنهم من كان يهب الجارية ابتاعها بمائة ألف درهم[٢] .

ولما صار الأمر إلى معاوية اهتم ببلدته القديمة مكة ، فأجرى فيها عشرة عيون ، واتخذ فيها بساتين[٣] ، وما زال الأمويون يعنون بها ، فكانوا يستنبتون بها الأشجار ، ويحفرون الخزانات والآبار[٤] . وقد روى اليعقوبى أن سليمان بن عبد الملك أراد الحج فكتب إلى عامله خالد القسرى والى مكة يأمره أن يجرى له عينا من الماء العذب ، فعمل خالد بركة فى أصل « ثبير » بحجارة منقوشة ، واستنبط ماءها من ذلك الموضع ، ثم شق من هذه البركة عيناً تجرى إلى المسجد الحرام فى قصب من رصاص ، حتى أظهرها فى فوّارة تسكب فى فسقية رخام بين الركن وزمزم[٥] .

وليس من شك فى أن هذه مظاهر حضارة ، ولعل من أهم مظاهرها حينئذ اتخاذ الدور والقصور وبناءها بالآجر والجص واتخاذ

---

(١) المعارف لابن قتيبة طبع جوتنجن ص ١٦٤ وانظر الأزرقى ١/٤٤١ .
(٢) المحبر ص ١٤٦ وما بعدها . (٣) الأزرقى ١/٤٤٣ .
(٤) انظر مكة فى دائرة المعارف الإسلامية . (٥) اليعقوبى ٢/٣٥١ .

أبوابها من الساج . ولم يكن يبنيها العرب ، وإنما كان يبنيها أجانب من الفرس والروم جلبوهم لهذا الغرض . وبنى معاوية لنفسه بمكة دوراً يقال لها الرُّقْط لاختلاف ألوانها ، وقد بناها فُرْس من العراق بالجِصّ والآجُرّ[١] ، ويُرْوَى أنه اشترى من حُوَيْطِب ابن عبد العُزَّى داراً بأربعين ألف دينار[٢] . وقد باع آل عقبة بن الأزرق قِسما من دارهم قرب المسجد الحرام بثمانية عشر ألف دينار[٣] . واتسع بناء القصور فى مكة أثناء حكم ابن الزبير ، فقد انجلبت إليها الأموال من العراق ومصر ، ومن هذه الأموال بنى الكعبة[٤] . ويروى الأزرقى أن ابن عباس قال لابن صفوان صاحب ابن الزبير : هيهات ! هيهات ! تركت والله سنة عمر . . قضى عمر أن أسفل الوادى وأعلاه مناخ للحجاج ، وأن أجياداً وقمَيْقعان للمريحين والذاهبين ، واتخذتها وصاحبك دوراً وقصوراً[٥] .

ويظهر أنهم بالغوا فى العناية ببناء هذه الدور والقصور حتى أصبحت تنافس دور وقصور دمشق . روى الرواة أن معاوية حج ذات مرة فوقف أمام دار عبد الله بن الحارث جد الثريا صاحبة عمر ابن أبى ربيعة يتعجب من حسن بنائها ، فخرج إليه عبد الله يقول :

---

(١) الأزرقى ١/٤٤٩ وانظر الأغانى طبع دار الكتب ٣/٢٨١ .
(٢) المعارف ص ١٥٩ . (٣) الأزرقى ١/٤٥٩ .
(٤) الأخبار الطوال للدينورى ص ٢٨١ . (٥) الأزرقى ١/٣٩٢ .

لا أشبع الله بطنك ! أما تكفيك الخلافة حتى تطلب هذه الدار[١] .

ولم يكن كل ما أصاب الناس فى مكة من تغير تحت تأثير الحضارات الأجنبية التى أخذوا ينقلونها هناك هو بناء الدور والقصور فحسب ، فقد أخذت معيشة القوم تتغير — ونقصد طريقة أكلهم وحياتهم — إذ دخل مكة كثير من الرقيق والجوارى الفارسيات والروميات . دخلوا فى عصر الخلفاء الراشدين مع الفاتحين الذين جلبوهم ، وكان القوّاد أنفسهم يرسلون بهم ، فقد أرسل معاوية إلى عمر بأربعة آلاف من سبى قيسارية[٢] ، واستمرت هذه السيول الأجنبية فيما بعد ، وساعد عليها ثراء الناس وأسواق الرقيق .

ولا ريب فى أن هذا الرقيق الفارسى والرومى غيّر كثيراً فى معيشة القوم إذ كانوا يقومون على خدمتهم وكانوا يعدّون لهم حياتهم إعداداً . يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد فى شىء من الحضارة ، فقد حكى أنه أنه قدم لهم المرقّق فكانوا يحسبونه رقاعا ، وعثروا على الكافور فى خزائن كسرى فاستعملوه فى عجينهم ، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم ، واستعملوهم فى مهنهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم للمهرة فى أمثال ذلك والقوَمة عليه أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ١/٢١١ . (٢) البلاذرى ص ١٤٢ ويقال إن الزبير مات عن ألف عبد وأمة . انظر المسعودى ٤/٢٥٤ .

اتساع العيش والتفنن فى أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف فى الأحوال ، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخُرْثىّ .. فأتوا من ذلك وراء الغاية[1] » .

والحق أن أهل مكة والعرب جميعا اقتحمتهم الحضارات الأجنبية اقتحاما ، وأخذت تغزوهم فى عقر دورهم وفى حياتهم وطريقة معيشتهم ، فإذا كانوا قد فتحوا فارس وبلاد الروم (مصر والشام) حربيا فإن هذه البلدان فتحتهم حضاريا . وقد أقبلوا على ذلك أول الأمر حذرين على نحو ما أقبل عمر فى الأخذ بنظام الدواوين الفارسى ، فاقتصر على ديوان العطاء[2] ، ولكن لا نصل إلى معاوية حتى نجده يأخذ نظم الدواوين الفارسية كلها[3] . وهذا ما نلاحظه فى الحياة نفسها ، فقد كان الصحابة إلى عصر عمر لا يتعمقون الحضارات الأجنبية ولا يأخذون إلا بظاهر منها ، ولكنهم أخذوا يتعمقونها وينسابون فيها أثناء عصر عثمان[4] ، وكلما تقدموا فى الزمن تقدم بهم التأثر بهذه الحضارات .

وساعد أهل مكة على الاستمرار فى هـذا التأثر ما ورثوه عن آبائهم فى الجاهلية من أموال ، وما جلبه لهم هؤلاء الآباء فى الفتوح

(١) المقدمة ص ١٤٤ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى طبع الحلبى ص ١٧ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٤ . (٤) المسعودى ٢٥٣/٤ .

الإسلامية من ثروات ، وكان ديوان العطاء الذى استحدثه عمر مدداً مستمراً طوال العصر الأموى لا ينقطع . ومن المعروف أن الأمويين كانوا يغدقون أموالهم على شباب مكة والمدينة ليلهوهم عن طلب الملك والخلافة[١] ، فكان لذلك كله أثره فى استمرار البذخ الذى عرفته مكة عقب الفتوح . ويدلّ على ذلك من بعض الوجوه ما كانوا يتخذونه فى الكسوة التى كانت توضع على الكعبة ، ومعاوية هو أول من كَسَا الكعبة الديباج واشترى لها العبيد[٢] . ولما فرغ ابن الزبير من بنائها كساها القباطى ، ومسح بالخَلُوق داخلها وخارجها ، فكان أول من خلّقها[٣] . وبعث الوليد إلى خالد بن عبد الله القسرى وهو على مكة بثلاثين ألف دينار ، فضربت صفائح ، وجعلت على باب الكعبة وعلى الأساطين التى داخلها وعلى الأركان والميزاب ، فكان أول من ذهّب البيت فى الإسلام[٤] .

وهذه كلها صور من الحضارة التى أخذت تغزو مكة بل الكعبة نفسها ، ولا ريب فى أن البيوت خلف الكعبة كانت تأخذ بحظ بل بحظوظ مختلفة من هذه الحضارة .

---

(١) انظر الفخرى ص ١٢٧ وابن عبد ربه ١/١٤٥ .
(٢) اليعقوبى ٢/٢٨٣ . (٣) اليعقوبى ١/٣١١
(٤) اليعقوبى ١/٣٤٠ .

٦

ترف ولهو

وهذا الثراء وتلك الحضارة سرعان ما تحوّلا إلى ضروب من الترف والنعيم ، وماذا ينقص أهل مكة لكى يترفوا ؟ إن المال مِلء حجورهم والجوارى الفارسيات والروميات مِلء قصورهم . وليس من ريب فى أن هؤلاء الجوارى كنّ يفهمن الحياة فى صورة أخرى غير الصورة العربية ، وأنهن أخذن يدخلن هذه الصورة فى دور مكة وقصورها ، يساعدهن فى ذلك الموالى والرقيق الذى حُشِد هناك من كل مكان .

وبَوْنٌ بعيد بين حياة المكيين فى العصر الإسلامى وحياتهم فى العصر الجاهلى ، فقد كانت حياتهم حينذاك خشنة إلى حد ما ، أما فى هذا العصر فقد بُدِّلوا حياة أخرى عرفوا فيها كل ضروب النعيم والترف فى المطعم والملبس وفنون الزينة المختلفة ، إذ أتيح لهم أن يأخذوا بحظوظ وافرة فى كل جانب من جوانب الحياة ، فطعموا الألوان المختلفة من الطعام[١] ، وأكلوا وشربوا فى أوانى الذهب والفضة[٢] ، ولبسوا السندس والديباج والإستبرق ومقطعات الخز[٣] والحرير والحلل

(١) المستطرف للإبشيهى طبع المطبعة العثمانية بمصر ١/١٦٢ .
(٢) ابن عبد ربه ١/١١١ وابن سعد ٤/١٢٦ .
(٣) أغانى طبع دار الكتب ٥/٦٦ .

الموشاة[١] ، وحتى إبلهم كانوا يضعون فوقها القطوع والديباج[٢] ، وكانوا يضعون فى أعناق خيولهم أطواقا من الذهب[٣] . ويروى صاحب الأغانى فى أخبار الهُذَلى أحد مغنّيهم أنه كان إذا أمسى أشرف على المسجد وغنّى وهو فى الجبل ، فلا يلبث أن يرى الجبل كقرص الخبيص صفرة وحمرة من أردية قريش[٤] . وكان العرجى الشاعر يلبس الحلتين بخمسمائة دينار[٥] أو بنحو ثلاثمائة جنيه .

وإذا كان الرجال يصنعون ذلك كله أو يغرقون فى ذلك كله ، فإن النساء هن الأخريات غرقن فى فنون الزينة المختلفة ، سواء فى ملابسهن أو فى حليهن . وقد تفنّن فى اتخاذ الثياب الرقيقة الشفافة[٦] ، كما تفنن فى اتخاذ الحلى والجواهر[٧] . ولمعت أسماء جماعة من الفتيات والسيدات على نحو ما نلمع أسماؤهن فى البيئات المتحضرة من مثل عائشة بنت طلحة ، وكانت تقيم فى المدينة سنة وفى مكة أخرى ، وكانت تَصِيف بالطائف[٨] ،

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ١/٢٢١ وانظر ١/٢٧٨ .

(٢) نفس المصدر ١/٢٢١ . (٣) أغانى ١/٢٥٩ .

(٤) أغانى طبع دار الكتب ٥/٦٥ والخبيص : نوع من الحلواء يتخذ من التمر والسمن .

(٥) أغانى طبع دار الكتب ١/٣٩٥ وفى حديث أبى بكر حين حضرته الوفاة : والله لتألمن النوم على الأذربى كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان .

(٦) انظر ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٧٤ ، ٢١١ ، ٢٨٣ وانظر الأغانى ١/٤٠٤ .

(٧) ابن سعد ٨/٣٤٣ وأغانى ٨/٢٧٣ وانظر ٨/٢٧٨ .

(٨) أغانى طبع بولاق ١٠/٦١ .

وكان لها ماشطتها الخاصة[١] ، وكانت تعنى بطيبها وعطرها[٢] . وعلى مثالها كانت الثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة وهى بنت عبد الله[٣] بن الحارث بن أمية الأصغر ، ويظهر أن أباها كان من أثرياء مكة ، وقد كان لها قصر عظيم[٤] ، وكانت مثل عائشة تصيف بالطائف[٥] . ويظهر أن دارها بمكة كانت تكتظ بالرقيق والجوارى ، فقد تخرّج فيها اثنان من أشهر المغنّين وهما الغَرِيض ويحيى قَيْل ، كما تخرجت فيها سمية[٦] ، وهى مغنّية كانت هناك . وكانت الثريا جميلة وكان فيها دَلٌّ وإعجاب بنفسها[٧] على عادة الفتيات والسيدات المترفات .

وليس لدينا أخبار واضحة عن هؤلاء السيدات وما كُنَّ ينفقن فى زينتهن ، ولكن لا بد أنهن كن يسرفن فى ذلك ، فالمال كثير وحوانيت العطر والطيب حولهن[٨] ، وكذلك حوانيت الثياب العَدنية واليمنية[٩] والهروية[١٠] . والمرأة من عادتها إن وجدت المال أنفقته على ملابسها وهيئتها وزينتها وعطرها .

ولعل أهم ما يلاحظ على هذه البيئة المترفة أن جمهرةَ من كانوا فيها من شباب كانوا فارغين من عمل ، فليس هناك ما يشغلهم ،

---

(١) أغانى ١٠/٦٠ .
(٢) أغانى ١٠/٥٤ .
(٣) انظر فى نسبها الأغانى ١/٢١٠ .
(٤) أغانى ١/٢١١ .
(٥) أغانى ١/٢١٢ .
(٦) أغانى ٢/٣٥٩ .
(٧) أغانى ١/٢١٤ وما بعدها .
(٨) أغانى ٢/٣٩٩ وانظر ٣/٤٧ .
(٩) أغانى ٢/٣٦٨ وانظر ١/٢٥٩ .
(١٠) أغانى ١/٢٥٩ .

وخاصة أن بنى أمية انصرفوا عنهم بعد ثورتهم مع ابن الزبير ، فلم يتخذوهم على الولايات ، ومع ذلك لم يمنعوهم عطاء ، بل كانوا يزيدون فيه من حين إلى حين ، فهم أهلهم وعشيرتهم الأقربون . وقد ورثوا عن آبائهم فى الجاهلية والإسلام أموالا ضخمة كما قدمنا ، فكان ذلك كله سبباً فى أن تتكوّن بمكة طبقة من الشباب المترف العاطل الذى نُشِّئ فى الخِلِيّة .

ومثل هذا الشباب فى المدن المترفة إن لم يوجه لدراسات فكرية ، توجَّه تَوًّا إلى اللهو والملاهى حتى يقطع وقته فى الملذات والمتعات الممكنة . وأهم متعة عنيت بها مكة فى هذا العصر هى متعة الغناء ، وسنعرض لها بالتفصيل فى الفصل التالى . ومن أخبارهم فى هذا الباب أنهم تعلقوا بلعب الشطرنج والنَّرْد والقَرْق أو ما يسمى فى مصر بالسيجة[1] . روى أبو الفرج أن « عبد الحكم الجمحى اتخذ بيتاً فيه شطرنجات ونَرْدات وقرقات ودفاتر فيها من كل عِلم ، وجعل فى الجدار أوتاداً ، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جر دفتراً ، فقرأه ، أو بعض ما يلعب به ، فلعب به مع بعضهم[2] » .

وعلى هذا النحو انتشرت الملاهى فى مكة ، وانتشر معها المرح ، وربما كان من أهم ما يصوره أن نجد لمكة فى هذا العصر مضحكا مشهوراً ، كانوا يتخذونه للتندر والدعابة . وهذه عادة من عادات

(١) انظر لعب العرب لتيمور ص ٤٩ . (٢) أغانى ٢٥٣/٤ .

الجماعة حين تتمدين وتتحضر ، فإنها تميل إلى الدعابة والنادرة ، ويوجد لها من يضحكها وينشر فى جوها المرح . ومضحك مكة حينئذ شاعر خفيف الروح يسمى الدَّارِمىّ ، وقد ترجم له أبو الفرج ترجمة طريفة ذكر فيها مجموعة من نوادره ، فمن ذلك أنه كان عند بعض الولاة يحدثه ، فأغفى الوالى ، فعطس الدارمى عطسة هائلة ، ففزع الوالى فزعاً شديداً ، ثم استوى جالساً وقال له : أتفزعنى ؟ قال : كلا ! ولكن هكذا عُطاسى ، فقال ائتنى ببيّنة على ذلك . فخرج فأتاه برجل ، فسأله الوالى : بم تشهد لهذا ؟ قال : أشهد أنى رأيته مرة عطس عطسة ، فسقط ضرسه ، فأغرق الوالى فى الضحك[1] .

وكما كان الدارمى يُضحك الأمراء والرجال فى مكة ، كان يضحك النساء ، فكان لا يطيب لهن متنزّهٌ إلا به[2] ، وهو فى ذلك يشبه أشعبَ مضحك المدينة . وطلبت منه صديقة طِيباً ، وكان فيه بخل وحرص ، فوعدها بإحضاره ، ثم ثاب إلى رشده فقال :

أنا بالله ذى العِـــزِّ وبالرُّكْنِ وبالصَّـــخْرَه
من اللائى يُرِدْنَ الطيـــبَ فى اليُسر وفى العُسْره
وما أقوَى على هـــذا ولو كنتُ على البصره

وتصادف أن التقيا ، فعاتبته إلى أن قالت له : يا دارمى أتحبنى ؟ فقال : نعم ، أفتحبينى ؟ قالت : نعم . قال : فيالك الخير ! فأنت تحبيننى

(١) أغانى ٣/٤٨ .
(٢) أغانى ٣/٤٧ .

وأنا أحبك فما مدخل الدراهم بيننا[١] . وكانت له بديهة حاضرة ، قال له محمد بن إبراهيم الإمام : لو صلحَت عليك ثيابى لكسوتك ، قال : فديتك ! إن لم تصلح علىّ ثيابك صلحَت علىّ دنانيرك[٢] .

وهذا المجتمع المرح الضاحك الذى كان يأخذ بحظوظ من المتع والفكاهة ، كان يأخذ أيضاً بحظوظ من الحرية ، وهى حرية ينبغى أن لا نُسىء فهمها ، فمن طبيعة المجتمعات المتحضرة أن يكثر فيها اختلاط الرجال بالنساء . وهذا ما نلاحظه فى مكة أثناء هذا العصر ، ويظهر أن السفور والبروز للرجال كان شائعاً عند العرب قبل الإسلام ، وقد دعا القرآن الكريم نساء النبى إلى الحجاب[٣] ، ولكن يظهر أن السفور استمر عند بعض النساء ، فقد كانت عائشة بنت طلحة تسفر[٤] ، وكذلك كانت سُكينة[٥] بنت الحسين ، وعمرة[٦] الجحية صاحبة أبى دَهبل الشاعر المكى المعروف .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لقاء عمر بن أبى ربيعة الدائم بالثريا[٧] صاحبته ، وبغيرها من شريفات[٨] مكة . ويقول أبو الفرج فى بعض أخباره إن فتيات مكة كن يخرجن للتنزه مع الرجال[٩] . وليس فى هذا

---

(١) أغانى ٣/٤٧ .
(٢) أغانى ٣/٤٨ .
(٣) سورة الأحزاب ، آية ٥٩ .
(٤) أغانى ١٠/٥٤ .
(٥) أغانى ١٤/١٦٥ .
(٦) أغانى طبع دار الكتب ٧/٩٣ .
(٧) أغانى طبع دار الكتب ١/٢١٥ وما بعدها .
(٨) أغانى ١/٩١ وانظر أغانى ١/١٠٥ .
(٩) أغانى ٣/٤٧ .

غرابة ما دام المجتمع كان يبيح اللقاء بين الرجال والنساء ، وكل ما فى المسألة من غرابة أننا نأبى أن نقيس الماضى على الحاضر ، وننظر إلى بعض جوانب الحياة فى المدن القديمة نظرة ضيقة ، والحياة هى نفسها فى كل عصر .

على أنه ينبغى أن لا ننزلق من ذلك إلى اتهام مجتمع مكة بالتحلل فى الخلق ، ففرق بين الحرية وبين الإباحية . ومع ذلك ينبغى أن نلاحظ أيضاً من طرف آخر أنه قد يوجد التحلل فى الخلق عند بعض الأفراد ، ولكن هذا لا يكون شيئاً عاماً ، بل هو ضريبة الترف وضريبة الحرية التى يساء استعمالها أحيانا . ونستطيع أن نضع فى هذا الجانب ما يرويه أبو الفرج عن بعض النساء واستهتارها[١] . وقد يكون من الظواهر الواضحة فى هذا الجانب أن نجد الناس يقبلون على الخمر بصورة لم نكن نألفها فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، وحقا شربها الأسود بن عوف بمكة فى عهد عمر وحَدَّه[٢] . ولكن هذه حادثة فردية كحوادث أخرى تروى فى عهد الرسول[٣] صلى الله عليه وسلم وفى عهد عمر أيضا[٤] . غير أنا لا نمضى فى العصر الأموى حتى نجد داء الخمر يغلب على بعض المكيين ، ويظهر أنهم أحلوا فى هذا العصر نبيذ التمر وما يتخذ من الزهر والرطب[٥] .

وأكبر الظن أن دور المغنين كانت تقدم للمستمعين بعض

---

(١) أغانى ١٧/٩٣ .
(٢) المعارف ص ١٢١ .
(٣) المعارف ص ١٦٨ .
(٤) ابن عبد ربه ٣/٤٠٧ .
(٥) أغانى طبع بولاق ١٥/١٥ .

الشراب[١] ، وساعد على ذلك أن المغنين أنفسهم كانوا يشربون[٢] . وقد حاول نافع بن علقمة والى عبد الملك وابنه الوليد أن يكفّ الناس عن هذه الحال[٣] .

وما نرتاب فى أن هذا كله ثمرة من ثمار الترف الذى غرقت فيه مكة ، وأيضاً فإنه ثمرة من ثمار مجتمع مكة الجديد الذى كان يزخر بالجوارى الأجنبيات والرقيق الأجنبى ، فكان الأولون من العرب يقبلون على الخمر لذة ومتعة بحياتهم المتحضرة الجديدة ، وكان الأخيرون من الموالى يقبلون عليها حزناً وأسًى على حياتهم القديمة .

---

(١) أغانى ٨/٢٠٨ .
(٢) أغانى طبع دار الكتب ٢/٣٦٧ .
(٣) أغانى طبع بولاق ١١/٢٠ .

الفصل الثانى

الغناء فى مكة

١

فى العصر الجاهلى

من يُعْنى بدرس الحياة العربية فى العصر الجاهلى يلاحظ كثرة النصوص التى تدل على انتشار الغناء وذيوعه فى كل مكان من الجزيرة العربية . يقول المسعودى : « لم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولعَ بالملاهى والطرب من العرب[1] » . ويكاد الإنسان لا يقرأ ديوان شعر جاهلى لشاعر مهمّ إلا ويجد فيه ذكر الشراب والغناء[2] ، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون أشعارهم ، وفى الأغانى أن المهلهل تغنّى ببعض شعره[3] وكذلك الشَّنْفَرَى[4] بن السُّلَكة . ولعل مما يدل على ذلك أن نجدهم يعبّرون عن إنشاد الشعر بالغناء والتغنى . ففى حديث عمر بن الخطاب للنابغة الجَعْدى أنه قال له : « أسمعنى بعض ما عفا الله لك

---

(١) المسعودى ٨/٩٣ .

(٢) انظر على سبيل المثال معلقة الأعشى ومعلقة طرفة وميمية علقمة بن عبدة الفحل .

(٣) أغانى طبع دار الكتب ٥/٥١ .

(٤) أغانى طبع بولاق ١٨/١٣٤ .

عنه من غنائك ، يريد من شعرك[١] » .

فالشعر والغناء كانا مرتبطين فى العصر الجاهلى ، وكانا يتخللان حياة العرب فى سلمهم وحربهم . ومما يشهد لذلك من بعض الوجوه ما يقوله ابن رشيق من أن القبيلة من العرب كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس[٢] . فالشاعر كان يستقبل بالغناء ، وأكبر الظن أنه كان يشارك فيه .

ولم تكن مكة شاذة على هذا الذوق العام عند العرب ، بل لعلها كانت مبرزة فى هذا الجانب بحكم ما فيها من مال وثراء . وكان بجوارها سوق عكاظ ، وفيها كانت تُلْقى قصائد الشعر الكبيرة المسماة بالمطوّلات أو المعلقات . ومن يدرى لعلها كانت تغنَّى[٣] أيضاً ، إذ كانت أسواق العرب مجتمع الشعراء والمغنين والمغنيات[٤] .

وكانت مكة من جهة أخرى مركز الوثنية الجاهلية ، ولا بد أنهم كانوا يرتلون وينشدون بعض الأناشيد أثناء حجهم وإفاضتهم . ومما يروى أنهم كانوا يرتلون : « أشرق ثَبِير كيما نُغير[٥] » . وفى القرآن الكريم : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكاءً وتَصْدِيَة » .

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة الثانية) ص ٢٨ .
(٢) ابن رشيق ١/٣٧ وانظر المزهر طبع بولاق ٢/٢٣٦ .
(٣) دائرة المعارف الإسلامية ١/٤٠٣ . (٤) طبرى ١/١٣٠٧ .
(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٢/٢٠٠ .

والمكاء : الصفير والتصدية : التصفيق . وفى المحبّر لابن حبيب صورٌ لتلبياتهم وتهليلاتهم فى الجاهلية[١] . ويقول المسعودى : « لم تكن قريش تعرف من الغناء إلا النَّصْب[٢] » . وربما كان فى اشتقاق هذه الكلمة ما يدل على أن هـذا ضرب من النشيد الدينى حول الأوثان ، فالنُّصْب : كل ما نُصب وعُبِد من دون الله ، والأنصاب هى الأوثان ، وفى الحديث « كلهم كان يَنْصِب » أى يغنى غناء النصب[٣] .

وفى هذا العصر لم تكن فكرة الحريم قد ظهرت ، فكان النساء يتمتعن بما يتمتع به الرجال ، وكن يشتركن فى الغناء على شكل جوقات وخاصة فى الأعراس إذ يعزفن على الدفوف والمزامير[٤] ، وفى الحروب إذ ينشدن أناشيد حربية لتحميس الجيش . ومما يروى فى هـذا الصدد أن هنداً بنت عتبة وجماعة من نساء قريش كنَّ يضربن على الدفوف فى غزوة أحد ، وكانت هند تنشد الشعر ، وكن يَرْدُدْنَ عليها[٥] . وكان من الفنون الخاصة بالنساء فى الجاهلية واشتهرت فيها هند بنت عتبة النواحُ ونَدْبُ الموتى[٦] .

وبجانب هند وصواحبها القرشيات نجد أحاديث كثيرة عن القيان فى مكة ، ويتعمق ذكرهن فى تاريخ مكة ، حتى ليزعم الرواة أن عاداً

---

(١) المحبر ص ٣١١ . (٢) المسعودى ٨/٩٣ .
(٣) انظر مادة نصب فى لسان العرب .
(٤) الطبرى ١/١١٢٦ . (٥) الطبرى ١/١٤٠٠ .
(٦) أغانى طبع دار الكتب ٤/٢١٠ . وانظر أيضا أغانى طبع بولاق ١٩/٨٨ وما بعدها ، والمفضليات ص ٢١٥ .

وفدت فى أيام العماليق وفداً يستقى لها من مكة ، فلما وصل الوفد إلى مكة أقبل على الشراب واللهو والسماع إلى غناء الجرادتين ، وكانتا قينتين لمعاوية بن بكر[١] . وكان عند عبد الله بن جُدْعان قبيل الإسلام قينتان سماهما الجرادتين ، وكانتا تغنيان الناس ، وقد وهبهما لأمية بن أبى الصلت الثقفى ، وكان امتدحه[٢] . وفى الأغانى أن أبا سفيان « نصح قريشا أن ترجع فى غزوة بدر ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرى بدراً ، فنقيم عليه ثلاثا ونَنْحَر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمور ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب[٣] » .

وكل هذه النصوص تدل على أن القيان كنّ كثيرات فى مكة أثناء العصر الجاهلى . ويروى الزمخشرى فى الكشاف أن النضر بن الحارث كان يشترى المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته ، فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، ويقول هذا خير مما يدعوك إليه محمد[٤] » .

وهنا يختلف الباحثون فيقول ليال إن هؤلاء القَيْنات كن إما فارسيات أو يونانيات من سوريا ، وكن يتغنين أشعاراً عربية ولكن

---

(١) الطبرى ١/٢٣٣ والمسعودى ٣/٢٩٦ حيث يزعم أن اسم إحداهما ثماد والثانية قماد .
(٢) أغانى طبع دار الكتب ٨/٣٢٧ .
(٣) أغانى ٤/١٨٣ ، وانظر الطبرى ١/١٣٠٧ .
(٤) انظر تفسير الكشاف فى سورة لقمان وتعليقه على الآية الكريمة : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث » .

بألحان أجنبية، ويزعم ڤون كريمر أن هؤلاء القيان كن يغنين بلسانهن الفارسى أواليونانى[١]، ولعله ذهب هذا المذهب لقول حسان بن ثابت إنه رأى عند جَبَلة بن الأيهم عشر قيان: خمسا روميات يغنين بالرومية بالبرابط، وخمسا يغنين غناء أهل الحيرة[٢]». ولكن هذا إن صدق فى بلاط جبلة فإنه لا يَصْدُق على مكة وغيرها من قرى الجزيرة وبواديها، بل إن الأخبار كلها التى تدور حول هؤلاء القيان تدل على أنهن كن يتغنين باللسان العربى، وقد غنت إحداهن شعراً للنابغة فيه إقواء، ودلته بصوتها على موضعه[٣]. وكانت جرادتا عبد الله بن جدعان تغنيانه بشعر أمية ابن أبى الصلت فيه[٤].

ومهما يكن فقد كان الغناء منتشراً فى مكة أثناء العصر الجاهلى، وكان يشترك فيه نساء قريش وهذه العناصر الأجنبية من القيان. ويظهر أن الرجال كانوا يشتركون فيه أيضا، فحسّان بن ثابت يروى أنه كان يفد على جبلة بن الأيهم من يغنّيه من مكة[٥]، ويروى المسعودى أن النضر بن الحارث قدم العراق فتعلّم ضرب العود والغناء عليه، فقدم مكة فعلّم أهلها فاتخذوا القينات[٦]. واتخاذ القينات هنا معناه المبالغة فيه.

---

(١) انظر هنا: Farmer, A Hist. of Arabian Music (London 1929) p. 12.

(٢) أغانى طبع بولاق ١٦/١٥. (٣) أغانى طبع بولاق ٩/١٦٤.

(٤) أغانى طبع دار الكتب ٨/٣٢٨ وما بعدها.

(٥) أغانى ١٦/١٥. (٦) المسعودى ٨/٩٣.

ونرى من ذلك كله أن موجة حادة من الغناء اكتسحت مكة فى العصر الجاهلى ، حتى بلغ من بعض القوم هناك أن يرتحل إلى العراق فيطلب تعلم الغناء ثم يعود فيعلمه قومه . وهذا دليل نهضته ، وإن كنا لا نستطيع أن نتحقق منها ، إذ ليست عندنا صور من غناء القوم ، تدل على مدى ما اتخذوه من رسوم فى غنائهم .

على أنا نميل إلى أن الغناء بمكة فى هذا العصر الجاهلى لم ترسم له قواعد ، إنما كان المغنون والمغنيات والقيان ، كل يغنى حسب ذوقه وميوله وعواطفه ، إذ كان العرب لا يزالون أقرب إلى الفطرة فى كل فنونهم .

٢

فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين

لا تكاد الحوادث والشخصيات تتضح فى مكة أثناء عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، ومن أجل ذلك تقل النصوص عن حركة الغناء حينئذ . غير أن المعقول أن أدواته ومعازفه لم تحطم بعد الفتح لسبب بسيط ، وهو أن الإسلام لم يحرم الغناء ، فلم يرد فى القرآن الكريم نص واضح ضده . وذهب بعض المفسرين[1] إلى أن قوله تعالى فى سورة فاطر : « يزيد فى الخلق ما يشاء » ، إنما يشير إلى الصوت الحسن ، وفى سورة لقمان : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

(١) انظر تفسير البيضاوى للآية الكريمة .

وإذا تركنا القرآن الكريم إلى الحديث الشريف وجدنا روايات متضاربة ، ولعل ذلك ما جعل الغزالى يعقد فصلا طويلا فى إحيائه للسماع والغناء ، وقد برهن بأدلة كثيرة على إباحته ، وقال إنه لا يدعو إلى تحريمه نَصٌّ ولا قياس[١] . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال عن داود عليه السلام إنه « كان حسن الصوت فى النِّياحَة وفى تلاوة الزبور » . وقد أنكر الرسول على زواج بعض الأنصار أنه لم يكن فيه غناء ، وتعجب من ذلك[٢] .

ومما يلفت النظر أن النبى صلى الله عليه وسلم أذن فى ترتيل القرآن ، فيما روى عنه أنه قال : « زيّنوا القرآن بأصواتكم » . وكان يعجب بصوت أبى موسى الأشعرى وهو يرتل القرآن ، وكان يقول : « لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود[٣] » . على أن النبى من جهة أخرى لم يبح أن يُصْحَبَ القرآن بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية ، ولكن مهما يكن فإنه لم يدع إلى تحريم الغناء[٤] .

وإنما سقنا ذلك لندل على أن الإسلام لم يدع أهل مكة إلى إبطال الغناء الذى شاع فى ديارهم ، أما أن الرسول أمر قبل دخول مكة للفتح

---

(١) إحياء العلوم للغزالى طبع بولاق ٢/٢٤٨ .
(٢) ابن عبد ربه ٣/٢٣١ . (٣) الغزالى ٢/٢٧٤ .
(٤) الغزالى ٢/٢٥٥ وانظر مشكاة المصابيح ٢/٤٢٥ والترمذى ١/٢٤١ .

بقتل ثلاث قيان هن سارة مولاة عمرو بن هشام (أو هاشم) بن عبد المطلب[١] وقريبة وفرتنا قينتى عبد الله بن خطل[٢] فمرجع ذلك فى حقيقة الأمر إلى أنهن كن يتغنين بهجائه[٣] ، وقد قتلت قريبة ، وعاشت فرتنا إلى خلافة عثمان[٤] .

وهؤلاء الثلاثة إنما ذكرت أسماؤهن لأنهن اشتركن فى الدعوة ضد الرسول ، وليس من شك فى أنه كان وراءهن كثيرات لم يَخُضْنَ فيما خضْنَ فيه . ونظن أنهن قد بقين يغنين ، إذ لم يكن هناك ضرورة لإبطال الغناء إلا إن اتصل بمحرم كالشراب والقمار . وتعد أيام الحج عند المسلمين أعياداً ، ومن ثَمَّ كانت تصحبها مظاهر السرور بما يمكن أن يكون فيها من غناء ، فقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه دخل على ابنته عائشة رضى الله عنها فى أيام منى ، فوجد عندها جاريتين تُدَفّفان وتضربان ، والرسول صلى الله عليه وسلم متدثر بثوبه متزمّل ، فانتهرهما أبو بكر ، فكشف الرسول عن وجهه ، وقال : دعهما يا أبا بكر . فإنها أيام عيد[٥] .

ولعل فى هذا ما يدل على استمرار الغناء فى مكة أثناء عصر

---

(١) الطبرى ١/١٦٢٦ .
(٢) ابن هشام ٤/٥٢ والطبرى ١/١٦٤٢ .
(٣) ابن هشام ٤/٥٢ وانظر الطبرى ١/١٦٤٠ .
(٤) طبرى ١/١٦٤٢ .
(٥) النزالى ٢/٢٥٤ .

الرسول وقد استمر ونما فى عصر الخلفاء الراشدين ، فقد أقبلت أسلاب الفتوح الإسلامية ومغانمها على الحجاز فى عهد أبى بكر وعمر ، وأقبل معها كثير من الرقيق الأجنبى . ونحن لا نصل إلى عصر عثمان حتى نشعر أن حياة العرب على وشك التحول تحولا تاماً إلى الترف وما يتبع الترف من لهو وملاهٍ ، فقد فتحت البلدان ، ومصرت الأمصار ، وعاد كثير إلى ديارهم فى الحجاز : مكة وغيرها ، ولم يعودوا فارغين ، وإنما عادوا وجحورهم مملوءة بالمال ، فبنوا القصور على مثال ما رأوا فى الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، وحشدوا فيها الأسرى من فرس وروم ، وأخذوا يستبدلون بحياتهم القديمة حياة جديدة ، فيها تأثر واضح بألوان الحضارات الأجنبية ، كما أخذوا ينمون الفن القديم فى بيئتهم ، فن الغناء ، وكان كثير منهم يجلب معه بعض المغنين أو بعض المغنيات ، ومن طريف ما يروى أن عبد الله بن عامر والى البصرة لعثمان اشترى جوقة من الإماء الصناجات[1] .

وكما قدمنا ليست حوادث مكة وشخصياتها واضحة فى هذا العصر ، عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، ولذلك لا تتضح لنا فى سهولة حركة الغناء فيها حينئذ وما نالته من رقى وحظيت به من تقدم تحت تأثير العناصر الأجنبية الجديدة المجلوبة من الفتوحات ، فمكة تختفى ظروف الحياة وشخصياتها فى هذه الحقبة وراء ظروف الحياة وشخصياتها فى المدينة

(١) أغانى طبع دار الكتب ٣٢١/٨ .

العاصمة . غير أن ما اكتظت به المدينة حينئذ من مغنين ومغنيات جلبوا من الخارج[1] يدل على أن مكة هى الأخرى كان حظها عظيما فى هذا الجانب ، وخاصة منذ عصر عثمان ، إذ أخذ المسلمون يخطون خطوات واسعة نحو الترف والمتع المختلفة .

٣

فى العصر الأموى

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إن الغناء كان أهم شىء فى الحياة بمكة وغيرها من مدن الحجاز أثناء العصر الأموى ، فقد أقبل الناس عليه إقبالا شديداً . ويخيل إلى الإنسان أن أيام الناس ولياليهم كلها قد أصبحت غناء ، ففى كل مكان وفى كل زمان لا تسمع إلا أحاديث الغناء والمغنين .

ويزعم المسعودى أن الغناء لم يَنْمُ فى مكة والمدينة إلا منذ عصر يزيد ابن معاوية[2] . وهذا غير صحيح إلا إذا سلمنا بأن يزيد هو الذى أشاع الغناء هناك ، وقد رأينا الغناء منذ العصر الجاهلى ، ووجدناه مستمراً فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين . والصحيح أن الغناء أخذ فى النمو بمكة والمدينة جميعاً تحت تأثير العناصر الأجنبية التى جلبها الفاتحون

---

(١) انظر الجزء الأول من هذه السلسلة وهو الخاص بالمدينة ص ٦٠ .
(٢) المسعودى ٥/١٥٧ .

هناك ، منذ عصر أبي بكر وعمر . ويؤكد ذلك أننا لا نصل إلى مفتتح العصر الأموى حتى نجد مغنين مشهورين ، يتقنون الغناء على أصول نظرية عربية حديثة ، وهى نظرية لم تتم فجأة ، بل أخذ تكوينها مدة طويلة من الزمن . ولذلك كنا نظن ظنا أن الغناء بدأ فى النمو منذ عصر عثمان ، لا عصر يزيد بن معاوية ، كما يقول المسعودى .

ونحن لا نكاد نتقدم فى العصر الأموى حتى نجد لمكة مغنين مشهورين من مثل ابن مِسْجَح وابن مُحْرِز وابن سُرَيج والغَرِيض ويحيى قَيْل والأبجر وغيرهم كثير . ومن يقرأ فى الأغانى لأبى الفرج لا يزال يجد من حين لآخر اسم مغن مكى أو مغنية مكية من مثل بَغوم وأسماء وكانتا أمَتين عند عمر بن أبى ربيعة[1] ، ومثل سُمية وكانت أمة فى دار الثريا صاحبة عمر[2] . ومكة لا تشتهر هذا العصر بدور كبيرة للمغنيات مثل دار عَزَّة الميلاء فى المدينة[3] ، وكذلك دار جميلة[4] التى خرّجت كثيراً من المغنيات . ولكن ينبغى أن نلاحظ أن أكثر المغنيات اللائى اشتهرن فى دار جميلة كن يزرن مكة وخاصة فى مواسم حجها ، وقد ذهبت جميلة فى أحد المواسم وكان معها الفَرِهَة وعزة الميلاء وحَبابة وسلامة وخُلَيْدة وعُقَيلة والشماسيَّة وفَرْعَة وبُلْبُلة ولَذَّة العيش

(١) أغانى طبع دار الكتب ١٦٥/١ .
(٢) أغانى ٣٥٩/٢ . (٣) أغانى طبع بولاق ١٤/١٦ .
(٤) انظر ترجمتها فى الأغانى طبع دار الكتب ١٨٦/٨ وما بعدها .

وسُعَيْدة والزرقاء ، ثم خمسون قينة لأهل المدينة خرجن معها لكى يأخذن عنها بعض الغناء[١] .

وقد يكون من المبالغة أن نفصل فى هذا العصر بين المغنين والمغنيات فى مكة والمدينة ، فدائما كان هناك اتصال ، ودائما كان مغنى مكة يذهب إلى المدينة ، ومغنى المدينة يذهب إلى مكة . فطُوَيس وسائب خاثر ومَعْبَد وابن عائشة ومالك الطائى وعَطَرَّد ، كل هؤلاء كانوا يزورون مكة ويغنون فيها ، وكذلك كان يزور المدينة ويغنى فيها ابن مسجح وابن محرز وابن سريج والغَريض والأبجر ويحيى قَيْل ، وغيرهم . ولم يكن هذا شأن المغنين وحدهم ، فقد كان أيضاً شأن المغنيات بل كان شأن الناس أنفسهم ، فكل شاعر مكى مشهور نجد فى أخباره أنه زار المدينة ، وكل شاعر مشهور فى المدينة نجد كذلك فى أخباره أنه زار مكة . ويخيل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلدتين ضاحية للأخرى ، أو كأنما كانت بينهما مرحلة واحدة . وكان هذا سبباً فى اختلاط النصوص على بعض الباحثين ، فلم يكادوا يميزون فى شاعر مثل عمر بن أبى ربيعة بلدته التى كان يعيش فيها أهى مكة أو المدينة لكثرة حوادثه فى البلدتين جميعا . ومن الطُّرَف التى تصوّر ذلك من بعض الوجوه أن نجد سَلاّمة المغنية المشهورة التى خرّجتها جميلة ، والتى ابتاعها يزيد بن عبد الملك بعشرين ألف دينار[٢] لا يشتهر

(١) أغانى ٨/٢٠٩ .

(٢) أغانى ٨/٣٤٣ .

بها و يحبها أَحَدُ سكان المدينة ، وإنما يشتهر بذلك أحد قُرّاء مكة و يسمى عبد الرحمن بن أبى عمار الجُشَمِىّ ، وكان يلقب بالقَسّ لعبادته ، سمعها فى المدينة ، ور بما فى مكة ، فتعلق بها وشُغِف حبا ، وراح ينظم فى جمالها أشعاره (١) .

ولا يستطع أن يفهم مدى ما كان من نهضة فى الغناء واتساع به فى مكة والمدينة جميعا إلا مَن يرجع إلى كتاب الأغانى و يقرأ فيه أخبار المغنين والمغنيات هناك ومواكبهم ودورهم ونواديهم . ومن الدور والنوادى الشهيرة فى مكة دار كانت ببعض أطرافها ، وكان يأتيها ابن سريج والغَريض فى كل جمعة ، و يجتمع لهما ناس كثير من مكة ، و يوضع لـكل منهما كرسى يجلس عليه ، ثم يغنى كل منهما صوتاً ، أو كما نقول الآن دوراً (٢) . وكانت كل دار لمغنّ تعدّ نادياً من نوادى الغناء ، فهو يستقبل فيها من يريدون سماعه (٣) ، وكانت بعض دور الأشراف والشريفات تعدّ كأنها فنادق ، كدار ابن أبى ر بيعة الذى كان يلزمه المغنون وعلى رأسهم ابن سريج وكان هو نفسه يشترى القيان والإماء المغنيات ، ومثل دار الثريا بنت عبد الله بن الحارث صاحبة عمر ، وقد تخرّج فيها الغريض و يحيى قَيل وسُمَيّة (٤) . وكان المغنون يقصدون إلى بعض دور الأشراف فيغنونهم ، كما كانوا يقصدون إلى بعض

---

(١) أغانى ٨/٣٣٤ .
(٢) أغانى طبع دار الـكتب ١/٢٧٦ .
(٣) أغانى ٢/٣٦٨ .
(٤) أغانى ٢/٣٥٩ .

نواديهم ، وكانوا يظهرون فى الأعراس وفى حفلات الختان[١] . وكانوا يكثرون من الوقوف فى طريق الحاج[٢] وعلى أبى قُبَيْس[٣] وأخْشَب[٤] مِنَى وعند بستان[٥] ابن عامر ، فيركب الحاج بعضهم بعضا ، ويحبسون عن مناسك الحج ومشاعره ، وكانوا يقفون أحياناً بين المأزِمَين[٦] وعلى كَثَب من التنعيم[٧] وكانت تضطرب المحامل وتمد الإبل أعناقها .

واندفع الناس فى مكة يعجبون بهذا الغناء ، ومعهم الفقهاء ، وعلى رأسهم عطاء بن أبى رباح تلميذ ابن عباس ، ويروى الرواة أنه ختن ابنه واستدعى فى ختانه الغريض وابن سريج[٨] ، كما يروون أنه لقى ابن سريج بذى طُوى فأسمعه صوتاً ، فلما سمعه « اضطرب اضطراباً شديداً ودخلته أريحية ، فحلف ألا يكلم أحداً بقية يومه إلا بالشعر الذى غنّى فيه ابن سريج ، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام ، فكان كل من يأتيه سائلا عن حلال أو حرام أو خبر من الأخبار لا يجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى وينشد هذا الشعر حتى صلى المغرب[٩] » .

ومثل عطاء فى الإعجاب بهذا الغناء واستراحه ابن جريج ، قال داود

---

(١) أغانى ١/٢٧٨ .
(٢) أغانى ١/٢٥٩ .
(٣) أغانى ٢/٣٦٢ .
(٤) أغانى ١/٢٩٣ وأخشب منى إما أبو قبيس أو قعيقعان أو الجبل الأحمر المشرف هناك .
(٥) أغانى ١/٣١٦ .
(٦) أغانى ٣/٣٤٥ والمأزمان : مضيقا جبلين بمكة .
(٧) أغانى ٣/٣٤٦ والتنعيم : موضع على فرسخين من مكة .
(٨) أغانى ١/٢٧٨ وانظر ٢/٣٤٨ .
(٩) أغانى ١/٢٥٧ .

المكى : « كنا فى حلقة ابن جريج وهو يحدثنا وعنده جماعة فيهم عبد الله ابن المبارك وعدّة من العراقيين إذ مرّ به ابن تَيْزَن المغنى وقد ائتزر بمِئْزَرٍ على صدره ، وهى إزْرَة الشطّار عندنا ، فدعاه ابن جريج فقال له : أحب أن تُسمعنى ، قال: إنى مستعجل ، فألح عليه ، فقال له : امرأتى طالق إن غنّيتك أكثر من ثلاثة أصوات ، فقال له : ويحك ! ما أعجلك إلى اليمين ! غنّنى الصوت الذى غنّاه ابن سريج فى اليوم الثانى من أيام منَى على جمرة العقبة ، فغنّى ، فقطَع طريق الذاهب والجائى حتى انكسرت المحامل ، فغنّاه : (عوجى علىّ فسلمى جَبْرُ) ، فقال له ابن جريج : أحسنت والله ! ثلاث مرات ، ويحك ! أعِدْه ، قال من الثلاثة فإنى قد حلفت ، قال : أعده فأعاده ، فقال : أحسنت ، فأعده من الثلاثة ، فأعاده وقام ومضى ... والتفت ابن جريج إلى أصحابه ، فقال : لعلكم أنكرتم ما فعلت ؟ فقالوا : إنا لننكره عندنا بالعراق ونكرهه ، قال : فما تقولون فى الرجز يعنى الحداء ؟ قالوا : لا بأس به عندنا ، قال : فما الفرق بينه و بين الغناء[1] ؟ » . والفرق فى الواقع كان فرق ذوق، إذ كان أهل العراق فى هذا العصر ينبذون الغناء و يطرحونه[2]، ولم يعرف لهم مغنّ مشهور فى العصر الأموى سوى حُنَين[3]، وكان ذوقه محافظا ، فكان لا يغنّى إلا النَّصْب[4] .

---

(١) أغانى ١/٤٠٨ .
(٢) ابن عبد ربه ٣/٢٣٢ .
(٣) أغانى ٢/٣٤١ .
(٤) أغانى ٢/٣٥٢ .

وكما كان فقهاء مكة يعجبون بالغناء كان يعجب به كذلك قضاتها وعلى رأسهم الأوقص المخزومى ، ويظهر أنه التحق بدور المغنين فى أول حياته ، فقد حكى عن أمه أنها قالت له : « إنك خلقت فى صورة لا تصلح معها لمجامعة الفتيان فى بيوت القيان ، فعليك بالدين فإن الله يرفع به الخسيسة ، ويُتم به النقيصة[1] » . فكان ذلك سبب انصرافه عن الغناء . ويقول أبو الفرج : « ولى قضاء مكة الأوقص المخزومى ، فما رأى الناس مثله فى عفافه ونبله ، فإنه لنائم ليلة فى جناح له إذ مرّ به سكران يتغنى (عوجى علينا ربة الهودج) فأشرف عليه فقال : يا هذا شربت حراماً ! وأيقظت نياماً ! وغنيت خطأ ! خذه عنى ! فأصلحه له ، وانصرف[2] » .

ولعل فى هذا ما يدل على أنه لم يبق أحد فى مكة إلا وكان يعجب بالغناء ، وأخذ هذا الإعجاب يتزايد مع مر الزمن ، إذ كان المغنون أو قل كانت جمهرتهم فى أول الأمر من فئة المخنثين ، وهى فئة كانت تخضب أيديها وتلبس ملابس النساء ، وتتوسط بينهم و بين الرجال[3] وشدد نافع بن علقمة والى مكة لعبد الملك وابنه الوليد فى طلب هؤلاء المخنثين[4] . غير أنا لا نمضى فى العصر الأموى حتى نجد هذه الفئة

---

(١) ابن عبد ربه ٣/٢٣٤ . (٢) أغانى ٢/٣٦٧ .
(٣) انظر أغانى ١/٢٤٩ وكذلك ص ٢٥٢ ، ٢٥٦ وانظر أغانى ٢/٣٦٠ وكذلك ٢/٣٦٨ وكذلك أغانى ٤/٢٧٣ . (٤) أغانى طبع بولاق ١١/٢٠ .

تضعف تدريجاً ، وحتى نجد الغناء يصبح عملا ممتازاً يقبل عليه الأمراء من مثل عمر بن عبد العزيز ، إذ يروى أبو الفرج له أصواتاً تركها في الغناء[١] ، وقد أخذ العرب يشتركون فيه بجانب الموالى الذين استبدوا به في أول الأمر ، وقد مر بنا آنفاً أن الأوقص المخزومى حاول أن يكون مغنياً .

ولسنا ندرى أكان للمغنين بمكة فى هذا العصر مايشبه النقابة أم لا ؟ ولكن على كل حال كانت بينهم زمالة يحترمونها وقد أخذوا ينشرون فى جو مكة المرح والدعابة . روى أبو الفرج أن ابن أبي عتيق خرج على نجيب له من المدينة قد حمّله من طُرَف المشارب[٢] وغير ذلك ، فلقى فتى من بنى مخزوم مقبلا من بعض ضياعه ، فقال : يا ابن أخى أتصحبنى ؟ قال : نعم ، قال المخزومى : فمضينا حتى إذا اقتربنا من مكة جَنَبْنَا عنها حتى جُزْناها ، فصرنا إلى قصر ، فاستأذن ابن أبى عتيق ، فأذن له ، فدخلنا ، فإذا رجل جالس كأنه عجوز بربرية مختضبة ، لا أشك فى ذلك ، و إذا هو الغَرِيض وقد كبر ، فقال له ابن أبى عتيق تشوقنا إليك ، وأهدى له ما كان معه ، ثم قال له : نُحب أن نسمع ، قال : ادعُ فلانة جارية له ، فجاءت فغنت ، فقال ما صنعتِ شيئاً ، ثم حَلَّ خضابه وغنّى (عوجي علينا ربّةَ الهودج) فما سمعت أحسن منه قط ، فأقمنا عنده أياماً كثيرة ، وخبّازه قائم وطعامه كثير ، ثم قال له ابن أبى عتيق إنى

---

(١) أغانى ٩/٢٥٠ . (٢) المشارب : مايشرب فيه من آنية .

أريد الشخوص ، فلم يبق بمكة تحفةُ عدنيٍّ ولا يمانٍ ولا عودٌ إلا حمله على راحلته ، فلما ارتحلنا وبرزنا صاح به الغريض ، فرجعنا إليه ، فقال : ألم ترووا أنه « يحشر من بقيعنا هذا سبعون ألفاً على صورة القمر ليلة البدر » ؟ فقال له ابن أبي عتيق : بلى ، فقال : هذه سنٌّ لى انتزَعَتْ ، فأحب أن تدفنها بالبقيع ، فخرجنا والله أخسرَ اثنين لم نعتمر ولم ندخل مكة ، حاملين سنّ الغريض حتى دفناها بالبقيع[(١)] . وعلى هذا النحو كان الغناء يُشيع فى مكة أثناء العصر الأموى جوًّا ، كله مرح وسرور وفكاهة .

٤

الغناء المتقن

وليس كل ما يلاحظ على الغناء لهذا العصر كثرة العاملين فيه من الموالى ، فنحن نلاحظ أنه ارتقى ضروبا من الرقى ، بل لقد استطاع المغنون أن يحدثوا نظرية الغناء العربى المعروفة التى نقرؤها فى كتاب الأغانى . وبذلك أصبح الغناء العربى فنًّا له قواعد مرسومة ، وقد نوعه المغنون فى ستة ضروب ، وهى : ثقيل أول ، وثقيل ثان ، وخفيف الثقيل ، ورَمَل ، وخفيف الرمل ، وهَزَج . ومرجع هذه الضروب إلى نوع النقرات فقد تكون ثقيلة ، وقد تكون خفيفة ، وقد تكون مزيجاً من الثقل والخفة . ومَيَّزوا بجانب ذلك مجرى الصوت بحسب الأصابع ، فقالوا

---

(١) أغانى ٢/٣٦٨ .

ثقيل أول بالبِنْصَر ، أو من خفيف الثقيل الأول بإطلاق الوتر فى مجرى البنصر ، أو يقولون رَمَلٌ بالسبابة فى مجرى البنصر ، ونحو ذلك مما يزخر به كتاب الأغانى . "

وكان للمغنين فى مكة أثر بعيد فى نشوء هذه النظرية الغنائية . يقول ابن رشيق وقد عرض للغناء عند العرب فى الجاهلية والإسلام ، « وغناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه : النَّصْب والسِّناد والهَزَج ... حتى جاء الله بالإسلام ، وفتحت العراق ، وجلب الغناء والرقيق من فارس والروم ، وتغنوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية ، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير[1] » . وابن رشيق يريد أن يقول : إن النظرية الغنائية عند العرب حدثت تحت تأثير الموالى الذين جلبوا من الخارج ، وأتوا معهم بالغناء المجزأ الفارسى والرومى . ويقول أبو الفرج فى ترجمة ابن مِسْجَح شيخ المغنين فى مكة وأستاذهم : « أول من نقل الغناء الفارسى من الفارسى إلى الغناء العربى سعيد بن مسجح مولى بنى مخزوم . وذلك أن معاوية بن أبى سفيان لما بنى دوره التى يقال لها الرُّقط حَمَل لها بَنَّائين فرساً من العراق فكانوا يبنونها بالجِصِّ والآجُرّ ، وكان سعيد بن مسجح يأتيهم ، فيسمع من غنائهم على بنيانهم ، فما استحسن من ألحانهم أخذه ونقله إلى الشعر العربى ، ثم صاغ على نحو ذلك[2] » وقال أبو الفرج فى موضع آخر : « إن أول من غنى هذا الغناء العربى (يقصد الغناء المتقن)

---

(١) ابن رشيق ٢/٢٤١ . (٢) أغانى ٣/٢٨١ .

بمكة ابن مسجح ، مولى بنى مخزوم ، وذلك أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام ، فسمع غناءهم بالفارسية ، فقلبه فى شعر عربى وهو الذى علّم ابن سُرَيج والغَرِيض[1] » وقال أبو الفرج أيضاً : « سعيد بن مسجح مكى أسود مغن متقدم من فحول المغنين وأكابرهم ، وأول من صنع الغناء منهم ، ونقل غناء الفرس إلى غناء العرب ، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبَرْبَطِيَّة والأسطوخوسيّة ، وانقلب إلى فارس ، فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلم الضَّرْب ، ثم قدم إلى الحجاز ، وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبحه من النبرات والنغم التى هى موجودة فى نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك ولَحّنه ، وتبعه الناس بعد[2] » .

وهذه نصوص صريحة فى أن الغناء المتقن الذى ظهر فى العصر الأموى لم يتم له هذا التحول بمؤثرات عربية خالصة ، وإنما تم له بمؤثرات أجنبية ، فهذا ابن مسجح أستاذ المغنين فى مكة يأخذ عن الغناء الفارسى الذى كان يغنيه البناءون الذين جلبهم معاوية لبناء دوره والآخرون الذين جلبهم ابن الزبير لبناء الكعبة . ولا يكتفى بذلك ، بل نراه يرحل إلى الشام ليتتلمذ على المغنين هناك ويأخذ عنهم ألحانهم وإيقاعاتهم ، كما يرحل إلى بلاد فارس فيتتلمذ هناك أيضاً على المغنين ويتعلم الضرب والإيقاع على الأدوات الموسيقية المختلفة . ثم يعود إلى

(١) أغانى ٣/٢٧٦ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .

مكة ، فينهض بالغناء العربى نهضة واسعة ، يخرجه من دور البساطة القديم إلى دور جديد هو دور الغناء المتقن . ويظهر أن مغنين مختلفين ارتحلوا مثل ابن مسجح إلى بلاد الروم وفارس فى طلب الغناء الأجنبى ، فقد روى أبو الفرج فى ترجمة ابن مُحْرِز أنه « كان يسكن المدينة مرة ومكة مرة ، فإذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلم الضرب من عَزَّة المَيْلاء ، ثم يرجع إلى مكة فيقيم بها ثلاثة أشهر ، ثم شخص إلى فارس فتعلم ألحان الفرس وأخذ غناءهم ، ثم صار إلى الشام فتعلم ألحان الروم وأخذ غناءهم . فأسقط من ذلك ما لا يستحسن من نغم الفريقين ، وأخذ محاسنها ، فمزج بعضها ببعض ، وألف منها الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب ، فأتى بما لم يُسْمع مثله ، وكان يقال له صَنَّاجُ العرب[1] » .

وأظن فى هذا كله ما يدل دلالة قاطعة على أن الغناء المتقن إنما تم تحت تأثيرات أجنبية . ولكن ينبغى أن لا نبالغ فى ذلك ، فإن ابن مسجح وابن محرز ، ومن لفّ لفهما من المغنين لم ينقلوا نقلا النظريات الغنائية عند الأمم الأجنبية وإنما نقلوا بعض ألحان وبعض إيقاعات . وهذا هو معنى قول أبى الفرج عن ابن مسجح : إنه ألقى ما استقبحه من النبرات والنغمات الفارسية والرومية مما يعد خارجاً عن غناء العرب ، وكذلك قوله فى ابن محرز : إنه أسقط ما لا يستحسن من نغم الفرس والروم . ومعنى ذلك أننا نزعم أن ابن مسجح وابن محرز فى مكة استطاعا

---

(١) أغانى ١/٣٧٨ .

أن ينفذا مع زملائهما من المغنين فى المدينة إلى نظرية جديدة هى من تأليفهم جميعا ، وهى تلك النظرية التى أشرنا إليها آنفاً والتى تحكمت فى تاريخ الغناء العربى على مر العصور ، إذ نجد كتاب الأغانى يطفح بكلمات ثقيل أول وثقيل ثان وخفيف الرَّمَل وهلم جرًّا . وهذا هو معنى قول أبى الفرج إن ابن مسجح أول من غنى على المذهب ، يريد مذهب هذه النقرات ، أو نظرية هذه النقرات التى سجلها فى كتابه ، وما يطوى فيها من أصابع .

وإذن فنظرية الغناء العربى التى نقرؤها فى الأغانى ليست أجنبية ولا مجلوبة من الخارج ، إنما هى عربية صنعت فى الحجاز ، صنعها هؤلاء الموالى تحت تأثيرات أجنبية ، ولم ينقلوها نقلا من لدن الأجانب . ولعل من أهم ما يدل على ذلك أن الأسماء التى تشيع فيها من رَمَل وهَزَج وثقيل وسَبَّابة و بنصر وخنصر ونحو ذلك عربية . والذين استحدثوها برغم أنهم من الموالى ولدوا ونشأوا فى جزيرة العرب ، وتغنوا أولا بالغناء العربى ، ثم تأثروا بالغناء الأجنبى : الفارسى أو الرومى . أما ما يقوله ابن خُرْدَاذْبَه من أن العرب نقلوا الإيقاع فى غنائهم من الفرس نقلا[1] فليس عليه دليل ، وخاصة إذا لاحظنا أن الفرس لم يكونوا يعرفون نظرية الوزن فى الشعر ، فقد نقلوها هم عن العرب . ويقول صاحب الأغانى فى أول كتابه : « إنه سيذكر اللحن وعروضه ، فإن معرفة أعاريض

(١) المسعودى ٨/٩٠ .

الشعر توصل إلى معرفة تجزئته وقسمة ألحانه[١] » وفى هذا ما يدل على أن نظرية الغناء التى استحدثها المغنون فى مكة والمدينة لهذا العصر أُسِّسَتْ إلى حد ما على عروض الشعر العربى نفسه ، وهذه العروض لم تنقل من الخارج . وقد كتب أبو العلاء فصلا طريفاً عن الألحان فى الغناء تحدث فيه عن ضروب الإيقاع السابقة التى سميناها وهى : الثقيل الأول والثقيل الثانى وخفيف الثقيل والرمل والهزج ، وضبط الثقيل الأول بثلاث نقرات متساويات الأوزان ، وقاسه على مثال مفعولن ، بينما قاس الثقيل الثانى على مثال مفعولان ، وقاس خفيف الثقيل على مثال مفعولان أيضاً ولكن بسكون النون ، أما الرمل فقاسه على مثال لان مفعو أو كما يقول العروضيون فاعلاتن ، وأما الهزج فقاسه على مثال قال لى ، أو كما يقول العرضيون فاعلن[٢] .

ويوضح هذا الفصل الصلة بين عروض الشعر العربى والغناء الجديد الذى استحدثه المغنون فى مكة والمدينة والذى كان يوقع على هذا الشعر . ولعل فى ذلك ما يدل دلالة قاطعة على أن نظرية الغناء الجديدة فى مكة لم تنقل نقلا من لدن الأجانب ، وليس معنى ذلك أننا ننكر التأثير ، فالتأثير شىء والنقل شىء آخر .

على أن فى هذا الرأى نفسه ما يرفع من شأن المغنين حينئذ ، وأنهم استطاعوا حقا بفضل ذكائهم وقدرة أيديهم وآذانهم وأذهانهم أن

(١) أغانى ١/١ .
(٢) الفصول والغايات ص ٨٨ .

يحدثوا للعرب هـذه النظرية الدقيقة التى تحكمت فيمن بعدهم قروناً طويلة . ومن يرجع إلى كتاب الأغانى يلاحظ أن ابن مسجح كان يُغنّى فى غنائه بالضروب الثقيـلة[1] ، بينما غنى ابن محرز بالضروب الخفيفة[2] . وينقل أبو الفرج عن إسحق الموصلى أن أباه قال له : « أول من غنى الرملَ ابنُ محرز وما غُنّى قبله ، فقلت له : ولا بالفارسية ؟ قال : ولا بالفارسية . وأوّل من غنّى رملا بالفارسية سلمك فى أيام الرشيد ، استحسن لحناً من ألحان ابن محرز فنقل لحنه إلى الفارسية وغنّى فيه[3] » . وواضح من هذا النص أن ابن محرز أول من غنّى هذا الضرب الخفيف المسمى بالرمل ، وواضح فيـه أيضاً أنه ضرب عربى خالص ، لم يكن للفرس ضرب على مثاله ، بل لقد نقلوه فى وقت متأخر عن العرب . وهذا نفسه يمكن أن يقال عن الضروب الأخرى السابقة .

ومهما يكن فإن التأثير الأجنبى فى الغناء المكى لهذا العصر إنما وقف عند بعض النغم فى الأصوات وعند بعض الألحان والإيقاعات . أما بعد ذلك فنظرية الغناء العربى جديدة ، وهى من عمل هؤلاء المغنين الذين برعوا فى فنهم براعة هائلة . واستمع إلى ابن سُرَيج تلميذ ابن مِسْجَح ، وقد سأله مالك الطائى المغنى عن قول الناس : « فلان يُصيب ، وفلان يخطىء ، وفلان يحسن ؟ فقال : المصيب المحسن من المغنين هو

---

(١) أغانى ٣/٢٦٨ ، ٢٨٢ . (٢) أغانى ١/٣٨١ .
(٣) أغانى ١/٣٧٩ .

الذى يشبع الألحان ، ويملأ الأنفاس ، ويعدّل الأوزان ، ويفخّم الألفاظ ، ويعرف الصواب ، ويقيم الإعراب ، ويستوفى النغم الطوال ، ويحسّن مقاطيع النغم القصار ، ويصيب أجناس الإيقاع ، ويختلس مواقع النبرات ، ويستوفى ما يشاكلها فى الضرب من النقرات[1] » .

وهذا تصوير بديع لوصف ما أصابوا من إحسان فى غنائهم . ولعل هذا ما جعل الناس يتعلقون بهم وبفنهم ، فقد أحسنوه إحساناً بلغ الغاية ، حتى لنرى الناس يتأثرون به تأثراً ، ينسيهم أنفسهم ووقارهم . روى صاحب الأغانى أن ابن سريج مرّ به عطاء وابن جُرَيج ، فاستوقفهما ، فوقفا وغنّاهما : (إخوتى لا تبعدوا أبداً) فغُشِىَ على ابن جريج وقام عطاء يرقص[2] . وإذا بلغ ابن سريج من تأثيره على عطاء وابن جريج الشيخين المحدّثين هذا المبلغ ، فماذا كان مبلغ تأثيره على الآخرين ؟ لا بد أنه كان شديداً جدًّا . ونحن نسمع طرفاً كثيرة عن تأثر الناس بهؤلاء المغنين ، فمنهم من كان ينتف لحيته أو يحرقها ، أو يُعلّق نعله فى أذنيه ، أو يشقّ ثوبه من شدة التأثر وروعة الغناء . وقد استمع جرير يوماً صوتاً من ابن سريج ، فقال : « لله درّكم يا أهل مكة ، ماذا أعطيتم ! والله لو أن نازعاً نزع إليكم ليقيم بين أظهركم ، فيسمع هذا صباحَ مساء لكان أعظم الناس حظا ونصيباً »[3] . واستمع الحارث

---

(١) أغانى ١/٣١٥ .
(٢) أغانى ١/٣١٦ .
(٣) أغانى ١/٢٩٧ .

ابن خالد المخزومى والى مكة لعبد الملك يوماً إلى الغريض تلميذ ابن سُرَيج فقال له: « يا غريض ! لا لوم فى حبك ، ولا عذر فى هجرك ، ولا لذة لمن لا يروّح قلبه بك ، يا غريض ! لو لم يكن فى ولايتى مكة حظٌّ إلا أنت لكان حظا كافياً وافياً ، يا غريض ! إنما الدنيا زينة ، وأزين الزينة ما فرّح النفس ، ولقد فهم قدر الدنيا على حقيقته من فهم قدر الغناء[1] ». ومن طريف ما يرويه أبو الفرج أن « الهذلى أحد المغنين فى مكة كان نقّاشاً يعمل البُرَم من حجارة الجبل ، فكان إذا أمسى غنّى ، فلا يلبث الجبل أن يرى كقُرْص الخَبِيص صفرة وحمرة من أردية قريش ، فيقولون أعد ، فيقول : أما والله وها هنا حجر أحتاج إليه لم يَرِد الأبطح فلا ، فيضعون أيديهم فى الحجارة حتى يقطعوها له ويَحْدُروها إلى الأبطح[2] ». ويقول أيضا إنه كان يقول لهم : « أنزلوا أحجارى ، فيلقون ثيابهم ويأتزرون بأُزُرهم وينقلون الحجارة وينزلونها[3] ». وهكذا كان الهذلى بفضل غنائه يحول شباب قريش إلى حمالين وحجّارين ! وحدّث صاحب الأغانى عن ابن سريج أنه غنّى فى فتية من بنى مروان فطربوا ، وعظموه ، وتواضعوا له ، حتى صار فى نفسه كأنه بمنزلتهم ، ثم غنّاهم ثانية فطربوا ومثلوا بين يديه ، ورموا بحُلَلِهم كلها عليه ، حتى

---

(١) أغانى ٣/٣٢٧ .
(٢) أغانى ٥/٦٥ .
(٣) أغانى ٥/٦٧ .

غطوه بها ، فمثلت له نفسه أنه الخليفة وأنهم له خدم ، ويقول : إنه لم يرفع طرفه إليهم بعد ذلك تيهاً[١] .

وقد أخذت الدولة تعترف بهؤلاء المغنين وخاصة منذ الوليد بن عبد الملك الذى استقبل ابن سريج فى دمشق استقبالا حافلا . ولما غناه غطاه بالخلع وأهداه كيسا من الدنانير و بِدَراً من الدراهم[٢] .

ويقال إن يزيد أخاه حج بالناس وسمع غناء ابن سريج فأعطاه حُلَّته وخاتمه[٣] . ويروى أبو الفرج أن سليمان أخاها حجَّ فسبَّقَ بين المغنين بَدْرَة ، والبدرة : كيس فيه ألف درهم أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار ، ونال الجائزة ابن سريج[٤] . ولعل فى هذا كله ما يدل على أن الدولة اخذت تُعْنَى بهؤلاء المغنين وتشجعهم لإحسانهم فى فنهم ، فهى تستقدمهم تارة ، وتحج فتستمع إليهم تارة أخرى ، ممثلة فى الخلفاء والأمراء . وكان بلاط الوليد بن يزيد مكتظا بمغنّى الحجاز وعلى رأسهم مغنّو مكة مثل يحيى قَتيل[٥] والهُذَلى والأبجر ، ويقال إنه حج ؛ وبينما هو يسير ليلة فى عسكره ، و إذا بصوت جميل ، فأشار لبعض من معه أن يقول : أعِدِ الصوت ، فقال المغنى : لا والله إلا بالفرس الأدهم بسرجه ولجامه وأربعمائة دينار ، فنودى أين منزلك ؟

---

(١) أغانى ١/٣١٠ .
(٢) أغانى ١/٣٠١ .
(٣) أغانى ١/٢٥٨ .
(٤) أغانى ١/٣١٧ .
(٥) أغانى ٧/٣٤ وكذلك ٧/٩٢ .

ومن أنت ؟ فقال : أنا الأبجر ومنزلى على باب زقاق الخرازين . فغدا عليه رسول الوليد بذلك الفرس وأر بعمائة وتخت من ثياب ووشي وغير ذلك[1] . وقد لزم الوليد حتى قُتل .

ولا يرتاب كلُّ من يقرأ أخبار هؤلاء المغنين فى أن منزلتهم أخذت ترتفع فى بلاط الخلفاء المروانيين حتى ليظن أنهم سبقوا الشعراء ، فقد كانوا يغنون هؤلاء الخلفاء و ينادمونهم ويعودون من عندهم وقد ملأوا حجورهم ذهباً وفضة . وهذا كله كان نتيجة تفوّقهم فى فنهم وثمرة نبوغهم فى غنائهم .

٥

أشهر المغنين

نبغ بمكة فى هذا العصر كثير من المغنين ، وكتاب الأغانى يطفح بأسمائهم . وقد ترجم أبو الفرج لنفر منهم ، وسنقتصر فى الحديث عنهم على مشهوريهم ، إذ أثروا فى الشعر الذى عاصرهم آثاراً عميقة . وأشهرهم حينئذ ابن مسجح وابن محرز وابن سريج والغريض والأبجر .

ابن مسجح

هو أبو عثمان سعيد بن مِسْجَح ، وُلد فى مكة ، وكان أسود مولداً ،

---

(١) أغانى ٣/٣٤٦ .

وكان مولى بنى جُمَح ، وقيل إنه مولى بنى نوفل بن الحارث بن عبد المطلب[١] . وهو أستاذ المغنين فى مكة ، فعنه أخذ ابن محرز[٢] وابن سريج[٣] . وهو أول من نقل الغناء الفارسى إلى الغناء العربى[٤] وبذلك كان أوّل من أعدّ للنظرية العربيـة فى الغناء . وبدأ ذلك فى عصر معاوية[٥] . وفى الأغانى أن « مولاه سمعه يتغنى ، فدعا به ، وقال له : يا بُنَىَّ أَعِدْ ماسمعته منك علىّ ، فأعاده ، فإذا هو أحسن مما ابتدأ به . فقال : أنّى لك هذا ؟ قال : سمعت هذه الأعاجم تتغنى بالفارسية ، فثقفتها ، وقلبتها فى هذا الشعر . قال له : فأنت حر لوجه الله ، فلزم مولاه ، واتسع فى غنائه ، ومهر بمكة ، وأعجبوا به لظرفه وحسن ما سمعوه منه[٦] » .

وسبق أن قلنا إنه نقل هذا الغناء الفارسى إلى العربية ممن بنوا دور معاوية الرُّقْطَ وكعبة ابن الزبير ، ونقلنا أنه كان يذهب إلى البلاد الأجنبية ليتعـلم الغناء فذهب إلى سوريا وفارس ، ثم عاد إلى الحجاز وقد تشبعت نفسه بضرورة التجديد فى الغناء العربى القديم .. واستطاع أن ينفـذ مع تلميذه ابن محرز من جهة ومغنّى المدينة من جهة أخرى إلى هذه النظرية الجديدة التى نقرؤها فى الأغانى ، والتى تنتهى أسانيدها إلى هذا العصر .

وكان ذلك سبباً فى شهرته . ويظهر أن جماعة من المتشددين رفعوا

---

(١) أغانى ٣/٢٧٦ .
(٢) أغانى ١/٣٧٩ .
(٣) أغانى ١/٢٥١ .
(٤) أغانى ٣/٢٧٦ وانظر ٣/٢٨١ .
(٥) أغانى ٣/٢٨١ .
(٦) أغانى ٣/٢٧٨ وما بعدها .

أمره إلى عبد الملك فأرسل إلى عامله على مكة أن يقبض ماله ويسيِّره إليه ، فتوجه ابن مسجح إلى الشام . ويقول أبو الفرج : إن رجلا له جوار مغنيات صحبه فى طريقه[1] ، ولعله أراد لهن أن يأخذن عنه ويتعلمن فنه أثناء رحلته . ومازال حتى انتهى إلى دمشق ، وهناك تعرّف على أحد أقرباء عبد الملك فغنّاه ، وأعجب به إعجابا شديداً ، وحينئذ أفضى إليه ابن مسجح بما جاء به فقال له : « إنى أسمر الليلة مع أمير المؤمنين فهل تحسن أن تَحْدُوَ ؟ قال : لا ، ولكنى أستعمل حُدَاء ، قال : فإن منزلى بحذاء منزل أمير المؤمنين ، فإن وافقتُ منه طيب نفس أرسلت إليك ، ومضى إلى عبد الملك ، فلما رآه طيب النفس أرسل إلى ابن مسجح ، فأخرج رأسه من وراء شُرَف القصر ثم حَدَا . . فقال عبد الملك للقرشى من هـذا ؟ قال رجل حجازى قدم علىّ ، قال : أحضره . فأحضره له ، وقال له : احْدُ مجدًا . ثم قال له : تغنى غناء الركبان ؟ قال نعم . فقال : غَنِّهِ ، فتغنى ، فقال له : فهل تغنى الغناء المتقن ؟ قال : نعم ، قال : غنه ، فتغنى . فاهتز عبد الملك طرباً . ثم قال له : من أنت ؟ ويلك ! قال له : أنا المظلوم المقبوض ماله المسيّر عن وطنه سعيد بن مسجح ، قبض مالى عامل الحجاز ، ونفانى . فتبسم عبد الملك ، ثم قال له : قد وضح عذر فتيان قريش فى أن ينفقوا عليك أموالهم ، وأمّنه ووصله وكتب إلى عامله برد ماله عليه وأن لا يعرض له بسوء » . ورجع ابن مسجح إلى مكة ،

---

(١) أغانى ٣/٢٨٢ .

وأمضى فيها بقية حياته آمناً . ولا نجد له أخباراً مع أحد من خلفاء عبد الملك . ويقول صاحب الأغانى إنه عاش حتى لقيه مَعْبَد مغنى المدينة ، وأخذ عنه فى أيام الوليد بن عبد الملك[١] .

ابن محرز

هو أبو الخطاب مسلم (أو سلم أو عبد الله) بن مُحرِز مولى بنى عبد الدار ، وأصل أبيه من الفرس وكان من سدنة الكعبة[٢] . وقد تتلمذ ابن محرز لابن مسجح[٣] ، ولعَزّة الميلاء[٤] ، فكان يذهب إليها فى المدينة ، حيث يمضى هناك ثلاثة أشهر يأخذ عن مغنيها . وحياته الفنية طريفة ، فقد شخص مثل أستاذه ابن مسجح إلى الشام وفارس ، فتعلم ألحان الروم والفرس جميعاً ، ثم أخضع الغناء العربى لبعض هذه الألحان ، على نحو ما كان يصنع أستاذه .

وكان لا يكتفى مثل ابن مسجح بما كان يقوم به فى هذا الجانب ، بل كان يذهب إلى المدينة ، ليستمع إلى ما يحدث المغنون هناك . ومعنى ذلك أنه كانت لديه رغبة شديدة فى النهوض بفنه ، فكان يقيم بمكة ثلاثة أشهر ، ثم يبرحها إلى المدينة فيقيم بها ثلاثة أخرى ، ثم يمضى بقية عامه فى الشام وفارس .

---

(١) انظر أغانى ٣/٢٨٢ وما بعدها .
(٢) أغانى ١/٣٧٨ .
(٣) أغانى ١/٣٧٩ .
(٤) أغانى ١/٣٧٨ .

واشتهر بأنه أول من غنّى الرمل ، وكذلك اشتهر بأنه لم يكن يغنى إلا بزَوْج من الشعر[١] ، وقد غنى فى إحدى حفلات جميلة مغنية المدينة المشهورة صوتاً مؤلفاً من ثلاثة أبيات ، فقالت له : يا أبا الخطاب كيف بَدَا لك فى ثلاثة وأنت لا ترى ذلك ؟ فقال أحببت أن أواسى معبداً[٢] ، وكان معبد سبقه إلى غناء ثلاثة أبيات ، فأحب أن يوافقه فى ذوقه . وهذا يدل على رهافة حِسّ فيه .

وكان يقال له صَنَّاج العرب لإحسانه وجمال غنائه ، قال إسحق الموصلى قلت ليونس الكاتب : من أحسن الناس غناء ؟ قال : ابن محرز ، قلت : وكيف قلت ذاك ؟ قال إن شئت فسرت ، وإن شئت أجملت ، قلت : أجمِلْ ، قال : كأنه خلق من كل قلب ، فهو يغنى لكل إنسان بما يشتهى . وكان يعد أحد الفحول الخمسة الذين ظهروا فى الحجاز[٣] .

ويقول أبو الفرج كانت العلة التى مات بها الجذام فلم يعاشر الخلفاء ولا خالط الناس ، ثم يروى أن غناءه لم يأخذه الناس عنه مباشرة ، وإنما أخذوه عن جارية لصديق له من أهل مكة كانت تألفه ، فأخذه الناس عنها[٤] . ومع ذلك فنحن نجده يبرح مكة إلى الشام وفارس ودور المغنين والمغنيات فى المدينة . ويروى أبو الفرج نفسه فى موضع آخر من كتابه أنه كان يفد مع ابن مسجح وابن سريج والغريض على المدينة ، فينزلون

---

(١) أغانى ١/٣٧٩ .
(٢) أغانى ٨/٢١٣ .
(٣) أغانى ١/٣٨٠ .
(٤) أغانى ١/٣٧٩ .

بدار جميلة و يتغنون فيها[١]. وربما أصابه هذا الجذام فى أخريات حياته ، ولـكن على كل حال لا نجد له أخباراً مع الخلفاء والأمراء .

ابن سريج

هو أبو يحيى عبيد بن سُرَيْج مولى بنى نوفل بن عبد مناف ، وقيل بل مولى بنى الحارث بن عبد المطلب ، وقيل بل مولى بنى لَيْث وقيل بل مولى بنى مخزوم[٢] . وكان آدمَ أحمر ظاهر الدم خفيف العارضين فى عينيه قَبَـل[٣] ، ولد فى خلافة عمر ، وأدرك يزيد بن عبد الملك وناح عليه ، ومات فى خلافة هشام[٤] ، وقيل بل مات بعد قتل الوليد ابن يزيد[٥] . وقد أخذ الغناء عن ابن مسجح[٦] ، ورحل إلى المدينة فأخذ عن طُوَيس[٧] ، وكذلك أخذ عن نشيط الفارسى[٨] مولى عبد الله ابن جعفر ، وهو الذى أخذ عنه أهل المدينة الغناء الفارسى . ومعنى ذلك أن ابن سريج و إن لم يرتحل إلى بلاد فارس لأخذ الغناء الفارسى كما صنع أستاذه ابن مسجح ، فإنه ارتحل إلى المدينة لأخذه عن نشيط ، و إذن فهو أحد من تأثروا بالغناء الفارسى فى ألحانه .

وظل — على ما يظهر — خاملا حتى كانت وقعة الحرة سنة ٦٣ هـ

---

(١) أغانى ٨/١٨٨ .
(٢) أغانى ١/٢٤٨ .
(٣) أغانى ١/٢٤٩ .
(٤) أغانى ١/٢٥٤ .
(٥) أغانى ١/٢٥٠ .
(٦) أغانى ١/٢٥١ .
(٧) ابن عبد ربه ٣/٢٤٢ .
(٨) أغانى ٨/٣٢١ .

فقلا على أبي قُبَيس ، وناح ، فاستحسن الناس نواحه . ويقال إن سكينة بنت الحسين قتيل كربلاء بعثت إليه بشعر ، أمرته أن يصوغ فيه لحناً يناح به ، فصاغ فيه لحناً ، قدمه على جميع ناحة مكة والمدينة والطائف[١] .

وما زال ابن سريج يقتصر على النياحة حتى ظهر الغريض وتفوق عليه فى هذا الفن ، فتركه وعدل إلى الغناء[٢] ، فبرع فيه ومهر ، وارتفع نجمه لا فى مكة وحدها بل فى الحجاز كله . وكان فى أول أمره يغنى مرتجلا ويوقّع بقضيب ثم غنى بالعود ، وكان عوده على صنعة عيدان الفرس ، وكان أول من ضرب به على الغناء العربى بمكة[٣] .

ولم يتقدم الزمن طويلا بابن سريج حتى نال شهرة مدوية . قال إسحق : سألت هشام بن المرِّيّة وكان قد عُمِّر وكان عالماً بالغناء ، فقلت له : « من أحذق الناس بالغناء ؟ فقال لى أتحب الإطالة أم الاختصار ؟ فقلت أحب الاختصار فقال : ما خلق الله تعالى بعد داود النبى عليه الصلاة والسلام أحسن صوتاً من ابن سريج ، ولا صاغ الله عز وجل أحداً أحذق منه بالغناء ، ويدلك على ذلك أن معبداً كان إذا أعجبه غناؤه قال : أنا اليوم سريجى[٤] » . وينقل إسحق عن أبيه إبراهيم أنه كان يقول : « غناء كل مغن مخلوق من قلب رجل واحد ، وغناء ابن سريج مخلوق من قلوب الناس جميعاً ، وكان يقول : الغناء على ثلاثة

---

(١) أغانى ١/٢٥٤ وما بعدها .
(٢) أغانى ١/٢٥٥ .
(٣) أغانى ١/٢٤٩ وما بعدها .
(٤) أغانى ١/٢٥١ .

أضرب ، فضرب مُلْهٍ مطرب يحرّك ويستخف ، وضرب ثانٍ له شَجَى ورقة ، وضرب ثالث حكمة وإتقان صنعة ، وكل هذا مجموع فى غناء ابن سريج[١] » . وقال إبراهيم الموصلى أيضاً عن صوت سمعه لابن سريج : « ما سمعت هذا الصوت إلا أبكانى لأنى إذا سمعته أو ترنمت به وجدت غمزاً على فؤادى[٢] » . وقد سئل إسحق الموصلى عن غنائه وغناء ابن سريج فقال « والله لقد أخذت بخطام راحلته ، فزعزعتها ، وأنحتها ، وقمت بها ، فما بلغته[٣] » وكان يقول : « أصل الغناء أربعة نفر : مكيان ومدنيان ، فالمكيان : ابن سريج وابن محرز ، والمدنيان معبد ومالك[٤] » .

وتعلق الناس به فى عصره ، وخاصة أهل مكة حتى قال ابن تَيْزَن المغنى ، وهو أحد غلمان ابن سريج : إذا أعجزك أن تطرب القرشى فغنه غناء ابن سريج فى شعر عمر بن أبى ربيعة فإنك ترقصه[٥] . وقد مر بنا أن عطاء المحدِّث سمع صوتاً له فرقص . وكان يتصادف أن يغنى أثناء الحج فيحبس الناس عن مناسكهم . ويقال إنه غنى على أَخْشَب مِنى غداة النَّفْرِ صوتاً فارتفع حنين الناس وأنينهم[٦] ، وأهداه شريف من أشراف الحجاج حلة وخاتماً قيمتهما ألف وخمسمائة دينار[٧] .

وكانت فى ابن سريج رقة فكان لا يغنى الناس صوتاً مُدِح به

---

(١) أغانى ١/٢٩٠ .
(٢) أغانى ١/٢٧٠ .
(٣) أغانى ١/٢٥٢ .
(٤) أغانى ١/٢٥١ .
(٥) أغانى ١/٢٨٣ .
(٦) أغانى ١/٢٩٣ .
(٧) أغانى ١/٢٦٢ وما بعدها .

أعداؤهم ، ولا صوتاً عليهم فيه عار أو غضاضة[١] . واستدعاه الوليد ابن عبد الملك إلى بلاطه فى دمشق ، وأنزله فى أحد قصوره ، وأجزل له فى جوائزه ، وكان ابن سريج يغنيه فى مديح الشعراء له من مثل الأحوص وعدى بن الرِّقاع[٢] . ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم قرب المغنين منذ الوليد إلى نفوس الخلفاء ، فقد كانوا يغنونهم فى مدائحهم ، وربما كان ذلك أهم الأسباب فى أنهم أخذوا يظفرون من جوائزهم بما لم يظفر به شعراؤهم ، ففرق أىُّ فرق بين النشيد والغناء .

وترك ابن سريج ثلاثة وستين صوتاً كان يعرفها معرفة تامة إبراهيم الموصلى وابنه إسحق[٣] . ويروى أبو الفرج أنه لما سمع مغنو مكة بسَبْعَة معبد وشهرتها ، وهى أصوات سبعة سميت مُدَنَ معبد ، لحقتهم لذلك غَيْرَة ، فاجتمعوا ، فاختاروا من غناء ابن سريج سبعة ، فجعلوها بإزاء سبعة معبد ، ثم خايروا أهل المدينة ، فانتصفوا منهم[٤] .

ولعل فى هذا كله ما يدل على مدى إحسانه ومبلغ تفوقه ، وقد كان يغنى خاصة بالغناء الخفيف ، فكان أكثر غنائه من الأرمال والأهزاج[٥] ، ولذلك كان يستخفه الناس ، وكانوا يقولون كأن غناءه خلق من كل قلب[٦] .

---

(١) أغانى ١/٢٦٩ .
(٢) أغانى ١/٢٩٧ وما بعدها .
(٣) أغانى ١/٢٦٨ .
(٤) أغانى طبع دار الكتب ٩/٢٣٨ .
(٥) أغانى ١/٢٦٧ .
(٦) أغانى ١/٢٥١ .

الغريض

هو أبو يزيد أو أبو مروان عبد الملك[١] ، أما الغَريض فلقب لُقِّبَ به لأنه كان نضر الوجه غض الشباب حسن المنظر . وكان مولداً من مولَّدى البربر ، وهو مولى الثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة وأخواتها المعروفات جميعاً باسم العَبَلات[٢] .

وهو خريج ابن سريج وتلميذه ، وقد بدأ معه حين كان يحترف النياحة ، فإن مولياته ألحقنه به لكى ينوح لهن على قتلاهن فى الحرة[٣] . ولم يلبث أن تفوق على أستاذه فى هذا الفن . ويقال إن ذلك كان سبب عدول ابن سريج عنه إلى الغناء . وعدل الغريض معه إليه ، فكان ابن سريج لا يغنى صوتاً إلا عارضه فيه[٤] ، ولكنه لم يستطع أن يبزه ، فقد كان دائماً يأتى دونه[٥] ، ومع ذلك فقد كان يعدّ فى فحول المغنين وكبارهم . وجعله إسحاق الموصلى أحد خمسة تفوقوا فى فن الغناء بالحجاز[٦] ، وروى أنهم أجمعوا على أن الغريض كان أشجى غناء ، وكان ابن سريج أحكم صنعة[٧] . ويقال إن سُكَينة بنت

---

(١) أغانى ٢/٣٥٩ وانظر ١/٢٥٥ .
(٢) أغانى ١/٢١١ وانظر ٢/٣٥٩ .
(٣) أغانى ١/٢١١ وانظر ١/٢٥٥ .
(٤) أغانى ١/٢٥٦ .
(٥) أغانى ١/٢٧٦ وكذلك ١/٢٧٨ .
(٦) أغانى ١/٣٨٠ .
(٧) أغانى ٢/٣٦٢ .

الحسين حجت ، فدخل إليها ابن سريج والغريض ، فقال لها ابن سريج : يا سيدتى ! إنى كنت صنعت صوتاً وحسّنته وتنوّقت فيه وخبّأته لك فى حَرِيرة فى درج مملوء مسكا ، فنازعنيه الغريض ، فأردنا أن نتحاكم إليك فيه ، فأينا قدمتِه فيه تقدم . ثم غناها كل منهما الصوت ، فقالت : والله ما أفرق بينكما ، وما مثلكما عندى إلا كمثل اللؤلؤ والياقوت فى أعناق الجوارى الحسان ، لا يُدْرَى أىُّ ذلك أحسن[1] . ويظهر أنه استمر يجمع بين الغناء والنوح حتى آخر حياته ، فإن الثريا مولاته حين ماتت ناح عليها[2] . ويقول أبو الفرج إنه كان ينوح فيدخل المآتم وتُضْرَب دونه الحُجُب ، ثم ينوح فيفتن كل من سمعه[3] . وكان فى الوقت نفسه يغنى فيحسن الغناء ، ولكنه كان يأتى تابعاً لابن سريج . وهذا على كل حال لا يحطّ منه ، فقد كان ابن سريج على ما يظهر يتقدم مغنّى الحجاز جميعاً .

ومهما يكن فقد كان للغريض منزلة عظيمة فى مكة ، وكان الحجاج حين يسمعونه يظنونه من الجن لجمال صوته[4] ، وقد خرج إليه معبد مغنى المدينة الأول ليسمع منه بعض أصواته[5] ، فلما سمعه قال لقد سمعت شيئا لم أسمع أحسن منه ، وقصّر إلىّ نفسى ، وعلمت فضيلته

---

(١) أغانى ٢/٣٦٥ وكذلك ٢/٣٦١ .
(٢) أغانى ١/٢٤٦ وانظر أغانى ٢/٣٦٤ .
(٣) أغانى ٢/٣٦٠ .
(٤) أغانى ٢/٣٦٢ .
(٥) أغانى ٢/٣٨٥ .

علىّ . ويظهر أنه كان يحسن التأثر والنقل ، فقد قالوا إنه سمع أصوات رهبان بالليل فى دَيْر لهم فاستحسنها ، وصاغ على مثالها لحنا[١] .

وكان الغريض مقربا من نساء مكة والمدينة جميعا ، وكان يحظى بجوائزهن . ومن أشهر من غناهن عائشة بنت طلحة[٢] . وليس من شك فى أنه كان المغنى الأول فى دار مولياته العبلات وعلى رأسهن الثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة . وكان يلزم عمر ويصحبه فى غدواته وروحاته ، وكان يتخذه رسولا إلى بعض صديقاته[٣] . وكما كان يلزم عمر كان يلزم الحارث بن خالد المخزومى الشاعر والى مكة لعبد الملك ، وكان يجزل له فى العطاء[٤] . ويقال إنه غنى عاتكة بنت يزيد فأمرت له بخمسة آلاف درهم وثياب عدنية ، وغير ذلك من الألطاف[٥] . ولما قدم الوليد بن عبد الملك مكة صحبه وغناه فوصله وكساه[٦] ، وكذلك غنى يزيد بن عبد الملك أثناء حجه[٧] .

ولعل فيما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أنه كان أحد المغنين الممتازين فى عصره ، وتتلمذ لابن سريج كما قدمنا ، ويظهر أنه تتلمذ أيضا لابن مسجح[٨] ، وكان كثير الروحات إلى دار جميلة

---

(١) أغانى ٢/٣٩٧ .
(٢) أغانى ٢/٣٧٨ وانظر ٣/٣٢١ .
(٣) أغانى ١/١٥٠ .
(٤) أغانى ٣/٣٢٣ .
(٥) أغانى ٣/٣٢٣ .
(٦) أغانى ٢/٣٩٥ .
(٧) أغانى ٢/٣٨٢ .
(٨) أغانى ٣/٢٧٧ .

فى المدينة[١] . ولما شدد نافع بن علقمة فى طلب المغنين والمخنثين هرب منه إلى اليمن فمات بها ، وكان ذلك فى خلافة سليمان ابن عبد الملك . ويقال بل توفى فى عُرْسٍ أو خِتان ، وتذهب الأسطورة إلى أن الجن نهته عن صوت فغنّاه فقتلته[٢] .

الأبجر

هو أبوطالب عبيدالله (أو محمد) بن القاسم وكان مولى لكنانة[٣] ، أخذ الغناء على ما يظهر عن الغريض[٤] ولكنه لم يشتهر بادئ الأمر . ويقال إن عطاء بن أبى رباح خَتَنَ بنيه أو بنى أخيه ، فكان يختلف إليهم ثلاثة أيام يغنى لهم[٥] .

وكان يذهب إلى المدينة كعادة زملائه . ويقال إنه اجتمع يوماً مع ابن عائشة مغنى المدينة فى بيت ابن هبّار فتغنى ابن عائشة ، فقال الأبجر : كل مملوك لى حر إن تغنيت معك إلا بنصف صوتى ، ثم أدخل إصبعه فى شدقه ، فتغنى ، فسمع صوته من فى السوق وحُشِر الناس[٦] .

وكان الأبجر يعترض بغنائه الحجاج على عادة المغنين فى مكة ، فكان يحبسهم عن مناسكهم ، وبينما كان يتغنى يوماً و إذا بالوليد بن

---

(١) أغانى ٨/١٨٨ وكذلك ٨/٢١٠ ، ٨/٢١٣ ، ٨/٢٢٦ .
(٢) أغانى ٢/٣٩٩ وما بعدها .
(٣) أغانى ٣/٣٤٤ .
(٤) ٣/٣٤٧ .
(٥) أغانى ٣/٣٤٨ .
(٦) أغانى ٣/٣٤٨ .

يزيد يمر به ، فيعجب بصوته ، ويرسل له بأربعمائة دينار ، ولزمه بعد ذلك فذهب معه إلى الشام ، واستمر عنده حتى قُتل ، فخرج إلى مصر ومات بها[١] .

وكانت فيه فكاهة ، فيقال إن رسول الوليد بن يزيد ذهب فى استدعاء المغنين ، فعرض عليه نفسه فأبى أن يأخذه لأنه لم يكن يعرفه ، فقال له خذنى ولك مع هذا شرط ، قال : وما هو ؟ فقال الأبجر : كلُّ ما أصبته فلك شطره ، وذهب مع المغنين ، فغنوا الوليد ، فلم يتحرك ولا نشط ، وغنى الأبجر فطرب ، وارتاح ، وأمر له بعشرة آلاف درهم . فلما خرج المغنون وثب فقال للوليد : إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر من يضرب بنى مائةَ الساعةَ بحضرتك ، فضحك ، وقال له : قبّحك الله ! وما السبب فى ذلك ، فأخبره بقصته مع الرسول وقال : إننى أريد أن أُضْرَبَ مائة ويُضْرَب بعدى مثلها ، فقال له : قد لطفت ، أعطوه مائة دينار وأعطوا الرسول خمسين ديناراً[٢] .

وأغلب الظن أنه كان كثير الجوائز حتى قبيل ذهابه إلى دمشق ومعيشته فى بلاط الوليد ، فالرواة يزعمون أنه « لم يكن بمكة أحد أظرف ولا أسرى ولا أحسن هيئة من الأبجر ، كانت حلته بمائة دينار ، وفرسه بمائة دينار ، ومركبه بمائة دينار[٣] . وإذا كان أصاب هذا فى حياته فماذا

---

(١) أغانى ٣/٣٤٦ .
(٢) أغانى ٣/٣٤٨ .
(٣) أغانى ٣/٣٤٥ .

أصاب الذين يتقدمونه من مثل ابن سريج والغريض ؟! وكل النصوص تدل على أن هؤلاء المغنين أحسنوا فنهم إلى حد بعيد .

الهذلى

هو أبو عبد الرحمن سعيد بن مسعود ، وكانت له مهنة غير الغناء ، فقد كان ينقش الحجارة بأبى قُبَيْس[١] ، وكان منزله فى منى ، وكان فتيان قريش يأتونه ، فيغنّيهم هناك ، وكان يجلس أحياناً على جمرة العقبة ويغنيهم[٢] ، وأحيانا يغنيهم فى البطحاء[٣] . وكانوا يذهبون أحيانا أخرى لمساعدته فى الحجارة ، أو بعبارة أدق كانوا يذهبون لسماع غنائه ، فيأبى إلا أن يساعدوه فى قطع الحجارة[٤] . ويقول أبو الفرج : إنهم كانوا يفدون إليه ومعهم الطعام والشراب والدراهم ، فيقول لهم : الوظيفة ، فيقولون قد جئنا بها ، فيقول : الوظيفة الأخرى : أنزلوا أحجارى ، فينقلون له الحجارة وينزلونها ، ثم يجلس على قطعة بارزة من الجبل ، ويجلسون تحته فى السهل ، فيشربون وهو يغنيهم حتى المساء[٥] .

ويدل هذا الخبر على أن الناس لم يكونوا يستمعون للمغنين بالمجان ، بل كانوا يستمعون إليهم بالوظيفة والدراهم ، وهى نفس الطريقة المتبعة

---

(١) أغانى ٥/٦٥ .
(٢) أغانى ٥/٦٧ .
(٣) أغانى ٥/٦٦ .
(٤) أغانى ٥/٦٥ .
(٥) أغانى ٥/٦٧ .

الآن . وليس من ريب فى أن هـذا كان دخلا منظما لهؤلاء المغنين ، وأنه كان يدرّ عليهم كثيراً من الأموال .

وأهم حادث فى حياة الهذلى أنه تزوج بنت ابن سريج ، زوّجه منها ابن سريج نفسه ، وهذا دليل على أنه كان يتبعه ويلازمه . ويقول الرواة إنه أخذ غناء أبيها كله عنها[1] ، وجاء منها بولد فمر يوما على مجلس فيه أشعب ، فتساءل الناس مَن هذا الصبى ؟ فقال أشعب : أو ما تعرفونه ؟ هذا ابن الهذلى من ابنة ابن سريج ، ولد على عود ، واستهلّ[2] بغناء ، وحُنِّك بملوى[3] وقطعت سرته بوتر ، وخُتِنَ بمضراب !

وهؤلاء هم أشهر المغنين الذين ظهروا فى مكة أثناء العصر الأموى ، وكان وراءهم كثيرون لا يقلون عنهم شهرة . وقد ترجم أبو الفرج لطائفة منهم مثل يحيى قيل[4] مولى العبلات ، وكان أحد من لقيه الوليد بن يزيد فى مكة واستمع إلى غنائه[5] ، ومنهم عبادل مولى قريش ، وهو معن محسن متقدم من الطبقة الثانية ، ولم يفارق الحجاز ولا وفد إلى ملوك بنى أمية ، وكانت له صنعة كثيرة[6] .

وكان بجانب هؤلاء المغنين كثير من المغنيات ، ولكن يظهر أن مكة لم يكن بها دار خاصة بهن ، كدار عزة الميلاء وجميلة فى المدينة ،

---

(١) أغانى ٥/٦٦ .
(٢) استهل : صاح .
(٣) الملوى : من أجزاء العود .
(٤) أغانى ٣/١١٠ .
(٥) أغانى ٩/٢٧٥ .
(٦) أغانى ٦/٩٦ .

ولذلك لم نسمع كثيراً عنهن ، وإن كانت نصوص الأغانى تدل على أنهن كن كثيرات . وقد سبق أن قلنا إن التى نقلت للمغنين والناس غناء ابن محرز جارية لصديق له ، ودارُ الثريا وأخواتها العَبَلات التى أخرجت الغريض ويحيى قَيل أخرجت كذلك مغنية عرفت هناك تسمى سُمَيَّة ، وكان عمر بن أبى ربيعة يمتلك جاريتين مغنيتين هما بَغوم وأسماء . ويقول أبو الفرج ، وقد عرض لموكب جميلة حين حجت ، إنه استقبلها فى مكة قيان كثير لم يُسَمَّين لنا[(١)] . ومن المؤكد أن مكة كانت تكتظ بهؤلاء القيان ، ويقال إن سلامة القيس التى نشأت فى المدينة اشتراها يزيد من مكى يسمى سُهَيل بن عبد الرحمن[(٢)] ، ومعنى ذلك أن مكة حظيت بأغانيها وغنائها . وكذلك يقال إن حَبابة التى اشتراها يزيد أيضاً والتى خرجتها جميلة إنما اشتراها من آل لاحق المكيين[(٣)] .

ويخيل إلى الإنسان أن مكة فى هذا العصر كانت فردوساً للمغنين والمغنيات ، وقد أشرنا مراراً إلى زيارة مغنى المدينة لها من مثل معبد وجميلة ، ويكاد لا يوجد مغن مشهور أو مغنية معروفة فى المدينة إلا وزارها واستمعت إلى كبار مغنيها . ومن لم يأت منهم استمع إلى هؤلاء المغنين المكيين فى المدينة نفسها ، إذ كانوا يكثرون من زيارتها ومن النزول على جميلة ، وكثيراً ما أحيوا ليالى وحفلات فيها .

---

(١) أغانى ٨/ ٢١٠ . (٢) أغانى ٨/ ٣٣٤ وانظر ٨/ ٣٣٩ .
(٣) أغانى طبع بولاق ١٣/ ١٥٥ .

وقد كان هؤلاء المغنون من أهل مكة يكثرون من زيارة دمشق ، كما كان يكثر من هذه الزيارة مغنو المدينة ومغنياتها . وأحدثوا فيها بفضل زيارتهم و بفضل اهتمام الخلفاء بهم نهضة فنية فى الغناء ، كان من آثارها هناك أبو كامل الغُزَيِّل مغنى الوليد بن يزيد[١] ، بل كان من آثارها الوليد بن يزيد نفسه على نحو ما هو معروف[٢] .

ونحن لا نكاد نخطو خطوات فى العصر العباسى حتى نجد هذا النهر نهر الغناء الحجازى الذى كان يسير نحو الشمال يتجه إلى الشرق حيث العراق ومدنه الكبيرة : البصرة والكوفة ثم بغداد . وكان للرافد الكبير رافد مكة أثر واسع فى هذا التحول وما طوى فيه من نهضة فنية كبيرة للغناء والموسيقى فى العراق . ولا يكاد يعيش فى مكة مغن مشهور إلى العصر العباسى إلا وتراه هناك ، وقد ترجم أبو الفرج فى أغانيه لطائفة كبيرة من هؤلاء المغنين الذين كانوا واسطة انتقال هذا الفردوس الموسيقى من الحجاز إلى العراق من مثل ابن عباد وكان مولى لبنى مخزوم وقيل بل مولى لبنى جُمَح ، وهو من كبار المغنين وقد توفى ببغداد فى الدولة العباسية[٣] ومثل إسماعيل ابن لِهَرْبذ وكان مولى لآل الزبير بن العوام ، وأدرك آخر أيام الرشيد ، وغناه يوماً فكاد يرقص من شدة الطرب ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم[٤] ، ومثل يحيى المكى ،

(١) أغانى طبع دار الكتب ٣٢/٧ وكذلك ٤٦/٧ ، ٩١/٧ وما بعدها .
(٢) أغانى ٣٢/٧ وانظر ٢٧٤/٩ .
(٣) أغانى ١٧١/٦ .
(٤) أغانى ١٠٤/٧ .

ويقول صاحب الأغانى : إنه قدم مع الحجازيين الذين قدموا على المهدى فى أول خلافته ، وبقى فى العراق هو وولده يخدمون الخلفاء إلى أن انقرضوا ، وكان آخرهم محمد بن أحمد بن يحيى المكى ، وكان يغنى مرتجلا ، ويحضر مجلس المعتمد مع المغنين[١] ، ومثل سِياط وكان مولى لخزاعة ، وقد ترك ستين صوتا[٢] .

ولنرجع إلى المغنين الثلاثة الممتازين فى عصر هارون الرشيد والذين جمعوا له الأصوات المائة التى أدار أبو الفرج كتابه (الأغانى) عليها ، وهم فُلَيح بن أبى العوراء وابن جامع وإبراهيم الموصلى ، فإنك إذا ذهبت تبحث فى حياتهم وتكوينهم الفنى وجدت أولهم من أهل مكة وكان مولى لبنى مخزوم[٣] . أما الثانى فكان سياط زوج أمه[٤] . ولهذا يغلب أن يكون مكى الولادة والنشأة ، وأما الثالث فإنه تتلمذ للمكيين ، وأخذ عنهم[٥] .

وأكبر الظن أننا لا نسرف إذا قلنا : إن نهضة الغناء فى العراق أثناء العصر العباسى إنما كانت امتداداً لهذه الموجة التى نفذت إلى العراق على أيدى مغنى مكة وزملائهم من مغنى المدينة .

---

(١) أغانى ٦/١٧٤ .
(٢) أغانى ٦/١٥٦ وما بعدها .
(٣) أغانى ٤/٣٥٩ .
(٤) أغانى ٦/١٥٢ وانظر ٦/٢٨٩ .
(٥) أغانى ٦/١٥٢ ، ١٧٤/٦ .

الفصل الثالث

الشعر الغنائى فى مكة

١

الشعر فى مكة

كل من يدرس الحياة الأدبية العربية فى العصر الجاهلى يشعر شعوراً متأصلا فى ذات نفسه بأن الشعر كان عمود هذه الحياة ، إذ كان سبيل القوم إلى التعبير ، سواء فى وقائعهم الحربية أو وقائعهم اليومية ، فلم يكن قد تكوّن عندهم بعدُ هذا الحائطَ العقلى الذى يحوِّل الأمة من عالم الشعر إلى عالم الكتابة الفنية . ووُجِدَ لدى القوم خطابة ، ولكنها كانت محدودة ، أما الشعر فكان الأسلوب العام للتعبير عن أحداثهم ويومياتهم .

ونحن نجد الشعر فى مكة أثناء العصر الجاهلى على كل لسان ، وفى كل مناسبة ، مما يجعلنا نؤمن أن أهل مكة كانوا مثل بقية العرب يعبرون بالشعر عن كل ما يضطربون فيه من عواطف دنيوية أو دينية . ونضرب لذلك مثلا بيت بنى هاشم ، فنحن نجد الرواة ينسبون إلى كل الشخصيات اللامعة فيه شعراً ، فقصىّ وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب

كل هؤلاء يُنسَبُ إليهم شعر[١] ، وكذلك حمزة[٢] بن عبدالمطلب وأخواه الزبير[٣] وأبو طالب . يقول ابن سلام : « كان أبو طالب شاعراً جيد الكلام ، وأبرعُ ما قال قصيدتُه التى مدح فيها النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى :

وأبيض يُستَسقَى الغمامُ بوجهِهِ ربيعُ اليتامى عِصمَةٌ للأراملِ

وقد زيد فيها وطُوِّلت[٤] » . وتروى سيرةُ ابن هشام كثيراً من شعر أبى طالب . وإذا كان هذا شأن بيت واحد من بيوت قريش فما بالنا ببقية البيوت ؟ وإن سيرة ابن هشام لتطفح بكثير من الشعر القرشى ، وكذلك الطبرى وكتاب الأغانى ، فقلما توجد شخصية متألقة فى تاريخ مكة الجاهلى إلا وينسب إليها شعر ، وخاصة من اتصلوا بالسيرة النبوية ، فأبو جهل بن هشام وأبو سفيان وعمرو بن العاص ونبيه ابن الحجاج وغيرهم من أشراف قريش ينظمون الشعر ويجيدونه . وقد ترجم صاحب الأغانى لآخرهم فقال : إنه من وجوه قريش وذوى النباهة فيهم[٥] . وممن ترجم لهم أيضاً مسافر بن أبى عمرو بن أمية وكان سيداً جواداً ، وهو أحد أزواد الركب ، وإنما سموا بذلك لأنهم كانوا لايدعون غريبا ولا مارَّ طريقٍ ولا محتاجاً يجتاز بهم إلا أنزلوه وتكفلوا به حتى

---

(١) انظر سيرة ابن هشام الجزء الأول ص ١٣٥ وكذلك ص ٥٢ .
(٢) ابن هشام ٣/٨ .
(٣) طبقات الشعراء لابن سلام طبع ليدن ص ٦١ .
(٤) ابن سلام ص ٦٠ . (٥) أغانى ١٦/٦٢ وما بعدها .

يظعن[١]» ، ويعرض أبو الفرج لشعره ، وما كان من مناقضات بينه وبين عمارة بن الوليد ، وكان هو الآخر شاعراً ، وهو ثانى اثنين أرسلت بهما قريش إلى النجاشى كى يسلم إليها المسلمين الذين اعتصموا به فى الهجرة الأولى المعروفة[٢] .

ولا نمضى فى حوادث السيرة وهذا الصراع الذى نشب بين الرسول وأصحابه فى المدينة والقرشيين فى مكة حتى تلمع شخصيات كثيرة فى تاريخ مكة الأدبى ، فقد أخذ هذا الصراع مظهرين : مظهراً حربيًّا فى بدر وأحد والخندق ، ومظهراً أدبيًّا فى أهاجٍ كانت مكة والمدينة جميعاً تتقاذفان سهامها ونيرانها . وأهم من كانوا يقذفون هذه السهام والنيران من مكة الحارث[٣] بن هشام ، وعمرو[٤] بن العاص ، وهبيرة[٥] بن أبى وهب المخزومى ، وضرار[٦] بن الخطاب وأبو سفيان[٧] بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن الزبعرى ، وهو أهم هؤلاء الشعراء جميعاً ، وهو القائل يوم أحد[٨] :

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٩/٤٩ .

(٢) نفس المصدر ٩/٥٥ . (٣) ابن هشام ٣/١٩ .

(٤) ابن هشام ٣/١٥١ وكذلك ٣/١٥٤ .

(٥) ابن هشام ٣/١٣٦ وانظر ابن سلام ص٦٥ حيث يقول : إنه كان شديد العداوة لله ورسوله فأخله الله ودحضه .

(٦) انظر ابن هشام ٢/٥٦ ، ٢/٩٣ ، وكذلك ٣/١٣ ، ٣/١٤٦ ، ٣/١٥٢ ، ٣/١٧٢ .

(٧) ابن سلام ص ٦١ ويقول : له شعر كان يقوله فى الجاهلية فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل . (٨) ابن سلام ص ٥٨ وابن هشام ٣/١٤٣ .

ليت أشياخى ببدرٍ شهدوا جَزَعَ الخَزْرَج من وَقْع الأَسَلْ

وما زال يتناقض هو وحسان بن ثابت حتى أتم الله نعمته على رسوله، ففتحت مكة، فأسلم، ومدح الرسول واعتذر إليه، ومن قوله بعد إسلامه[1]:

يارسول المليك إن لسانى راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُورُ

وأظن فيما قدمناه ما يدل دلالة واضحة على نشاط الشعر فى مكة أثناء العصر الجاهلى.

ويلاحظ ابن سلام أن قريشاً تزيد فى أشعارها[2]، وهو يشير بذلك إلى كثرة المنحول فيه. ومن المؤكد أن الشعر كان كل شى فى حياة القوم الأدبية، فعلى الرغم من مجلس شيوخ مكة وما يتطلبه من عناية القرشيين بالخطابة تحت تأثير جدالهم وحوارهم فى شئونهم المختلفة، فإنهم لم يُعْرَفوا بخطابة حينئذ، إنما عُرِفوا بالشعر. ونفس حوادث السيرة لا نجد فيها خطباً، وإنما نجد شعراً وشعراء مما يدل على أن الشعر كان هو الفن المألوف عندهم.

ويذكر ابن سلام أن الشعر فى مكة كان قليلا، ويعلل لذلك بأنه لم تكن بين أهلها ناثرة[3]، كما كان الشأن بين الأوس والخزرج

---

(١) ابن سلام ص ٥٩ وابن هشام ٤/٦١.

(٢) ابن سلام ص ٦٢. (٣) ابن سلام ص ٦٥.

فى المدينة مثلا ، فإن الحرب بين الحيين هناك سَعَرت القوم ، وكونت منهم شعراء يتبادلون الأهاجى والنقائض . وفقدان مكة للحروب والحزازات بين أهلها فى الجاهلية لا يجعلها تفقد الشعر ، ولا يؤخر مرتبتها فيه ، إنما يلوّن شعرها بلون حياتها ، فمن الطبيعى أن لا يكون هناك هجاء كثير لضعف دواعيه ، ولكن من الطبيعى بعد ذلك أن يتخذ القوم الشعر فى التعبير عن روحهم وعواطفهم ، فينابيع الشعر مستقرة فى نفوسهم استقرارها فى نفوس العرب جميعاً .

ومن المهم أن نعرف أن كثيراً من أحكامنا على الحياة الجاهلية ينقصه الدليل الصحيح ، فلم يبق لنا من هذه الحياة إلا رسومٌ وأطلال ، وخاصة فيما ضادّ الإسلام وعارضه . وكلنا نعرف أن الإسلام محا الوثنيةَ فى الجزيرة محواً وكلَّ ما اتصل بها من شعر وقول . ولعلنا لا نخطئ إذا زعمنا أن القرشيين عالجوا فى شعرهم الوثنى حياتهم الدينية ، فإن العربى من شأنه دائماً أن يعبر عن سلوكه فى صراحة وصدق ، وإن قيام مكة على الوثنية فى الجزيرة ليؤكد أن أبناءها نظموا شعراً كثيراً فى آلهتهم . وأيضاً فإن حربهم اللسانية للرسول لا بد أن تكون قد احتوت على دفاع كثير عن دينهم . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر[1] ، فلا بد أن يكونوا قد عيروه بالإسلام . وأكبر الظن أنهم بدأوا هذه الحرب مع حركة التحنف التى ظهرت فى مكة

(١) أغانى ٤/١٣٨ .

قبيل الإسلام ، فنحن نجد زيد بن عمرو بن نفيل يفارق دين قومه وينظم شعراً يقاومهم فيه على وثنيتهم وآلهتهم[١] ، وأغلب الظن أنهم نقضوا هذا الشعر وعارضوه بشعر آخر نصروا فيه آلهتهم ووقّروها .

وإذا كانت نصوص هذا الشعر الدينى قد انمحت ، فقد بقيت نصوص أخرى غير دينية تدل على أن القوم استخدموا هذه الموهبة الفنية فى كل ما اتصل بحياتهم ، وفى نفس الموضوعات التى أثرت عن غيرهم من عرب الجاهلية . فنحن نجد لهم مديحاً[٢] وفخراً[٣] وغزلا[٤] ورثاء[٥] وعتاباً[٦] . وقصيدة قُتَيْلَة بنت الحارث فى بكاء أخيها النَّضْر وعتاب رسول الله على قتله بعد وقعة بدر ذائعة مشهورة ، وفيها تقول :

ما كان ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ ؟ وربما ... منَّ الفتى وهو المغيظُ المُحْنَقُ

فالنَّضْرُ أقربُ من أَسَرْتَ قرابةً ... وأحَقّهم إن كان عِتْقٌ يُعْتَقُ

ظَلَّتْ سيوفُ بنى أبيه تَنوشُهُ ... لله أرحامٌ هنـــاك تُشَقَّقُ

ويقال : إن رسول الله لما بلغته هذه القصيدة قال : « لو بلغتنى قبل

---

(١) ابن هشام ١/٢٤١ وما بعدها .
(٢) ابن سلام ص ٥٨ وابن هشام ١/١٨٤ (٣) أغانى ٩/٥٥ .
(٤) أغانى ٩/٤٧ وانظر ٩/٤٩ .
(٥) ابن هشام ١/٢٤٧ وكذلك ٣/٢٨ وما بعدها .
(٦) ابن هشام ١/٣٥٤ وما بعدها .

قتله لمنت عليه »[١] . ويدل نسج هذه القصيدة وصدقها فى التعبير والإفصاح عن اللوعة على مدى مابلغته المرأة القرشية فى العصر الجاهلى من إحسان للشعر . ووراء قتيلة نجد كثيرات ينسب إليهن شعر كبنات عبد المطلب[٢] ، وهند[٣] بنت عتبة زوج أبى سفيان ، وصفية[٤] بنت مسافر .

ومكة من هذه الناحية تتفوق على المدينة ، فإذا كان ابن سلام قد لاحظ أن الشعراء قليلون فى مكة ، وهى ملاحظة تناقَش فى ضوء ماقدمنا ، فإن الشاعرات كن كثيرات على هذا النحو . والحق أن مكة كان فيها شعر كثير . واستمرت هذه الموجة الحادة من الشعر والشعراء على مايظهر فى عصر صدر الإسلام ، أو بعبارة أخرى فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، واستمرت حين كانت المعارك بين مكة والمدينة ، واستمرت أيضاً بعد الفتح ، فإن مكة أسلمت متأخرة ، ولم تدخل فى الإسلام طائعة كما دخلت المدينة . ومن هنا كنا نظن أن استجابتها لأوامر الخلفاء الراشدين ونهيهم عن الهجاء والتشبيب بالنساء أضعفُ من المدينة . وإن كنا نلاحظ من طرف آخر أن دواعى الهجاء بين مكة والمدينة انتهت ، وأن هذه الدفعة المرة تلاشت ، ومع ذلك فالرواة يروون

---

(١) ابن هشام ٣/٤٤ . (٢) ابن هشام ١/١٧٩ وما بعدها .
(٣) ابن هشام ٣/٤٠ وكذلك ٣/٧٢ و ٣/٩٧ .
(٤) ابن هشام ٣/٤٢ .

أن ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبعرى « قدما المدينة فى عهد عمر بن الخطاب فقصدا أبا أحمد بن جحش الأسدى الضرير ، وكان الناس يجتمعون عنده ويتحدثون ، فقالا له : أتيناك لتجمع بيننا وبين حسان بن ثابت ، فإنه كان ينظم فى الإسلام ، وكنا ننظم فى الكفر ، ونريد أن نسمع منه ويسمع منا ، فأرسل إليه ابن جحش ، فجاءهم وعرض عليه ابن جحش أن يتناشد مع خصميه القديمين ما كانوا ينظمون من شعر قبل فتح مكة ، فَقبِلَ حسان ، وبدأ ضرار وعبد الله بن الزبعرى ينشدانه ، ويُسمعانه مما كانا يقولان فى هجائه وهجاء الأنصار والإسلام ، حتى إذا صار حسان يفور كالمِرْجَل خَلَّياه ، وركبا رواحلهما ، وانطلقا صوب مكة ، فخرج حسان ، يجر أذياله إلى عمر ، وقص عليه الخبر ، فأرسل فى طلبهما ، فرُدَّا إليه ، وقال لحسان : أنشِدْ ، فأنشد حسان حتى شفى نفسه ، ثم قال : شأنكما الآن ، إن شئتما فارحلا ، وإن شئتما فابقيا[١] » . ولعل فى هذا الخبر ما يدل على أن مكة لم تنس قديمها فى عصر الخلفاء الراشدين ، ونحن نلتقى فيها حينئذ بأبى دَهبل الجمحى ، وقد ترجم له أبو الفرج فى أغانيه . على أننا لا نتقدم فى العصر الأموى عصر المغنين والغناء ، حتى نجد مكة تموج موجا بالشعراء .

وكثير من المكيين هاجر إلى المدينة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد الفتح . وهذه هى الهجرة الأولى ، وهناك هجرة ثانية مع

---

(١) ابن سلام ص ٦٠ .

الفتوح الإسلامية فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، ولكن مع ذلك كله استمر لمكة شأنها القديم فى الشعر . ومن المعروف أن أكثر الهاشميين والأمويين نزحوا عنها . وبالرغم من ذلك نجد للأولين شاعراً مشهورا فى هذا العصر الأموى وهو الفضل بن العباس اللهبى ، كما نجد للآخرين شاعراً مشهوراً هو العَرْجى حفيد عثمان .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أنه إذا كان أكثر هذين البيتين الكبيرين قد هاجر من مكة ، فقد بقيت بيوت أخرى ، ورجع كثير ممن هاجروا إلى المدينة أو إلى الأمصار الإسلامية . وربما كان أهمُّ بيت بقى فى مكة ، أو على الأقل بقى أكثره هو بيت بنى مخزوم ، وكان لا يقل عن البيتين الأولين أهمية فى العصر الجاهلى ، ونبغ منه فى هذا العصر شاعران معروفان هما عمر بن أبى ربيعة والحارث بن خالد .

وبجانب ذلك نجد البيوت الأخرى تمدنا بشعراء ممتازين مثل ابن قيس الرقيات وأبى دهبل الجمحى . ومعنى ذلك أن الخيط الفنى القديم استمر ، وأخذت تتشعب منه فى هذا العصر الأموى عصر الغناء والمغنين خيوط وشعب كثيرة .

ونحن نلاحظ من طرف ثان أن مكة إذا كانت قد فقدت فى هذا العصر بعض البيوت وكثيراً من الأسر والشخصيات فإنها أخذت تكتسب عنصرا جديدا ، لم يكن مفقودا تماما قبل ذلك ، ولكنه يُعَدُّ على كل حال عنصراً جديدا ، ونقصد الموالى الذين أخذوا يتعلمون

العربية ، ويحاولون أن يتخذوها لسانهم وأداتهم فى التعبير . وكانت مكة فى الجاهلية تتجر فى رقيق إفريقيا ، وظهر من هذا الرقيق فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين شاعر حبشى هو عبد بنى الحسحاس . وإذن فالعنصر الأجنبى فى الشعر المكى عُرِف قبل الفتوح الإسلامية ، ولكن الذى نلاحظه الآن هو اتساع هذا العنصر ، ودخول أجانب جدد لاعهد للشعر العربى بهم . ونقصد هؤلاء الموالى من الفرس خاصة الذين جلبهم كبارُ الفاتحين من المكيين وغيرهم . وأشهر الموالى فى مكة حينئذ أبو العباس الأعمى وهو السائب بن فروخ مولى بنى الدئل .

وعلى هذا كان أهل مكة جميعاً فى العصر الأموى يصطنعون الشعر ، فهم يتخذونه مادة غنائهم ، وهم يسكبون فيه روحهم ومادة حياتهم . وأخذت مكة تنهض به تحت تأثير الغناء ، فلمعت أسماء وشخصيات كثيرة .

٢

الشعر الغنائى

كل من يعنى بالشعر العربى من أقدم عصوره إلى الآن يلاحظ فيه نوعاً من الشعر تُتَّخَذُ فيه رسوم وتقاليد خاصة من حيث البدء بوصف الأطلال ثم وصف الصحراء والإبل والانتقال من ذلك إلى الموضوع الخاص من مديح وهجاء . وقد شغلت قصيدة المديح الشعراء

منذ زهير إلى العصر الحاضر ، أما قصيدة الهجاء فإنها بلغت الذروة عند جرير والفرزدق والأخطل من شعراء بنى أمية فيما يسمى بالنقائض .

وبجانب هاتين القصيدتين الطويلتين للمدح والهجاء وما يتصل بهما من عتاب أو رثاء ونحو ذلك توجد مقطوعات قصيرة تُشْغَلُ بالحب عادة ، وقد تشغل بحماس أو رثاء أومديح أوهجاء . وأكثر هذه المقطوعات يدل بصورته على أنه لم يُقَلْ لينشد فى سوق عكاظ وغيرها من أسواق العرب ، وإنما قيل ليغنى ، إما فى الحرب وإما فى السلم .

وإذن فالشعر العربى تتميز فيه صورتان : صورة غنائية كاملة تتصل بالغناء مباشرة ، وصورة غنائية ناقصة لم يكن الغناء هو الأصل فى صنعها وإن كانت قد غُنِّيَتْ فعلا بعض مقطوعاتها . ومن الواجب أن نفرق دائما بين الصورتين فنسمى الأولى غنائية والثانية تقليدية ، لأنها استمرت بصورة واحدة ، وارتبطت بتقاليد كثيرة منذ كان يضعها زهير والنابغة وغيرهما من شعراء الجاهلية .

وإن من يرجع إلى نصوص الشعر التى أنشدها ابن هشام فى السيرة النبوية لأهل مكة فى العصر الجاهلى يلاحظ أن أكثرها من النوع الغنائى التام ، فهى فى جملتها مقطوعات ، وهى فى جملتها سهلة خفيفة على اللسان والأذن حتى ليقول ابن سلام : « أشعار قريش أشعار فيها لين ، يشكل بعض الإشكال[1] » . وأكبر الظن أن الإشكال الذى

(١) ابن سلام ص ٦٠ .

يقصد إليه ابن سلام هو أن أشعار قريش لا تجرى على صورة القصيدة التقليدية الطويلة التى عرفت عن شعراء العصر الجاهلى .

وفى رأينا أنه كان ينبغى لابن سلام أن يميز عند العرب وعند شعراء المدن خاصة بين نوعين من الشعر : نوع تقليدى يقوم على العناية الشديدة بفن القصيدة من حيث هى قصيدة فلها مقدمة شرعها أصحابُ فنِّ القصيد وهى مقدمة الأطلال و بكاء الديار المشهورة ثم لها بعد ذلك رسومها من حيث وصف الإبل والصحراء والانتهاء أحياناً بالحِكَم ، ونوع آخر لا تلتزم فيه كل هذه الرسوم والقواعد ، فأصحابه لم يبلغوا من الترف فى الزمن ، بحيث يستطيعون أن يعقِّدوا فنهم كل هذا التعقيد ، إنما هم أهل حياة يومية عاجلة ، لا تعطيهم الفرصة لكى يصنعوا القصيدة فى حول كامل ، كما كان يصنع زهير فى حولياته المعروفه[1] . ولنقارن بين حياة الملكى العادى فى الجاهلية وحياة رجل البادية ، فالأخير أمامه الفسحة الكافية من الوقت ليصنع قصيدته كما يريد ، فحياته كلها حياة رَعْيٍ ، وأوقاته كلها مِلْكٌ له ، أما رجل مكة فتاجر ، تلهيه التجارة عن أداء فروضه الدينية[2] ، فطبيعى أن تلهيه عن أداء الفروض الفنية المرسومة للقصيدة .

ومن هنا كان المفروض أن لاينجح فن القصيد فى مكة ، وإنما

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٣ وما بعدها .

(٢) فى القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم » .

ينجح فن المقطوعات والأبيات القليلة التى يعبر بها الشاعر عن حادثة تجرى فى حياته أو فى الحياة الواقعة تحت بصره . وقد وجدت فى مكة كما قدمنا بيوتٌ للغناء كان يغنى فيها القيان من مثل جرادتى عبد الله بن جُدْعان ، وقيان الحارث بن النَّضْر ، فإذا قلنا بعد ذلك إن مكة عرفت الشعر الغنائى التام منذ العصر الجاهلى لم نكن مبالغين ، فمن حيث المادة ، وهى المقطوعات القصيرة ، كانت المادة وافرة ، ومن حيث الغناء كان الغناء وافراً أيضاً .

وربما كان من أهم الأدلة ، التى تقطع بما نزعم ، أن هذه المقطوعات المكية التى يرويها ابن هشام فى سيرته تكثر فيها الأوزان الخفيفة من مثل الهزج (١) والمتقارب (٢) ، بل إننا نجد فيها كثيراً من مجزوءات الكامل (٣) والهزج (٤) والرجز (٥) . ولا ريب فى أن هذه ظاهرة تتصل بالغناء مباشرة ، إذ من شأن التلحين أن يؤثر فى موسيقى الشعر وأن يقصِّر فيها ويمد فتتم تغيرات وتحريفات كثيرة . وأيضاً فإن تاريخ الشعر العربى كله يدل على أن الأوزان الخفيفة إنما تشيع تحت تأثير الغناء ، حدث ذلك فى العراق أثناء العصر العباسى ، وحدث ذلك فى الأندلس أيضاً ، فإذا رأينا بذور هذه الظاهرة واضحة فى مكة منذ العصر الجاهلى آمنّا بأن

(١) ابن هشام ٣/٣٥ وكذلك ص ٧٢ ، ٨٢ .
(٢) انظر ٣/٤٠ وهذا البحر كثير جداً فى شعر السيرة .
(٣) ابن هشام ٣/٤١ .
(٤) ابن هشام ٣/٤٢ .
(٥) ابن هشام ٢/١٤٥ .

تأثيرات مشابهة كانت هناك . وهذا إذا لم تصلنا نصوص توضح ما كانت عليه مكة حينئذ ، أما إذا وصلتنا نصوص تؤكد وجود دُورٍ للغناء فإن الأمر يختلف ، وأظننا لم ننس بعد هذه الجوقة الكبيرة التى صاحبت جيش مكة فى غزوة أحد ، وكانت تتألف من بعض نسوة قريش ، فكن يضربن على الدفوف ، وكانت هند بنت عتبة تغنى أثناء هذا الضرب والعزف بمقطوعات مختلفة ، من مثل :

إن تُقبلوا نعانقْ ونفرش النمارقْ
أو تدبروا نفارق فراقَ غير وامقْ (١)

ومعنى ذلك أن مكة عرفت فى الجاهلية الشعر الغنائى فى السلم والحرب ؛ بل أظننا لا نغلو إذا قلنا إنها لم تكد تعرف الشعر التقليدى إلا فى مواسم الحج وفى سوق عُكاظ حين كان ينشد شعراء البادية شعرهم ، وإلا حين اصطدمت بشعراء المدينة فى عهد الرسول من مثل حسان بن ثابت وكعب بن مالك . ومع ذلك فإنها لم تثبت لحسان ولا لكعب فيما يظهر ، لسبب بسيط ، وهو أنها لم تكن تحسن هذا النوع من الشعر التقليدى ، إنما كانت تحسن الشعر الغنائى الذى لا يحتاج إلى تقاليد فنية كثيرة ، والذى لا يتعب فيه صاحبه . وربما كان من الأدلة المهمة على أنها كانت تحسنه أنها استطاعت أن تطوِّع لغة الشعر للغناء بحيث يلاحظ فى شعرها ابن سلام هذا اللين الذى يشير إليه ، والذى دعاه

(١) طبرى ١/١٤٠٠ :

أن يقول : إن شعر مكة يشكل بعض الإشكال . وأظن أنه لم يعد يشكل علينا هذا اللين الآن ، لأننا فهمنا مصدره وعرفنا علته وسببه .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أن مكة ، كانت مُعَدَّةً منذ العصر الجاهلى لشيوع الشعر الغنائى فيها ، فهى من هذه الناحية تتقدم المدينة ، كما تتقدم بيئات الشعر العربى الأخرى فى العصر الجاهلى . ونحن نعرف أن أهم الموضوعات التى دار عليها الشعر الغنائى فى العصر الأموى عند عمر بن أبى ربيعة وأصحابه هو الغزل وقصة الحب : حياته ووقائعه وموته . ويظهر أن هذه الظاهرة نفسها قديمة ، بل إن ما طَبَعَ غزلَ ابن أبى ربيعة وأصحابه من حرية وإباحية يظهر أيضا أنه كان معروفا منذ العصر الجاهلى ، فنحن لا نتقدم فى مكة إلى أواخر هذا العصر حتى نجد عبداً أسود نوبيا يشتهر بالشعر ، وكان مولى لبنى الحسحاس ، وهم بطن من بنى أسد ، ولذلك يسمى عبد بنى الحسحاس واسمه سُحَيْم . وكان يصنع الشعر فى مقطوعات ، أو بعبارة أخرى كان يصنع هذا الشعر الغنائى ، وكانت فيه لُكْنة أعجمية ، فكان إذا أنشد الشعر يقول أهشنت والله ! . والطريف أنه كان ينظم هذا الشعر فى الغزل المادى المكشوف الذى شاع فيما بعد عند ابن أبى ربيعة وأصحابه . ويقول أبو الفرج : إنه عاش إلى عصر الخلفاء الراشدين ، وقُتِل بسبب شهواته وملذاته وحديثه عن المرأة[1] . ومعنى ذلك أن الغزل المادى الذى كان أهم موضوعات

(١) أغانى ٢/٢٠ وما بعدها .

الشعر الغنائى فى العصر الأموى وجد عند شاعر قديم ، وقد كان فى صورة أفزعت الناس ، فهى أشد عنفا من صورة الغزل المادى الذى اشتهر به ابن أبى ربيعة وأصحابه ، ولذلك رصده الناس وقتلوه .

وليس من ريب فى أن هذا يدل على أن الشعر الغنائى الذى شاع فى مكة أثناء العصر الأموى له بذور ومقدمات قديمة فيها ، فهو ليس شيئاً حادثاً أحدثه عمر بن أبى ربيعة وأصحابه ، إنما هو شىء قديم يتصل بالبيئة منذ العصر الجاهلى وما كان فيها من موسيقى وغناء .

ولا نكاد نتقدم بعد عبد بنى الحسحاس حتى نجد فى أواخر عصر الخلفاء الراشدين شاعراً مميَّزاً يظهر فى مكة ، وهو أبو دَهْبَل الجُمَحِى ، ويقول أبو الفرج إنه من أشراف قريش ، وكان يحمل الحمالات والديات ، ويعطى الفقراء ، ويَقْرِى الضيف[1] ، ويتقدم أبو الفرج فى ترجمته ، فيروى أشعاره ويقص أخباره .

وما نلم بهذه الترجمة حتى نشعر بتمام المشابهة بين أبى دهبل وبين شعراء العصر الأموى من مثل عمر ، فأكثر شعره مقطوعات ، أُرِيد بها إلى الغناء لا إلى الإنشاد ، وليس فيها هذا الجمود عند الأطلال وبكاء الديار ، وإنما فيها وصفُ قصة الحب وما يرتبط بها من عُذّال ووُشاة وتباريح وآلام ، وفيها بجانب ذلك تصويرٌ لأحاديث النساء ومجالسهن على نحو ما نجد عند ابن أبى ربيعة .

---

(١) أغانى ٧/١١٦ .

وليس هذا كل ما يميز شعر أبى دهبل ، فنحن نجده يمتاز بنفس الظاهرة القديمة التى أشار إليها ابن سلام ظاهرة اللين والسهولة . وهى طبيعية كما قدمنا ، لأن شعراء قريش فى الجاهلية والإسلام جميعاً لم يكونوا يريدون بشعرهم التعبير عن التقاليد الفنية فى أروع صورها كما نجد عند أصحاب المعلقات مثلا ، إنما كانوا يريدون التعبير عن عواطفهم فى يسر وسهولة وقرب من مألوف الناس فى لغتهم اليومية .

وعاش أبو دهبل حتى عصر ابن الزبير ، إذ نرى فى شعره مديحا لابن الأزرق المخزومى واليه على اليمن[1] . ومعنى ذلك أن خيوط الشعر الغنائى فى مكة امتدت من الجاهلية إلى العصر الأموى عن طريق عبد بنى الحسحاس وأبى دَهْبَل الجمحى . فليس الشعر الغنائى إذن الذى شاع وذاع فيما بعد عملا مبتكراً من أعمال العصر الأموى ، ولا ظاهرة جديدة منبتة الصلة بالماضى كما كان يتصور بعض الباحثين ، بل هو امتداد واستمرار لظاهرة قديمة .

وكل ما يمكن أن يلاحظ من جديد إنما هو اتساع موجة هذا الشعر اتساعا شديداً تحت تأثير الغناء والموسيقى التى أصبحت لهوَ الناس وملء أوقاتهم على نحو ما صورنا ذلك فى فصل الغناء . وأيضاً فالشعر الغنائى القديم لم يكن يُغَنَّى بهذه الرقُم الموسيقية (musical notes) التى استحدثها المغنون فى العصر الأموى والتى سبق أن عرضنا لها

(١) أغانى ٧/١١٤ ، ٧/١٢٨ ، ٧/١٣١ وما بعدها .

مما نجده منتشرا فى صفحات كتاب الأغانى من مثل : ثقيل أول وثقيل ثان وخفيف ثقيل ورَمَل وخفيف رمل ، لسبب بسيط ، وهو أن هذه الرقم ظهرت لأول مرة فى العصر الأموى تحت تأثير هذه الحركة النشيطة التى قام بها الموالى ، فبديهى أن لا يُغَنَّى الشعر القديم على ألحانها ، لأنه سابق لظهورها .

وإذن فنحن نستطيع أن نميز فى تاريخ الشعر الغنائى المكى بين عصرين منفصلين : عصر كان يُغَنَّى فيه هذا الشعر ولكن لا على نظرية خاصة ، أو على الأقل لم يكن يُغَنَّى حسب هذه النظرية الجديدة التى وضعها المغنون من مثل ابن مِسْجَح وابن سُرَيج والغَرِيض ومن لف لفهم ، وإن كان يغنى على كل حال بألحان ، ولكنها لم تكن تخضع لنظرية معينة ، وإنما كانت تخضع لأذواق المغنين حسب أمزجتهم وميولهم . واستمر هذا العصر من الجاهلية إلى أن كان زمنُ بنى أمية وعَمِلَ نقلُ الحضارات الأجنبية إلى الحجاز عمله . فتراءت أضواء عصر ثان هو عصر الشعر الغنائى المكى المؤلف على نظرية الغناء التى تنتهى أسانيدها فى كتاب الأغانى إلى مغنى العصر الأموى فى الحجاز . ومعنى ذلك أنهم هم الذين أحدثوها من عندهم وتحت تأثير رقى الغناء العربى فى عصرهم .

وهذا العصر الثانى هو عصر النهضة الحقيقية للشعر الغنائى المكى وقد لمعت فيه شخصيات كثيرة على رأسها ابن أبى ربيعة وابن قيس

الرُّقَيَّات ممن كتبوا شعرهم تحت تأثير هذه النظرية الغنائية الجديدة .

وقد أخذت تتسع الفروق بين هذا الشعر الغنائى الجديد ، والشعر الغنائى القديم . ولعل أول ما يلاحظ من هذه الفروق شدة الالتحام بين المغنين والشعراء ، وبذلك أصبح الشعراء يعيشون معيشة فنية غنائية خالصة . ولنضرب لذلك مثلا ابن أبى ربيعة ، فأخباره فى كتاب الأغانى دائما تتصل بالمغنين والمغنيات ، وكان يلزمه ابن سريج[١] والغريض[٢] يغنيانه فى شعره ، وكان عنده فى البيت جاريتان تقومان له بما يقوم به ابن سريج والغريض وهما بَغوم وأسماء[٣] . ويروى أبو الفرج كثيراً أنه ذهب إلى المدينة ليستمع إلى بعض شعره يُغَنَّى فى دار جميلة[٤] . ولعل من الطريف أنه كان إذا أراد أن يرسل ببعض شعره إلى بعض صواحبه أرسل به مع المغنين من مثل بُدَيْح المليح[٥] والغريض[٦] .

وهذا كله معناه أن ابن أبى ربيعة حين كان يصنع أشعاره كان يصنعها تحت تأثير هؤلاء المغنين والمغنيات ، أو بعبارة أخرى تحت تأثير النظرية الجديدة للغناء . ولم يكن هذا شأن عمر وحده ، وإنما كان شأن بقية الشعراء المكيين من مثل ابن قيس الرقيات والعَرْجى ، فقد كانت حياتهم

---

(١) انظر أغانى طبع دار الكتب ١/٢٥٨ وما بعدها .
(٢) أغانى ٢/٣٩٥ .
(٣) ١/١٦٥ .
(٤) أغانى ٨/٢٠٦ .
(٥) أغانى ١/٨٨ .
(٦) أغانى ٢/٣٧٦ .

متحضرة ، وكانوا يعيشون للشعر والغناء وهذا الترفِ الذى أصاب المكيين فى العصر الأموى .

ونستطيع بذلك أن نفهم كيف أن عمر لم ينزع عن الغزل ومقطوعاته إلى الشعر التقليدى من مديح أو هجاء ، فقد كان ثريًا ، ولم يكن فى حاجة إلى أموال الخلفاء ، وكان يعيش هذه المعيشة الفنية الخالصة التى تقوم على الغناء والموسيقى والشعر ، فبديهى أن لاينزع عن حكاية عواطفه ، وأن يستغرق الحب شعره وخواطره .

وارجع إلى ديوان ابن أبى ربيعة ، فستجده كله يشغل بالغزل ، وستجد عمر يتيح لهذا الفن تحت تأثير الغناء كل ما يمكن أن يصل إليه من رقّ وازدهار . وحقا وجد فى مكة من شَغَلوا أنفسهم بالمديح ، ولكنهم كانوا أقلية ، وكانوا غالباً من الموالى مثل أبى العباس الأعمى الذى كان يتشيع للأمويين ، وقلما وجدنا قرشيًا يعنى بالمديح سوى ابن قيس الرقيات . على أن هذا المديح كان عارضاً فى فنه ، ولذلك كان مديحه أناشيد غنائية ، مما سنعرض له فيما بعد .

إنما المهم أن نلاحظ الآن أن مكة عُنِيَتْ عناية بالغة بالشعر الغنائى فى العصر الأموى ، وأن بعض الشعراء أخذ يتخصص فى هذا الفن ، لا يتعداه إلى غيره من ضروب الشعر التقليدى . وما للمكيين والشعر التقليدى وما يرتبط به من مديح وهجاء ؟ فقد أصبحوا مترفين ، وأصبحوا ينعمون بألوان وفنون من الحضارة أزالت ما فى

نفوسهم من وحشة وقسوة وخصومة وحِدَّة ، وهيأتهم لهذه المعيشة الفنية الخالصة من الشعر والغناء والموسيقى . فطبيعى أن لا يُغنَوا إلا بالشعر الغنائى وأن يكون كل حياتهم وكل فنونهم وكل مواهبهم وكل حواسهم وخواطرهم .

٣

خصائص ومميزات فى الشعر الغنائى

نزل من يستعرض الشعر الغنائى عند العرب فى جميع عصوره من مقطوعات المكيين فى الجاهليّة إلى موشحات الأندلسيين وأزجالهم يجد الحبَّ أهم الموضوعات التى تناولها هذا الشعر . وحقًّا تناول موضوعات أخرى كالحماسة والمديح والفخر والهجاء ، ولكن ليس ذلك هو الغالب عليه ، إنما الغالب عليه هو النسيب والغزل .

ونحن لا نصل فى مكة إلى عصر هذه النظرية الغنائية حتى نجد أصحاب هذا الشعر الغنائى يكادون يقصرون أنفسهم وشعرهم على الحب وحكاية حوادثه ووقائعه ، فقد أصبح الغزل الموضوع الأساسى الذى يعالجه الشاعر الغنائى . وديوان عمر بن أبى ربيعة خير مثال يصور هذا الجانب ، فليس فيه إلا غزل وتشبيب وتصوير لهذه العاطفة الإنسانية الخالدة عاطفة الحب .

وليس هذا كل ما يميز الشعر الغنائى عند عمر وأصحابه ممن عاشوا فى

هذا العصر ، عصر النظرية الغنائية ، فمن أهم ما يميزه أن فكرة القصيدة كادت تختفى منه إلا قليلا ، لسبب بسيط ، وهو أن الشاعر لم يكن يريد أن يصنع شعراً لحسب ، وإنما كان يريد أن يصنع شعراً يُغَنَّى ، ومن طبيعة الغناء أنه لا يحتاج إلى قصائد طويلة ، فحسبُ المغنى أن يغنى طائفة قليلة من الأبيات يُحْسِن تنغيمها وتلحينها . واشتهر ابن محرز بأنه أول من غَنَّى بزَوْجٍ من الشعر ، ثم اقتدى به المغنون[1] .

وما من شك فى أن هذا الذوق كان له تأثيره على الشعراء فلم تعد هناك حاجة لكى ينظموا قصائد ، فالمغنون لا يغنون قصائد ، وإنما يغنون مقطوعات ، ثم هم يكتفون من المقطوعات بالأبيات القليلة ، بل بالبيتين ، فحسب الشاعر إذن أن يصنع البيتين والثلاث .

ومع ذلك فقد تطول المقطوعة عنده ، ولكنها على كل حال لا تصبح قصيدة بالمعنى المألوف فى الشعر التقليدى عند زهير والنابغة فى العصر الجاهلى أو عند جرير والفرزدق فى العصر الأموى ، وإنما تصبح مقطوعة طويلة إن صح هذا التعبير . وهى مقطوعة تبدأ بالحب وتنتهى بالحب .

ليست المقطوعة الغنائية ، وإن طالت وأصبحت قصيدة ، منوّعةَ الموضوعات كالقصائد التقليدية ، بل إن المقدمة المعروفة فى القصائد التقليدية ، مقدمة الأطلال والديار نجدها تختفى فى المقطوعة الغنائية وفى

(١) أغانى ١/٣٧٩ .

القصيدة الغنائية لسبب بسيط ، وهو أن حياة أصحاب هذه القصيدة لم تكن حياة تنقّلٍ فى البادية ، إنما كانت حياة استقرار فى المدينة ، فلم تعد هناك حاجة عند الشاعر ولا عند من يخاطبهم لكى يبكى لهم ديار حبيبته ، و يصف أطلالها وما يجوس خلالها من حُمُرِ الوحش .

ومن هنا اختفت المقدمة التقليدية ، مقدمة بكاء الأطلال والديار من الشعر الغنائى ، وأصبح هذا الشعر لا يعالجها إلا على سبيل الفكاهة ، وفى الحين البعيد بعد الحين . فقد أصبح الشعرُ شعرَ مدنٍ واستقرار ، وأصبح الشاعر لا يتناول فيه حوادث ماضية مع بعض أحبائه اللاتى تركهن فى بعض المراعى ، ثم عاد فلم يجدهن ، و إنما يتناول حوادث حاضرة كانت تحدث له مع صواحبه فى المدينة أو فى ضواحيها ، وهو لذلك يمكن أن يسمى شعراً يوميًّا ؛ ففيه يقص الشاعر حوادثه اليومية مع من شغفن قلبه حباً ، وما وقع له معهن من وقائع ، وما دار بينه و بينهن من أحاديث .

وقوام هذه الأحاديث وصف الحب نفسه ولوائحه وآلامه وما يرصد المحبين من عُذَّال ووشاة ، وهو وصف صريح ، فيه مادية تقل وتكثر حسب الشاعر ، وحسب السيدة التى يتغزل بها ، وماذا تريد من شعراء متحضرين سادت فى مجتمعهم ضروب من الحرية ؟ إنهم لا بد أن يفصحوا فى صراحة عن خلجات قلوبهم ، وكل ما ينطوى فى أفئدتهم ، أو يرتفع فى حواسهم .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لماذا كان طابع الشعر الغنائى عند عمر بن أبى ربيعة وأصحابه طابعاً ماديًا مكشوفاً . فهم شباب مترف أترفته الحضارة الأجنبية التى غرق فيها إلى آذانه ، وأترفت ذوقه وشعوره ، كما أترفت ذوق الفتيات المكيات وشعورهن ، فانطبع المجتمع بطوابع من الحرية التى نجدها دائما فى المجتمعات المتمدينة . وينبغى أن نفرق دائما بين الحرية و بين الفساد الخلقى ، فمجتمع مكة لهذا العصر عصر النظرية الغنائية أو العصر الأموى كانت تسوده ضروب من الحرية ، ولكن لم تكن تسوده ضروب التحلل الخلقى كما قد يتراءى لمن يقرأ أخبار عمر بن أبى ربيعة وما نسجه خيال الرواة من مبالغات .

ومهما يكن فقد دار هذا الغزل أو هذا الشعر الغنائى حول تصوير الحب فى صراحة وفى حرّية ، فالشعراء يصورون حياتهم الفارغة إلا من هذا الحب وما يجدون فيها من وَصَبٍ وعذاب لا يتكلفون حشمة ، ولا يصطنعون ضرباً من ضروب الوقار .

وينبغى أن نلاحظ أن هذا المجتمع المكى حينئذ كان مليئاً بالجوارى الأجنبيات ، وكان الشعراء يتغزلون فيهن ، فطبيعى أن لا يتكلفوا حشمة ولا يصطنعوا وقاراً حين يقعون فى غرام بعضهن ، وحين يلتقون بهن فى دور الغناء أو فى دور الرقيق .

ونستطيع أن نلخص حياة المكيين حينئذ بأنها شبابٌ مترف ، وجوار أجنبيات من كل جنس وكل لون ، وحضارةٌ وثراء . وهذا كله

أعد إعداداً لهذا الغزل الصريح الذى تحولت بعض جوانبه إلى ما يمكن أن نسميه غزلا مكشوفاً أو غزلا إباحيًا ، فالحياة المتحضرة هى نفسها الحياة المتحضرة فى كل أمة وفى كل مدينة .

وإذا تركنا الموضوع الذى عالجه هذا الشعر الغنائى إلى لغته لاحظنا أنه لا يساق فى عبارة ضخمة غير مألوفة ، وإنما يساق فى عبارة عادية . واقرأ فى ديوان عمر أو فى ديوان ابن قيس الرقيات فإنك تجد لغة قريبة منك كأنما كتبت بالأمس ، فليس فيها صعوبة ولا غرابة ، ولا تكلف للفظ ولا لعبارة . وهذا من أهم ما يميز الشعر الغنائى فى جميع عصوره ، فهو شعر لم يكتب لطبقة أرستقراطية فى الأدب ، وإنما كتب للشعب وللعامة ، ومن أجل ذلك لا يعدل صاحبه إلى لغة الأدب الرفيعة ، وإنما ينطلق مع اللغة الشعبية ، فهو أدب شعبى إن صح هذا التعبير .

واستعرض النصوص المختلفة التى يروى أبو الفرج أنها أُلِّفَتْ فى مكة أثناء العصر الأموى ، فإنك تجدها دائما خفيفة ، فالشاعر كان يتخذ لغته غالبا من الحديث الشعبى حتى يخاطب القلوب مباشرة وكأنه كان يريد بشعره غاية شعبية ، أو بعبارة أخرى كان يريد أن تحمله أفواه الجماهير وأن تتقبله آذانهم ، وأن يدور فى مجالسهم وأحاديثهم ، لأنه من جهة قريب منهم فى لغته ، ثم هو من جهة أخرى مصوِّر لحياتهم اليومية وحياة شعرائهم التى تجرى تحت أعينهم ، فهو كالمرآة الصادقة ، يستبين فيها المكىّ تقاسيم عواطفه ووجداناته .

ولا نعجب بعد ذلك إذا رأينا ابن سَلاَّم يلاحظ على الشعر المكى فى الجاهلية لِينًا ، فتلك صفة استمرت فيه من الجاهلية إلى العصر الأموى ، عصر عمر بن أبى ربيعة وأصحابه ، لسبب بسيط ، وهو أن هذا الشعر كان شعر مدينة اتصلت قديما بالغناء ، وأريد لشعرها أن يُغَنَّى وأن تحمله أفواه الناس الذين كانوا يعيشون مع الشعراء هناك . وما من شك فى أن هذه الظاهرة ، ظاهرة اللين ، أخذت تتسع ، أو قل أخذ سلطانها يتسع بعد العصر الجاهلى ، بحكم هذا التطور الذى أصاب مكة تحت تأثير العناصر الأجنبية التى ملأت شعابها ودورها . وبون بعيد بين مجتمع مكة فى الجاهلية ومجتمعها فى العصر الأموى ، فقد غلبت عليه فى العصر الأخير العناصر الأجنبية من فارسية ورومية وأخذ يُطْبَعُ بطوابع غريبة عنه . وبديهى أن الذين كانوا يعيشون فى مكة حينئذ لم يكونوا يحسنون من العربية ما كان يحسنه أسلافهم القدماء ، فقد تحضروا واختلطوا بموال من أمم مختلفة ، وعاشروهم ، وعاشوا معهم فى دورهم وقصورهم . وطبيعة الحياة اللغوية وما يحدث فيها عادة تحت تأثير مثل هذه الظروف ، تجعلنا نجزم بأن لغة المكيين تطورت حينئذ ، وأنها اتخذت سُبُلا مختلفة إلى السهولة والبعد عن الغرابة .

ولعل هذا ما جعل اللغويين ينفرون من الاستشهاد بأشعار المكيين من مثل عمر وابن قيس الرقيات ، فقد كانوا لا يوثّقونهم ،

ولا يعدونهم فصحاء[1] ! لهذا الاختلاط بالأعاجم الذى صاروا إليه .
وليس من شك فى أن هذا الشعر الغنائى الذى كان يريد أصحابه لمجتمعهم أن يحمله وأن تدور به ألسنته وتتقبله آذانه كان يُصْنَع بحيث يلائم هذا المجتمع الجديد وما فيه من عناصر أجنبية . وأظن أننا لم ننس ما قلناه فى الفصل السابق من أن الذين نهضوا بالنظرية الغنائية عند العرب كانوا من الأجانب مثل ابن مسجح وابن محرز وابن سريج والغريض ، فطبيعى أن يؤلف لهم عمر وأصحابه الشعرَ الذى يغنُّون فيه من لغة سهلة دانية منهم ، يستطيعون أن يفهموها فى يسر وبدون مشقة .

ومعنى ذلك أن عوامل كثيرة تضافرت على أن تصبح لغة الشعر الغنائى المكى فى العصر الأموى لغة قريبة من حديث الناس المألوف ، فيها لين ، وفيها عذوبة ورقة ، وفيها هذه الشفافية لا عن الفكر الذى تؤديه بل عن القلوب نفسها التى تعبر عنها . فقد رفع الحجاب بين اللغة والقلوب التى تؤدى عنها من جهة ، كما رفع الحجاب بين هذه اللغة وبين القلوب التى تخاطبها . فهى لغة من محيطهم ، محيط أحاديثهم الشفوية ومحيط أحداثهم ووقائعهم اليومية . ومن هنا كنا نجد متعة لا تقدر فى قراءة هذا الشعر الغنائى المكى ، إذ يعبر عن كل ما فى نفس صاحبه تعبيراً صافياً فيه واقعية إلى أقصى حد ممكن ، وفيه قرب من قصة القلب الإنسانى العام أيضا إلى أقصى حد ممكن .

---

(١) أغانى ٥/٨٨ .

وإذا انتقلنا إلى موسيقى هذا الشعر ، لاحظنا فيها أيضاً ما لاحظناه فى لغته ، فهى موسيقى شفافة لا تحجب شيئا مما وراءها ، بل إنها تأتى لتكمل التعبير مع المعانى التى تحملها ، وهى موسيقى شعراء متحضرين قد أترف ذوقهم وأترف شعورهم ، ولذلك لا نحس فيها بشذوذ فى نغمة ولا بخدوش فى نبرة .

وأصبح المثل الأعلى عند هؤلاء الشعراء أن تكون أوزانهم سهلة خفيفة حتى تتلاءم وهذا الغناء الجديد وما يُطْوى فيه من ألحان ، وكان الناس يستهويهم الغناء الخفيف ، وقلما أعجبوا بالغناء الكامل التام . واشتهر ابن سُرَيج أهم المغنين فى مكة بأنه يحسن هذا الضرب من الغناء[1] إحساناً شديداً ، فإذا عرفنا أن ابن سريج كان يلزم عمر بن أبى ربيعة ، يلحّن له شعره ويغنيه عرفنا إلى أى حد كان له أثر فى عُمَر وشعره . ويقول أبو الفرج : إن ابن سريج كان يميل فى غنائه إلى الأرمال والأهزاج[2] . وليس من شك فى أن هذا هو السبب الصحيح فى أن هذين الوزنين اللذين يندمجان اندماجا تاما فى هذه الألحان وهما الرمل والهزج يكثران فى ديوان عمر كثرة مفرطة ، كما تكثر الأوزان الخفيفة من مثل المتقارب والمديد والوافر والخفيف والرجز . وكل ذلك ليلائم بين شعره والمغنين من حوله وما يطلبونه لتلحينه ، ولم يكن ابن

(١) أغانى ١/٦٨ .
(٢) أغانى ١/٢٧٦ وانظر ٤/٢١٩ وكذلك ٦/٢٨٣ .

سريج وحده الذى يطلب الغناء الخفيف ، فقد كان الغريض مثله[1] . و إذن فالمغنيان الكبيران اللذان لازما عمر وغنّيا له شعره ولحناه كانا يميلان إلى الغناء الخفيف ، فلا عجب إذا وجدنا ديوانه بعد ذلك يمتاز بظاهرة الموسيقى الخفيفة والأوزان السهلة القريبة .

وليس هذا كل ما يلاحظ من تأثير للمغنين والغناء على الشعر والشعراء فى هذا العصر ، فنحن نظن ظنًّا أن الشعر حدثت فيه تعديلات كثيرة فى أوزانه تحت تأثير نظرية الغناء الجديدة . ولنتصور الآن أن الملحنين عندنا والمغنين يسعون جادّين إلى إحداث نظرية غنائية جديدة فيها أثر للألحان الأجنبية ، أليس ذلك يتطلب من الشعراء جهداً حتى يلائموا بين أوزان شعرهم وهذه النظرية الجديدة ؟ وأقصر ما فى المسألة وأقلها خطراً أن المغنين من شأنهم أن يمدّوا فى حروف بعض التفعيلات أو يهمسوا ، وهذا من شأنه أن يحدث تغييراً طفيفاً أو كثيراً فى موسيقى المقطوعة التى يغنونها ، وما دام الشعراء كانوا يعيشون معهم مختلطين ممتزجين كما قدمنا ، فلا بد أنهم كانوا حين يلاحظون ذلك يأتون لهم بمقطوعات جديدة تتلاءم وما يريدون من مدّ وهمس أو تطويل وحذف .

وقد وضع الخليل ابن أحمد فى عروضه اسمين لمثل هذه التغييرات هما : الزحاف والعلل ، وما نشك فى أن هذه الزحافات والعلل إنما تمت تحت تأثير ضروب من الغناء فى الجاهلية والإسلام جميعا ، غير أنها اتسعت الآن

---

(١) أغانى ١/٢٧٦ .

بحكم هؤلاء المغنين من الأجانب ونظريتهم الغنائية الجديدة .

ولم يكتف الشعراء بهـذه التغييرات الداخلية فى الأوزان ، بل اتجهوا إلى عمل آخر يتضح فى شعر عمر وغيره من المكيين هذا العصر ، وهو الحذف فى تفاعيل الوزن ؛ ومن هنا كثرت المجزوءات لا فى الأوزان الطويلة المعقدة فحسب ، بل أيضا فى الأوزان الخفيفة السهلة من مثل الرجز والخفيف والمديد والرمل والمتقارب والهزج ، فكل هذه الأوزان نجد مجزوءاتها منبثة فى شعر المكيين أثناء العصر الأموى .

وتم ذلك كله تحت تأثير الغناء وهذا الالتحام الشديد بين المغنين والشعراء من جهة ، ثم بين الغناء والشعر نفسه من جهة أخرى . وليست لدينا معلومات واضحة عن مدى معرفة عمر وابن قيس الرقيات والعَرْجى وأضرابهم لنظرية الغناء التى عاصرتهم ، ولكن على كل حال هذه المعرفة ليست ضرورية ، فيكفى أن يوجههم المغنون لما يريدون . ومع ذلك فنحن نجد من معاصريهم شاعراً يسمى الدارمى يقول أبو الفرج عنه : إن له أصواتا يسيرة ، وقد روى له صوتا من المائة المختارة لهرون الرشيد وهو قوله :

أَفِقْ يادارمىّ فقد بُليتا وإنك سوف توشك أن تموتا
أراك تزيد عشقاً كل يوم إذا ماقلتَ إنك قد بَريتا[1]

(١) أغانى ٣/٤٤ وما بعدها .

والصوت من وزن الوافر . وليس من شك فى أن الدارمىّ هذا يُعَدُّ مثلا طريفا للشعراء المكيين ومدى تأثرهم بالغناء الجديد ، فهو يسعى إلى تعلمه ، كى ينظم شعره حسب ما يريد من ألحان ، أو كى يقع من المغنين فى عصره موقعاً حسناً فيغنّوه ، ويتيح له ما يريدون من ألحان وأنغام .

وعلى هذا النحو كان أصحاب الشعر الغنائى يجددون فى أوزانهم تحت تأثير النظرية الجديدة للغناء ، وقد رأوا أن يختاروا للمغنين أوزانا أكثر بساطة وأكثر ألفة ، فعمدوا إلى الأوزان السهلة الخفيفة ، ولم يكتفوا بذلك بل غيروا فى مَدِّ حركاتها وتقصيرها عن طريق الزحافات والعلل ، ولم يكتفوا بذلك أيضاً ، بل ذهبوا يجزّئون فيها ويعدّلون حتى تحمل كل ما يريد المغنون لها من إيقاعات وأنغام وألحان .

٤

فتنة المكيين بالشعر والغناء

إذا قرأنا فى كتاب الأغانى الأخبار التى يسوقها عن المكيين فى هذا العصر شعرنا كأنما كانت هناك خيوط محكمة تصل بين قلوبهم جميعا وبين قلوب شعرائهم الذين انطلق المغنون يغنون فى أشعارهم ، ويخيل إلى الإنسان كأنما أصبح الشعر الغنائى شُغْلَ الناس الشاغل ، فهم يملأون به أفواههم وأسماعهم وأوقاتهم ، يشترك فى ذلك الرجل ، والمرأة ، والفتى ، والفقير ، والحر ، والمولى ، والعابث المستهتر ، والعابد الورع . فقد تحولت مكة إلى شعر وغناء ، واحتدّت الموجة فشملت النساك والفقهاء

من أمثال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح وابن جُرَيْج . قال أبو الفرج :

« بينا ابن عباس فى المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناسٌ من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبوغين مُوَرَّدين أو مُمَصَّرَين ، حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس ، فقال : أنشِدْنا ، فأنشده :

أمن آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرُ　　غداةَ غـدٍ أم رائحٌ فمُهَجِّرُ

حتى أتى على آخرها . فأقبل عليه نافع بن الأزرق ، فقال : اللهَ يا ابن عباس ! إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد ، نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مُتْرَف من مترفى قريش ، فينشدك :

رأتْ رجلاً أما إذا الشمسُ عارضتْ　　فيَخزَى وأما بالعشىّ فيخسَرُ

فقال ابن عباس : ليس هكذا قال ، قال : فكيف قال ؟ فقال : قال :

رأتْ رجلاً أما إذا الشمسُ عارضتْ　　فيَضْحَى وأما بالعشىّ فيخْصَرُ (١)

فقال ابن الأزرق : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ! قال : أجل ، وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها ، قال : فإنى أشاء ، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها ... ثم أقبل على عمر بن أبى ربيعة ، فقال أنْشِدْ ، فأنشده :

---

(١) يضحى : يظهر للشمس ، يخصر : يبرد .

تَشطُّ غَداً دارُ جيراننا وللدارُ بعد غَدٍ أبعدُ

وكان ابن عباس بعد ذلك كثيرا ما يقول : هل أحدث هذا المغيرىّ شيئاً بعدنا[١] » . وإذا كان ابن عباس مع جلاله ووقاره ومجلسه فى الدرس بين سائليه من فقاء العراق وفقهاء الخوارج يتركهم ليستمع إلى ابن أبى ربيعة وما أحدث فى قصّة الحب المكى ، ففيره من أهل مكة كان أشد إعجابا بابن أبى ربيعة وزملائه من أصحاب الشعر الغنائى بل أشد فتنة وسحرا .

ويظن الإنسان أنه لم يعد فى مكة إلا هذا الشعر يتناقله الناس ويغنى فيه المغنون والمغنيات ، وكان من عبّادهم وفقائهم من إذا سمعه أخذ يرقص[٢] . واستمع عطاء بن أبى رباح يوما إلى شىء من هذا الشعر فخلف ألا يكلم أحدا بقية يومه إلا به[٣] ، وكان ابن جريج مثل أستاذه يفتتن به فتنة شديدة[٤] .

وعلى هذا النحو كان ابن عباس وغيره من الفقهاء يروون هذا الشعر الغنائى فى المسجد الحرام ويُنشِدونه ويستنشدون أصحابه وكان غيرهم من المكيين يرويه فى الطرقات والمنعطفات وفى شعاب مكة وبطاحها وفى ضواحيها ومتنزهاتها إذ لم يكن للقوم من لهو يلهون به سوى الغناء وهذا الشعر الذى كان يصاحبه ، والذى كان يقص قصصا بديعا رواية الحب

---

(١) أغانى ١/٧٢ . (٢) أغانى ١/٣١٦ وانظر ١/٢٩٠ .
(٣) أغانى ١/٢٥٧ . (٤) أغانى ١/٣١٦ .

المكى التى كانت تمثّل فصولها تحت أعينهم .

وكانت الطريقة التى يحمل بها هذا الشعر إلى الناس فى مكة طريقة محببة إلى نفوسهم ، ألم تكن الغناء الذى كانوا يفتتنون به هو الآخر فتنة بعيدة ؟ . وهكذا أخذ ينشر هذا الشعر الغنائى الفتنة حوله بما يحمل من معانيه القريبة التى كأنها انتزعت من قلوب المكيين جميعاً ، ثم بما يحمله معه من هذه الألحان التى كان يصبه فيها المغنون صبًا ، فتبدو للناس عارية هذه الفتنة الفنية .

وإنا لنزعم أن المكيين عاشوا حينئذ معيشة كلها شعر وغناء ، بل قل كلها طرب وموسيقى ، وكانوا فى هذا العصر يقولون « إذا أعجزك أن تطرب القرشىّ ، فغنّه غناء ابن سريج فى شعر عمر بن أبى ربيعة فإنك تُرْقِصه[1] » . وهكذا كانت مكة فى عصر ابن ربيعة كلها رقص وطرب وغناء .

واندفع فى هذا الطرب الرجال والنساء ، فكانت هناك الثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة ، وكانت تعجب به وبشعره ، وكان فى بيتها من مواليها يحيى قَيْل والفَريض وسُمَيَّة ، وكانوا جميعا يغنونها فى شعر عمر فيها ، فهى تعجب بالشعر من جهة ، وهى تصبح موضوعا له من جهة أخرى .

---

(١) أغانى ١/٢٨٤ .

وكان القرشيون يعرفون لعمر وشعره هذا التأثير فى الثريا وغيرها من نساء مكة . حدثتْ ظبيةُ مولاتَها فاطمة بنت عمر بن مصعب أنها مرت بجدها عبد الله بن مصعب وهى داخلة منزله وهو بفنائه ، ومعها دفتر فقال لها : ما هذا معك ؟ ودعاها ، فجاءته ، وقالت له : شعر عمر ابن أبى ربيعة ، فقال : « ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر بن أبى ربيعة ! إن لشعره لموقعا من القلوب ومدخلا لطيفا ، لو كان شعر يَسْحَرُ لكان هو[١] » .

ولعل مما يدل على فتنة النساء بهذا الشعر الغنائى أن نجدهن لا يتحرّجن من أن يُذكَرْنَ فيه وأن يتغنى الشعراء بأسمائهن ، ويعرضوا لجمالهن وسحرهن . ومن هنا تردد اسم الثريا فى شعر عمر كما تردد اسم زينب بنت موسى الجحية ، وغيرها من شريفات قريش . وكأنما كن يتخذن من هذا الغزل الغنائى ما تتخذه المرأة من الصحافة الحديثة ، فهنّ يعلنّ عن أسمائهن فيه ويتخذن من الشعراء ما تتخذه المرأة الحديثة من مصوّرى الصحف ، وكن يسبقن إلى هذا استباقا . ولم تشترك فيه المكيات المقيمات وحدهن ، بل اشترك فيه المكيات اللائى هاجر آباؤهن إلى المدينة أو إلى دمشق ، فكانت السيدة سكينة بنت الحسين تطلبه[٢] ، وكذلك كانت عائشة بنت طلحة[٣] ، بل إننا نجد أم محمد

---

(١) أغانى ١/٧٨ .
(٢) أغانى ١/١٠٥ وكذلك ١/١٦١ وما بعدها .
(٣) أغانى ١/ ٢٠١ .

بنت مروان بن الحكم تحج ، فترسل إلى عمر بن أبى ربيعة ألف دينار كى يتغزل بها[١] ، وحجت أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، فطلبت إلى الشعراء أن ينظموا فيها ، فبعضهم تشجع وتغزل بها ، وبعضهم جبن ، واكتفى بالنظم فى جواريها[٢] .

وإن فى هذا ما يدل إلى أى حد كان يفتتن النساء بهذا الشعر الغنائى ، فكل منهن تريد أن تظهر فى مرآته الصافية ، إذ كانت هذه المرآة تلمع فى أيدى المغنين والمغنيات لمعانا شديدا قويًا له بريقه المؤثر على نفوس الرجال وقلوبهم . ولم يكن النساء يجدن فى هذا عيبا ولا ما يشبه العيب ، بل كن يجدن فيه شرفا ، فالنساء دائما هن النساء ، يحببن الثناء على حسنهن والتغنى بجمالهن .

وانساق المكيون جميعاً يصفقون لهذا الشعر الذى يُغَنَّى ، والذى يطربون له أى طرب ، فهو كل بهجتهم فى مدينتهم وكل مسرتهم فى حياتهم . وانساق معهم الفقهاء والعُبَّاد على ما قدمنا ، بل إننا نجد منهم من يساهم فى هذا الشعر ، فقد كان هناك ناسك من نساك مكة وقرّائها يسمى عبد الرحمن بن أبى عمار الجُشَمِىّ ، وكان يلقّب بالقَسّ لعبادته ، فتصادف أن اشترى سَلَّامة نبيلٌ من نبلاء مكة يسمى سُهَيْل بن عبدالرحمن ، وأحضرها معه من المدينة ، وأخذت تغنى فى داره ، فسمعها

---

(١) أغانى ١/١٦٦ . (٢) أغانى طبع بولاق ١١/٤٩ .

القَسُّ على غير عمد منه ، فبلغ غناؤها منه كل مبلغ ، وما لبث أن شُغِفَ بها وشُهِرَ ، فغلب لقبه عليها ، وسميت سلامة القس ، وفيها يقول[١] :

سَلاَّمُ هــل لى منكمُ ناصرُ أم هل لقلبى عنكمُ زاجرُ
قد سمع الناسُ بوَجْدى بكم فمنهمُ اللائمُ والعــــاذر

وأخذت أرجاء مكة تردد هذه القصة الطريفة وتردد ما يقوله فيها القس ، وهى مشفقة عليه ؟ ولكن ماذا تستطيع مكة ، وسلامة ليست حرة ، وفى ملك نبيل من نبلائها . وسعرت هذه الحالُ القسَّ فلم يستطع إفلاتا منها ، بل لقد اشتعل قلبه ناراً ، وامتلأ فؤاده حزنا وكمداً ، فذهب يقول[٢] :

سَلاَّمُ ويحك هل تُحْيِين من ماتا أو تَرْجعين على المحزون ما فاتا

ولم يلبث يزيد بن عبد الملك أن أرسل إلى سلامة يشتريها من مولاها ، فلم يستطع أن يمنعها دونه ، ولا استطاع أهل مكة أن يبقوها لصاحبهم ، فتولى أسفا يكاد يتميَّز حسرة ولوعة . ولم يكن له إلا الشعر ينفث فيه حُرَق قلبه ولواعج فؤاده ، من مثل قوله[٣] :

ألا قل لهذا القلب هل أنت مُبْصِرُ وهل أنت عن سَلاَّمَةَ اليوم مُقْصِرُ
ألا ليتَ أنى حين صارتْ بها النَّوَى جليسٌ لسَلْمَى حيث ماعَجَ مِزْهَرُ

---

(١) انظر الأغانى ٨/٣٣٤ وما بعدها .
(٢) أغانى ٨/٣٣٦ . (٣) أغانى ٨/٣٣٩ .

ويقول أبو الفرج : إن للقس أشعاراً كثيرة يطول ذكرها[١] . وليس من ريب فى أن هذه الأشعار كانت تروع المكيين روعة شديدة ، فهى من الشعر الغنائى الذى يفتتنون به ، وهى لعابدهم القس المشهور .

وعلى هذا النحو كان عباد مكة لا يعجبون بالشعر الغنائى فحسب ، بل كانوا يساهمون فيه ، ويشتركون فى صنع مقطوعاته ، فهو الشعر الذى ينشر الفتنة والسحر من حولهم ، وهو الشعر الذى يطلبه الرجال والنساء والأشراف والشريفات ، وهو الشعر الذى يغنيه ابن سُرَيج والغريض وابن مِسْجَح ومن لفَّ لفهم على آلاتهم الموسيقية . وكأنما كان أهل مكة جميعا لا يملكون إلا أن يَجْرُوا وراء هؤلاء العُزَّاف يستمعون فى نشوة إلى أغانيهم ، التى تفيض سحراً وجمالا ، وتذوب رقة وعذوبة .

٥

الشعر الغنائى على كل لسان فى الإسلام

لعل من أهم مايميز العرب فى مختلف عصورهم أنهم أمة شاعرة تُعْنَى بالشعر وروايته وحفظه ، وجاء الإسلام وليس لهم رباط مقدس يربطهم إلا ما يصنعه شعراؤهم وينشدونه أو يغنونه من قصائد ومقطوعات تردَّد فى كل مكان من الجزيرة العربية . وقد أخذ سلطان هذا الشعر على نفوسهم يضعف بنزول القرآن الكريم على رسول رب العالمين ،

(١) أغانى ٨/٣٣٦ .

وزاد فى ذلك أنهم شُغِلوا فى صدر الإسلام بالجهاد والفتوح ، ولكن لا نكاد نتقدم بعد ذلك حتى نجدهم يهدأون ويستقرون ويعودون إلى الشعر سيرتَهم الأولى ، وكأنهم كانوا يشعرون أنه الحافظ لهم من فنائهم .

وأخذت كل قبيلة تقدم شعراءها وتُهْدى شعرهم إلى القبائل الأخرى إما مديحا أو هجاء ، ودارت هذه المعارك من الشعر التقليدى فى إقليم العراق ، حيث كان جرير والفرزدق والأخطل يترامون بسهام الهجاء كما كانوا يهدون أزهارهم وباقاتهم من المديح إلى الأمراء والخلفاء . بينما شغلت الحجاز فى مكة وغيرها من الحواضر بهذا الشعر الغنائى الذى وصفناه ، فقد انكبَّ الناس عليه انكباباً ، وكاد ألا يبقى فيهم بقية لهجاء ومديح ، فقد شغفوا بالقصة الكبرى ، قصة القلب الإنسانى ، ولم يكادوا ينظرون فى القصص المحلية الصغرى ، قصص العرب وحروبهم فى الجاهلية على نحو ما نجد فى نقائض جرير والفرزدق .

وقد يكون من الطريف أن نعرف أن شعر القصة الكبرى ، أو بعبارة أخرى الشعر الغنائى التام كان أكثر ذيوعا وانتشاراً من شعر القِصَص الصغرى ، أو الشعر التقليدى ، لأنه من جهة يحكى وقائع وحوادث حاضرة تتصل بحياة العصر وما انبث فيه من ألوان ترف ، ثم هو من جهة أخرى يُغَنَّى وتنقله ألحان الغناء فى العالم الإسلامى .

وفرق بين شعر تتصل حوادثه أو قل أكثر حوادثه بالجاهلية ، وقصص المحاربين القدماء ، وما كان من أيام وحروب حينئذ ، فإن

ترك ذلك فإلى مديح السادة والأشراف بصورة قديمة موروثة ؛ فرق بين هذا الشعر وشعر عمر بن أبى ربيعة وأصحابه الذى كان يحكى قصة الحب ووقائعها فى مكة أثناء مواسم الحج وبعد هذه المواسم . وقد أثر عن الفرزدق أنه استمع إلى بعض شعر عمر فقال : « هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار[1] » . وقال جرير : « هذا الذى كنا ندورُ عليه فأخطأناه[2] » .

وهذا اعتراف واضح من زعيمى الشعر التقليدى فى العصر الأموى بتفوق عمر وأصحابه حين ولّوا وجوههم نحو هذه القبلة الفنية الجديدة ، قبلة التعبير المباشر عن خطرات القلب وأوهامه وأحلامه وآلامه وآماله . وقد رأينا كيف أن هذا الشعر كان يستهوى أفئدة فقهاء مكة وعُبادها ، كما كان يستهوى فتياتها وشبانها وشيبها ، وأيضاً فإنه كان يستهوى المرأة النبيلة الشريفة ، ففيه كانت تُرْسَم صُورها ، وفيه كان يتردد اسمها .

وإذا كان الخلفاء الأمويون اشتهروا بطلبهم للشعراء التقليديين كى يسمعوا مدائحهم فيهم ، فإنهم أخذوا منذ يزيد بن معاوية يستقدمون المغنين والمغنيات فى الحجاز كى يُسمعوهم مقطوعات الشعر الغنائى الذى يغنون فيه . وأقام الوليد بن عبد الملك حفل استقبال فى دمشق لابن سريج كما قدمنا ، ثم كان يزيد أخوه فبالغ فى استقدام مغنى الحجاز ،

---

(١) أغانى ١/٧٥ . (٢) أغانى ١/١٠٦ .

وأكثر من إقامة الحفلات لاستقبالهم[١] ، وابتاع حَبَابة[٢] وسَلاَّمة القس[٣] ، وعاش معيشة غنائية خالصة طوال حكمه . ولم يلبث أن خرج من بيته وتحت تأثير هؤلاء المغنين وشعرهم الذى يتغنون فيه شاعرٌ غنائى ممتاز ، هو الوليد بن يزيد ، الخليفة المشهور بضربه وغنائه وأصواته فى شعره[٤] .

ومعنى ذلك أننا لا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى يتفوق الشعر الغنائى نهائيا على الشعر التقليدى فى بلاط الخلفاء ، بل إنه يبلغ من نفوذه هناك أن يتحول إليه خليفة من خلفاء الأمويين . وليس من ريب فى أن ذلك كان أثرا من آثار شيوع الشعر الغنائى على كل لسان .

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق مكان إلا وشاع فيه هذا الشعر ودار على جميع الألسنة ، وكان من أهم الأسباب فى ذلك أنه قيِّدَ بألحان المغنين ، فكان من يطلب سماع لحن من الألحان عند مغنٍ مشهور فى الحجاز يسمع أثناءه هذا الشعر الغنائى الطريف . وكان الشعراء أنفسهم يعملون على أن يذيعوه عن طريق المغنين ، فعمر بن أبى ربيعة يلزمه مغنيان مشهوران ، هما : ابن سُرَيج والغريض ، فلا يكاد يرسل مقطوعة من الشعر ، حتى يلحناها له ، وحتى يحفظاها فى صندوق أنغامهما .

---

(١) أغانى ٥/١٠٩ . (٢) أغانى طبع بولاق ١٣/١٠٦ .
(٣) أغانى طبع دار الكتب ٨/٣٤٣ .
(٤) انظر ترجمته فى الأغانى ٧/١ وما بعدها .

ولم يكونا وحدهما اللذان يصنعان ذلك ، فقد كان من وراءهما من مغنى مكة مَن يصنع صنعهما ، بل كان يصنع ذلك أيضا مغنو المدينة ، بل لقد كان لذلك أثره فى العراق فيما بعد ، فإن مدارس الغناء حين ظهرت هناك فى العصر العباسى أخذ المغنون يتداولون الألحان القديمة ، ويضيفون إليها ألحانا جديدة ، مما أعطى لأصحاب الشعر الغنائى فرصة واسعة كى يُحْفَظ شعرهم من جهة ، ويذيع وينتشر من جهة أخرى . وقد روى أبو الفرج لابن أبى ربيعة قصيدته التى تبدأ بقوله :

تَشُطُّ غدا دارُ جيراننا ولَلدارُ بعد غَدٍ أَبْعَدُ

ثم ذكر عقبها من غنوا فيها ، فإذا هو يذكر أن الذى أُحصى فيها إلى وقته تسعة عشر لحنا ، وممن غنوا هذه الألحان من المكيين ابن مسجح وابن سريج والغريض والأبجر ، بينما غنى فيها من المدنيين مَعْبَد ومالك الطائى ويونس الكاتب وأشعب ، أما العباسيون فغنى فيها منهم أحمد بن يحيى المكى وإسحاق الموصلى وابن جامع وعُلَيّة بنت المهدى [1] .

وما حدث فى هذه المقطوعة حدث فى كثير من المقطوعات الأخرى لابن أبى ربيعة وغيره من الشعراء المكيين أمثال ابن قيس الرقيات والعرجى ، فقد كان الشاعر يصنع القطعة وما يلبث المغنى أن

(١) أغانى ١/٨٦ .

يلحنها ، ولم يكن يلحنها مغنّو مكة وحدهم بل كان يلحنها أيضا مغنو المدينة . ومن يرجع إلى أخبار المغنين والمغنيات فى المدينة أثناء العصر الأموى يجد أكثر أصواتهم التى غنوا فيها لشعراء مكة ممن سميناهم . وكان هؤلاء الشعراء أنفسهم يرحلون إلى المدينة يطلبون إلى مغنيها ومغنياتها ، أن يلحنوا لهم أشعارهم ، وأعطى ابن أبى ربيعة أحد مغنى المدينة وهو الدلال مائة دينار على صوت من شعره غناه فيه[١] ، وكان عمر كثيراً ما يذهب إلى دار جميلة ليستمع فيها إلى بعض شعره الذى يغنى هناك[٢] . ولم يكن عمر وحده الذى يذهب إلى دار جميلة ليستمع إلى شعره يغنى هناك ، فقد كان يصنع صنيعه العَرْجى[٣] .

ولم يكن الشعراء وحدهم الذين ينقلون شعرهم ومقطوعاتهم إلى المدينة ، بل كان ينقل ذلك أيضا المغنون أنفسهم ، فنحن نجدهم دائما فى المدينة وفى دار جميلة بالذات يتغنون فى شعر عمر وأصحابه ، يصنع ذلك ابن مسجح وابن سريج والغريض[٤] . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان المغنون المكيون أنفسهم يرحلون إلى مكة يأخذون عن مغنيها ، صنع ذلك منهم كثير ، وعلى رأسهم معبد مغنى المدينة الذائع

---

(١) أغانى ٤/٢٩٦ .
(٢) أغانى ٨/٢٠٨ .
(٣) أغانى ٨/٢٣٠ .
(٤) أغانى ٨/٢١٠ وما بعدها .

الصيت[1] . ويخيل إلى الإنسان أنه كانت هناك رحلة مستمرة بين مغنى مكة والمدينة ، فلا يسمع الأولون بمغن مشهور ينشأ فى المدينة إلا ويرحلون لسماعه ، وكذلك لا يسمع الأخيرون بمغن مشهور فى مكة إلا ويقصدونه . وهؤلاء وأولئك جميعا يملأون حقائبهم وصناديق غنائهم بالشعر المكى ، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يميز عند المغنين هنا وهناك أى الشعراء كان أغلب عليه ، شعراء بلدته أم شعراء البلدة الأخرى ، فشعر الأحوص يتردد فى مكة كما يتردد شعر عمر وأصحابه فى المدينة . غير أن من يُنعم النظر يلاحظ أن المدينة ، وإن نافست مكة هذا العصر منافسة شديدة فى الغناء حتى كادت تسبقها فيه من بعض الوجوه ، فإنها لم تستطع أن تظفر هذا الظفر فى الشعر الغنائى ، فكل من يقرأ كتاب الأغانى يلاحظ أن عمر وأصحابه كان شعرهم أشد ذيوعا وأكثر انتشارا لا فى مكة نفسها بل فى المدينة أيضا . وآية ذلك أن ترجمة الأحوص وأشعاره التى غُنِّى فيها لم تستنفد من كتاب الأغانى إلا صفحات معدودة ، بينما استنفدت أخبار عمر وأشعاره ، وبعبارة أدق كادت أن تستنفد المجلد الأول من الأغانى . وليس للمدينة بعد الأحوص شاعر غنائى يمكن أن نضعه فى صفٍّ ابن قيس الرقيات أو العرجى ، بل حتى فى صف الحارث ابن خالد المخزومى .

وإذن فمكة هى ذات الحظ الأوفى من الشعر الغنائى فى الحجاز أثناء

(١) أغانى ١/٥٧ .

العصر الأموى ، هذا الشعر الذى كانت تردِّده حلوق المغنين فى كل مكان من الحجاز : فى مكة وفى المدينة ، وأيضا فى الطائف ، ووادى القرى . أما الطائف ، فكان ينزل فى أوديتها العَرْجى ، ويقضى هناك أكثر أيامه وأوقاته ، وكان ينزلها معه فِنْد المغنى (١) ، وكان كثير من أشراف مكة وشريفاتها ينزلها ، وخاصة فى الصيف ، وكان ممن ينزلها الثريا (٢) صاحبة عمر بن أبى ربيعة ومعها مواليها ، وعلى رأسهم الغريض ويحيى قيل وسمية .

وليس من شك فى أن هؤلاء المغنين عملوا على إذاعة الشعر الغنائى المكى هناك ، وطبيعى أن تعم هذه الأصوات المحببة إلى كل نفس ، وأن تدخل كل دار ، وأن تُغَنَّى فى كل منعطف وشعب من منعطفات الأودية وشعابها . وهذا نفسه نلاحظه فى وادى القُرَى ، فقد كان يفد منه المغنون على مكة يتعلمون الضرب والغناء . ومن أشهر من وفدوا منه عمر (٣) الوادى مغنى الوليد بن يزيد ، ويروى أبو الفرج عن عمر أنه سمع صوتا يغنيه بعض البدو فأعجب به إعجاباً شديداً وأخذه عنه ؛ وكان يقول : إنه لم يترنم به وهو جائع إلا شبع ، ولم يُغَنَّ به وهو كسلان إلا نشط ، ولم يلحنه وهو مستوحش إلا أنس (٤) .

---

(١) أغانى ١/٣٩٣ .
(٢) أغانى ١/٢١١ .
(٣) أغانى ٧/ ٨٥ .
(٤) أغانى ٧/٨٦ وما بعدها .

وعلى هذا النحو كان فى الحجاز كله بحواضره و بواديه يتناقل هذا الشعر الغنائى المكى ، إذ كان بدعة العصر ، وكان الناس يجدون فيه وفيما اقترن به من ألحان وأنغام متعة لا تقدَّر . ولم يقف انتشاره عند الحجاز كما مر بنا ، فقد أخذ يفد على الشام ، بل أخذت الشام تشارك فيه عن طريق الوليد بن يزيد . وكما عرفته الشام عرفته اليمن ، فقد فرَّ إليها الغريض حين تعقبه نافع بن علقمة والى مكة ، وهناك نشر ألحانه ، وما حملته من هذا الشعر الغنائى (١) .

وسبق أن عرضنا للمغنين وما كان لانتقالهم فى العراق أواخر هذا العصر وأوائل العصر العباسى من آثار مهمة فى نشوء مدارس غنائية كبيرة هناك ، فقد انتقل فن الغناء بمغنيه ومغنياته وهذه الرقم الموسيقية التى استحدثها ابن مسجح وتلاميذه فى مكة وطويس وسائب خاثر وتلاميذهما فى المدينة ، انتقل ذلك كله إلى العراق . وطبعا انتقل الفن بكل ما رافقه من شعر . ورأينا آنفا كيف أن مقطوعة لعمر بن أبى ربيعة توارد عليها مغنو مكة والمدينة أولا ثم مغنو العراق من مثل إسحق وابن جامع .

وأظن فى هذا كله ما يدل إلى أى حد عمل الغناء على شيوع الشعر الغنائى وانتشاره ، فقد كان المغنون الحجازيون أنفسهم ينقلونه إلى دمشق تارة وإلى اليمن أو العراق تارة أخرى ، ونزل الأبجر المغنى

(١) أغانى ٢/٣٩٨ .

المكى المعروف مصر وبها توفى[١] . ومعنى ذلك أن هـذا الشعر كان يحمله المغنون إلى كل بقعة فى العالم الإسلامى .

وهناك ممر آخر غير ممر المغنيين عمل على ذيوع هذا الشعر وانتشاره فى الأقاليم العربية ، ونقصد الحج والحجاج الذين كانوا يفدون على مكة من مشارق الأرض ومغاربها ، فأكبر الظن أن بعضهم كان يختلف إلى دور المغنين فى مكة . على أن المغنين أنفسهم كانوا يتعرضون لهم وهم يؤدون مناسكهم ، روى أبو الفرج أن ابن سريج كان عند بستان ابن عامر يُغَنِّى :

لمن نارٌ بأعلى الخَـيف دون البئر ما تخبو
أرِقتُ لذكر موقعها فَحَنَّ لذكرها القلبُ
إذا ما أُخمدتْ أُلقِي عليها المَنْدَل[٢] الرَّطْبُ

فجعل الحاج يركب بعضهم بعضا ، حتى جاء إنسان من آخر القُطُرات فقال : يا هذا قد قطعت على الحاج وحبستهم ، والوقت قد ضاق ، فاتق الله وقم عنهم ، فقام عنهم وسار الناس[٣] . وسمعه يزيد ابن عبد الملك فى بعض المواسم فأعطاه حلته وخاتمه[٤] . ويروى أبو الفرج أنه رفع صوته مرة يغنى فى موسم آخر فسمعه الركبان فجعلوا يصيحون به : ياصاحبَ الصوت أماتتقى الله ؟! قد حبست الناس عن مناسكهم ، فيسكت

---

(١) أغانى ٣/٣٤٦ .
(٢) المندل : العود .
(٣) أغانى ١/٣١٦ .
(٤) أغانى ١/٢٨٥ .

قليلا ، حتى إذا مضوا رفع صوته ، فيقف آخرون إلى أن مرت قطعة من الليل[١] . ومثل ابن سريج فى ذلك الغريض فقد روى أبو الفرج أنه كان يعترض بصوته الحاج وأنه رجّع صوته يوماً وغنّى فى شعر ابن أبى ربيعة :

أيها الرائحُ المجدُّ ابتكارا قد قضى من تِهامَةَ الأوطارا

فأصغى الحجاج كلهم إليه تعجباً من حسنه ، وتكلم الناس ، فقالوا طائفة من الجن حجاج استحساناً لما سمعوا[٢] . ولم يكن مغنو مكة وحدهم الذين يعترضون الحجاج ، فقد كان مغنو المدينة يصنعون صنيعهم[٣] .

وهكذا كان المغنون الحجازيون يعترضون الحجاج بغنائهم وما يحمل من الشعر الغنائى الذى يؤلفه لهم الشعراء هناك . ومن يدرى ربما كان يرافقهم فى قوافلهم بعض هؤلاء المغنين إما فى ترحالهم نحو المدينة أو فيما هو أبعد من المدينة ؟ . واشتهر فى هذا العصر أحد أصحاب القوافل وهو دَحْمان بالغناء ، وهو من المدينة ، ولا بد أنه كان يغنى فى قوافله هو وبعض حواريه ، فقد استمع الوليد بن يزيد إلى جارية فى إحدى قوافله ، فاشتراها بعشرة آلاف دينار[٤] .

ولعل فى هذا ما يدلنا إلى أى حد عمل الغناء على انتشار الشعر الغنائى وذيوعه . وكان لقرب موضوعه ومعانيه من نفوس الناس أثر

---

(١) أغانى ١/٢٦٢ . (٢) أغانى ٢/٣٦٢ .
(٣) أغانى ٢/٢٠٨ . (٤) أغانى ٦/٢٥ .

فى هـذا الانتشار والذيوع لا يقـل عن أثر الغناء ؛ إذ كان يتناول أصحابه قصة الحب الإنسانى ، هذه القصة التى تطرب لها قلوب البشرية فى مختلف عصورها ، ومختلف أمكنتها وأقاليمها .

واستطاع الشـعراء الغنائيون فى الحجاز وعلى رأسهم شعراء مكة أن ينهضوا بهذا الشعر نهضة واسعة من جميع الوجوه ، وهى نهضة وسّعت طاقة حَمْله فى الصدور ، فإنهم كما قدمنا بسّطوا فى أوزانه وفى موسيقاه ، كما قرّبوا لغته من لغة الناس العامة ، فأصبح أطوع على الألسنة وأكثر خفة على الأسماع والأفواه . ثم اقترنت به هذه الطبول والآلات الوترية ، فأضافت إليه شَجًى إلى شَجًى حيناً على نحو ما كان يصنع الغريض (١) أو فرحاً إلى فرح حيناً على نحو ما كان يصنع ابن سريج (٢) .

والحق أن الغناء أحاط هذا الشعر بهالة من اللهب المستعر ، فإذا هو يلهب القلوب والأفئدة فى الأقاليم العربية ، وإذا هذه الأقاليم تعنو له جباهها ، ولا تلبث الشام أن تدخل فى هالة اللهب عند الوليد بن يزيد ، ثم تتبعها العراق التى زادت اللهب نيراناً ، وأضافت إلى النور أنواراً . ونحن نقف لنعرض أهم من أشعلوا هذه النيران والأنوار فى مكة ، وهما عمر بن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات .

---

(١) أغانى ٢/٣٦٢ . (٢) أغانى ١/٢٩٠ .

الفصل الرابع

عمر بن أبي ربيعة

١

نسبه وعشيرته وأهله

هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة ، ويغلب عليه أن ينسب إلى جده ، فيقال ابن أبي ربيعة ، وكنيته المشهورة أبو الخطاب[١] .

وينحدر عمر وآباؤه من عشيرة مهمة في مكة ، هي عشيرة بني مخزوم ، وكانت أحد البطون العشرة التي تؤلف قريش البطاح ، وكان صوتها مسموعاً بين هذه البطون ، وفي مجلس شيوخها المسمى بالملأ[٢] .

وما زال نجم المخزوميين يصعد في أواخر العصر الجاهلي حتى أصبحت لهم شهرة مدوية في الجزيرة العربية ، وخاصة هذا الفرع الذي نجم منه عمر ، فقد كان أهم فروع المخزوميين ، إذ كان آباؤه وأعمامه يعدون من سادة قريش الأولين . وكان أحدهم وهو هشام بن المغيرة يلقب برب قريش[٣] ، وكل من يقرأ السيرة النبوية يعرف اسم أخيه

---

(١) أغاني ١/٦١ . (٢) دائرة المعارف الإسلامية في مادة مخزوم .
(٣) ابن دريد ص ٦٣ ، ٩٤ .

الوليد بن المغيرة . ويقول أبو الفرج إنه كان سيداً من سادات قريش وجواداً من أجوادها ، وكان يعجب كيف ينزل القرآن الكريم على الرسول ، ولا ينزل عليه أو على عمرو بن عمير الثقفى ، وهما عظيما القريتين[١] ، وفيه نزل قوله تعالى : « وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجل من القَرْيتين عظيم » .

وبجانب الوليد وهشام ابنى المغيرة نجد أبا ربيعة جد عمر ، وكان بطلا من أبطال قريش ، ولُقب ذا الرمحين لأنه حارب يوم عُكاظ برمحين[٢] .

ويظهر أن المخزوميين اشتهروا بالشجاعة فى الجاهلية ، ولعل ذلك ما جعل قريشاً تسند إليهم أمر القُبَّة والأعنة ، أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به جيش قريش ، وأما الأعنة فيقصدون بها أنهم يكونون على خيلها أثناء الحرب[٣] .

وكما تقدم المخزوميون فى قريش بالشجاعة ، تقدموا أيضاً بالكرم وبذل المال ، فقلما يتردد اسم شخص منهم ولا يتردد معه كرمه . وكانوا — على ما يظهر — من تجار مكة المثرين ، ولهذا تتردد فى أوصافهم كلمة السيادة ، وهى لا تعنى فى مكة التاجرة سوى الثراء العريض ، وقد

---

(١) ابن هشام ١/٢٢٨ وانظر تفسير الكشاف (طبع المطبعة البهية) ٢/٣٥٠

(٢) أغانى طبع دار الكتب ١/٦١ .

(٣) ابن عبد ربه ٢/٤٥ .

نزلت فى الوليد بن المغيرة أيضاً الآيات الكريمة[١] « ذَرْنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلتُ له مالاً ممدودا و بنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا » .

وفى هذه الأسرة يلمع اسم عبد الله بن أبى ربيعة ، و يقول أبو الفرج : كان تاجراً موسراً ، وكان متجره إلى اليمن ، وكانت قريش تلقبه « العِدْل » ، لأنها كانت تكسو الكعبة فى الجاهلية بأجمعها من أموالها سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ، فأرادوا أنه وحده عدل لهم جميعاً . وكان اسمه بَحِيرًا ، فلما أسلم عام الفتح سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله .

ويقول أبو الفرج : إنه كان لعبدالله عبيد من الحبشة يتصرّفون فى جميع المهن ، وكان عددهم كثيراً ، وعرض على رسول الله أن يستخدمهم ، ويستعين بهم ، حين خرج إلى حُنَين ، فأبى[٢] . واستعمله الرسول على الجَند[٣] ومخاليفها ، فلم يزل عاملا عليها حتى قتل عمر بن الخطاب ، واستعمله عثمان بن عفان أيضاً[٤] ، وما زال والياً له حتى

---

(١) تفسير الكشاف ٢/٥٠٢ . (٢) أغانى ١/٦٥ .

(٣) الجند : أحد ولايات اليمن الثلاث وهى الجند وصفاء وحضرموت ، والمخاليف جمع مخلاف وهو الكورة .

(٤) أغانى ١/٦٥ وما بعدها وانظر أسد الغابة ٣/١٥٥ والطبرى ١/٣٠٥٧ .

توفى أثناء حصاره عام خمسة وثلاثين[١] .

وتزوج هذا السيد المثرى ، الذى يقال إن رسول الله اقترض منه بضعة عشر ألفاً يستعين بها فى حربه ضد ثقيف[٢] ، من امرأتين ، أما أولاهما فحبشية نصرانية ، جاء منها بالحارث وكان صالحاً ديناً[٣] وخيِّرًا عفيفا[٤] ، واستعمله عبد الله بن الزبير على البصرة ثم عزله[٥] . وأما الثانية فأم ولد يقال لها نَجْد سُبيت من حضرموت ويقال من حمير ، وقد جاء منها بعمر[٦] .

وإذن فعمر يمنى الأم قرشى الأب ، وهو من سلالة أشراف قريش ونبلائها . كان أبوه أحد سادتها المعظمين ، وكان أخوه الحارث أيضاً من سادتها المقدمين[٧] ، فهو ابن سيادة ، وثراء ، وشرف ، وكرم ، وعز شديد .

٢

حياته وأخلاقه وصفاته

نَبَتَ عمر فى أسرة قرشية نبيلة ، ويقال إنه ولد فى العام الذى قتل

---

(١) الكامل لابن الأثير طبع ليدن ٣/١٦١ وشذرات الذهب لابن العماد طبع القدسى ١/٤٠ .

(٢) الطبرى ١/٢٣٨٦ . (٣) أغانى ١/١١٠ .

(٤) الشعر والشعراء ص ٣٥٢ .

(٥) طبرى ٢/٦٠٢ وأغانى ١/١١٠ وهو الملقب بالقباع .

(٦) أغانى ١/٦٦ . (٧) أغانى ١/٦٦ .

فيه عمر[١]، وإذن فقد ولد عام ٢٣ هـ . ولم ينص المؤرخون على مسقط رأسه، وأكبر الظن أنه ولد فى مكة، فالمؤرخون يسلكون أباه فيمن نزل مكة بعد الهجرة إلى الله ورسوله[٢]. ومن هنا كنا نظن أن مكة أول أرض مس ترابها عمر، واستمر فيها أثناء نشأته وسنيه الأولى من حياته، يقول فى بعض شعره[٣]:

وأنا امرؤ بقرار مكةَ مسكنى ‏ ‏ ‏ ولها هواىَ فقد سَبَتْ قلبى

ولم يكد عمر يتجاوز الثالثة عشرة من عمره حتى توفى أبوه كما أسلفنا، وبذلك خُلِّىَ بينه وبين أمه الغريبة، فنشَّأته كما تهوى، أو كما تنشِّىء أم سبيّة فتاها الثرى ثراه مفرطاً، تترك له حبله على غاربه ليتناول من اللهو واللعب كل ما تصبو إليه نفسه.

وماذا نريد إلى شاب نُشِّىء فى الحلية والزينة؟ إن مثل هذا الشاب لا بد أن ينشأ مفتوناً بدنياه وبما حوله من ملاهيها، وماذا ينقصه؟ إن داره تكتظ بالجوارى والسبايا، التى كانت تكتظ بها دور نبلاء قريش حينئذ، وليست هناك طرفة يراها من طرف الدنيا إلا وهو يستطيع أن يقتنيها، وأن يلهو بها ما شاء له هواه.

وكان عمر جميلا[٤]، ولم يلبث أن تفجر فى نفسه هذا الينبوع

---

(١) أغانى ١/٧١ . ‏ ‏ (٢) ابن سعد ٥/٣٢٨ .

(٣) ديوان عمر طبع ليبسك ٢/١٧٦ .

(٤) خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق ٢/٤٢٠ .

العذب ، ينبوع الشعر ، مع فتنة فى الحديث ورقة شعور ومزاج ، فأصبح حديث الشباب والفتيات . وكانت موجة الغناء حادة كما قدمنا ، وكان الشعر هو القطرات التى تعقدها فى أسماع الناس ، وكان عمر يحسن إرسال هذه القطرات النفسية ، فتعلّق به مجتمع مكة تعلقاً شديداً .

وانضاف إلى ذلك أن عمر كان ثريا عظيم الثراء ، فحشد ثراءه لفنه فهو يصنع المقطوعة من شعره ، ثم يطلب لها أروع المغنين فى عصره ، ليغنوه فيها لحنا خالداً ، ويجيزهم جوائز مختلفة ، فهذا ابن سريج يعطيه فى تلحينه لإحدى مقطوعاته ثلاثمائة دينار[١] وهذا الغريض يعطيه فى تلحين مقطوعة أخرى خمسة آلاف درهم[٢] ، وهذا الدلال يعطيه فى تلحين مقطوعة ثالثة مائة دينار[٣] ، وهذه جميلة يعطيها فى تلحين مقطوعة رابعة عشرة آلاف درهم[٤] . ثم هاتان بغوم وأسماء فى داره تغنيانه فى كل ماينظم[٥] . وإنه ليعجب بصوت تغنيه جميلة فى شعره ، فيرسل لها بإحدى جواريه تطارحها أياما حتى تتقنه[٦] .

ويؤمن الإنسان بأن حياة عمر فى مكة كانت شعرا وغناء خالصا ، ولم يكن للناس حينئذ من لهو سوى هذا الغناء وما يصاحبه من شعر ، فدَارَ اسم عمر على كل لسان .

---

(١) أغانى ١/٣٥٩ .
(٢) أغانى ٣/٣٢٢ .
(٣) أغانى ٤/٢٩٦ .
(٤) أغانى ٨/٢٠٨ .
(٥) أغانى ١/١٦٥ .
(٦) أغانى ٨/٢٢٢ .

وكان مجتمع مكة حينئذ تسوده ضروب من الحرية فى لقاء الرجال للنساء ، وكانت أحاديث هذا اللقاء تُمْلَأُ بالصبابة والغزل ، وهل هناك حديث للشباب أمتع من هذا الحديث الذى تروى فيه قصص القلب الإنسانى ؟ .

ونعجب الآن إذ نسمع عن هذه الأحاديث وتلك المجالس لأننا نريد أن نتصور مكة فى صورتها المتحضرة الجديدة قرية بدوية ، وننسى أنه دانت لها والمدينة قَبَيْلَ هذا العصر كل دولة فارس وكثير من دولة الروم ، وأن مجتمعها تطور تحت تأثير العناصر الحضارية التى دخلتها . والمجتمع المتحضر هو المجتمع المتحضر فى كل عصر وفى كل مكان .

تحضرت مكة أو قل أغرقت فى الحضارة ، ووُجِدَتْ فيها هذه هذه الطبقة اللاهية من الفتيات والفتيان الذين يقضون أوقاتهم فى المتعة بالفنون الجميلة ، وكانت هذه الفنون فى مكة لا تتعدى الشعر والغناء الذى يوقع عليه ، فوجدت المجالس التى تتمتع بهذا الشعر وبذلك الغناء وظهر — ككل مجتمع راق — كثير من السيدات اللائى يُعْنَيْن بهذين الفنين وأصحابهما .

ولم تكتف بعض بيوتات مكة بالسماع من هؤلاء المغنين فى الحفلات ، فاقتنت طائفة منهم ، على نحو ما نجد عند الثريا بنت على بن عبدالله ابن الحارث بن أمية الأصغر فقد اقتنت الغَرِيض ويحيى قَيْل وسُمَيَّة .

وطبيعى أن تعنى مثل هذه الفتاة بالشعر الذى كان يغنى فيه مواليها ، وكان أكثره من شعر عمر . ولعل ذلك ما عَجَّل بالصلة بينها وبينه وهى صلة فنية قبل أن تكون صلة شخصية . وكانت الثريا جميلة[1] ، فطبيعى أن تثير عمر وأن تجعله يتغنى باسمها وجمالها .

وفى كل مكان من حياة عمر نجد ثريات أخريات ، فقد كانت مكة تحفل بالشريفات والنبيلات ، وكن جميعا يحتفلن بالشعر والغناء ، ويجلسن ليسمعن المغنين أو لينشدهن الشعراء . قال الحارث بن خالد المخزومى : « بلغنى أن الغريض خرج مع نسوة من أهل مكة من أهل الشرف ليلا إلى بعض المتحدّثات من نواحى مكة ، وكانت ليلة مقمرة ، فاشتقت إليهن وإلى مجالستهن وإلى حديثهن .. وكان عمر منى قريبا ، فأتيته ، فقلت له : إن فلانة وفلانة وفلانة — حتى سميتهن كلهن — قد بعثنى ، ، وهن يقرأن عليك السلام ، وقلن تشوّقن إليك فى ليلتنا هذه لصوتٍ أنشدناه الغَرِيض . وكان الغريض يغنى هذا الصوت فيجيده ، وكان ابن أبى ربيعة به معجبا ، وكان كثيرا ما يسأل الغريض أن يغنيه ، وهو قوله :

أمسى بأسماء هذا القلبُ مَعْمُودَا إذا أقول صحا يعتاده عِيدَا

فلما أخبرته الخبر ، قال : لقد أزعجتنى فى وقت كانت الدعةُ أحبَّ

---

(١) أغانى ١/٢١٢ .

فيه إلىّ ، ولـكن صوت الغريض وحديث النسوة ليس له مترك ولا عنه محيص ، فدعا بثيابه ، فلبسها ، وقال : امض ، فمضينا نمشى العجل حتى قربنا منهن ، فقال لى عمر : خفّض عليك مشيك ، ففعلت ، حتى وقفنا عليهن ، وهن فى أطيب حديث وأحسن مجلس ، فسلمنا ، فتهيبنا ، وتخفّرن منا ، فقال الغريض : لا عليكنّ ! هذا ابن أبى ربيعة والحارث ابن خالد جاءا متشوّقين إلى حديثكن وغنائى ، فقالت فلانة : وعليك السلام يابن أبى ربيعة . والله ما تمّ مجلسنا إلا بك ، اجلسا ، فجلسنا غير بعيد ، وأخذن عليهن جلابيبهن ، وتقنّعن بأخمرتهنّ ، وأقبلن علينا بوجوههن ، وقلن لعمر : كيف أحسست بنا ، وقد أخفينا أمرنا ؟ فقال : هذا الفاسق جاءنى برسالتكن ، وكنت وقيذاً[1] من علة وجدتها ، فأسرعت الإجابة ، ورجوت منكن على ذلك حسن الإثابة ، فرددن عليه : قد وجب أجرك ، ولم يَخِبْ سعيك ، ووافق منا الحارث إرادة . فحدثهنّ بما قلت له من قصة غناء الغريض ، فقال النسوة : والله ما كان ذلك كذلك ، ولقد نبهتنا على صوت حسن ، يا غريض هاته . فاندفع الغريض يغنى الصوت حتى أتى على الشعر كله إلى آخره ، فكلٌّ استحسنه . وأقبل علىّ ابن أبى ربيعة فجزانى الخير ، وكذلك النسوة . فلم نزل بأنعم ليلة وأطيبها حتى بدأ القمر يغيب ، فقمنا جميعاً ، وأخذ النسوة طريقاً ونحن طريقاً ، وأخذ الغريض معنا[2] » .

---

(١) وقيذاً : مريضاً . (٢) أغانى ٦/٣٢٧ وما بعدها .

وهذه صورة من صور كانت تحدث فى مكة كل عشية ، فكان النساء يطلبن الغريض وأمثاله ليغنوا فى شعر عمر ونظرائه ، وكثيراً ما أقام المسكيون حفلات كهذه الحفلات التى تقام فى عصرنا لعبد الوهاب وأم كلثوم . ولست أقصد الحفلات العامة ، وإنما أقصد الحفلات الخاصة . وبلغ من ثراء المسكيين وترفهم أن لا يقيموا هذه الحفلات كما نصنع الآن لمناسبة زواج أو عقد قران ؛ فقد كانت حياة القوم كلها حفلات ، وكأنما غرّتهم الدنيا ، فهم يقيمون هذه الحفلات يومياً إذا أرادوا . وكان للمغنون والمغنيات حينئذ يُمْلَكون ، فيكونون عند سادتهم ، يقيمون لهم الحفلات الغنائية كلما شاءوا ، وما أكثر ما كانوا يشاءون . فما كنت تسير فى شِعْبٍ من شعاب مكة أو فى ضاحية من ضواحيها إلا وتنطلق الأصوات من حولك ، فقد كاد أن يكون فى كل شِعْبٍ وكل ضاحية مسرح . وكانت المسارح حينئذ متحركة ؛ فهذا ابن سريج بعوده يُغَنِّى فى أى مكان ، وهذا الغريض بقضيبه يرتّل أشجى الألحان ، وهذا عمر وأمثاله من أصحاب الشعر الغنائى ينظمون ، والمغنون من حولهم يغنون ويلحنون .

وكان لعمر القدح المعلى بين شعراء عصره فى ذلك ، فهو سيد من سادات مكة ونبيل من نبلائها ، وهذه البيوت من حوله بيوت الشريفات والنبيلات قلما لا تكون هناك واشجة قرابة بينه وبين من فيها ، ولذلك كثر اجتماعه بصواحبها وكثرت مداخلته لأهلها ، فهو

يغشاهم الحين بعد الحين مع المغنين يستمع إلى الغناء فى شعره والتلحين فى نظمه . وأصبح عمر بدع العصر ، فهو طَلِبة كل بيت من بيوت أقربائه ، وهو طلبة كل فتاة مدلة بجمالها معجبة بحسنها ، تريد أن تظهر فى مرآة شعره وفنه . وما أكثر هؤلاء الفتيات اللائى كن يردن الظهور فى هذه المرآة الفنية الرشيقة ، فقد كانت مرآة متحركة تدخل فى كل بيت من بيوت مكة ، بل لقد أخذت تدخل فى بيوت المدينة وغيرها من بلدان العالم الإسلامى . وفتنت السيدات فى المدينة بهذه المرآة كما فتن سيدات مكة ونبيلاتها ، فقد تعددت صورها وألوانها وتعددت أنغامها وألحانها . وكان يظهر ابن أبى ربيعة فى أكثرها ومعه ابن سريج أو الغريض ؛ بل معه أحيانا جميلة ومعبد وغيرهما من مغنى أهل المدينة .

وكل من يقرأ فى الأغانى يخيل إليه أن عمر أصبح شغل النساء فى المدينة ومكة جميعا ، ولم تكن المسألة مسألة عمر كما قد يتبادر ، وإنما كانت مسألة شعره وابن سريج والغريض اللذين يلزمانه ، ولا ينفصلان عنه . وكأنما كانت تتكون الفرقة الغنائية فى مكة لهذا العصر من شاعر دائم هو عمر ومغن هو ابن سريج أو الغريض[١] .

ولم يكن نساء مكة والمدينة وحدهن اللائى يعجبن بعمر وشعره ومن يغنون فى هذا الشعر ، فقد كانت نساء بنى أمية فى دمشق يعجبن بهذا الشعر أو بهذه المرآة ، وكن يطلبن الظهور فيها حتى أخت[٢]

---

(١) انظر فى ذلك الأغانى ٢/٣٧٦ . (٢) أغانى ١/١٦٦ .

عبد الملك بن مروان وابنته فاطمة[١] ، فإنهما طلبتا أن تُطَبعا على صفحتها .

وكانت هناك مواسم تكثر فيها هذه الطلبات على عمر وغيره من شعراء مكة ، ونقصد مواسم الحج ، إذ كانت تحْشَد نساء العرب وفتياتهم ، وكان الذوق العربى العام لا يمنع أن يشيد شاعر بجمال امرأة ، بل لعل فى هذه الإشادة مايعرّف بها وبجمالها ، ولذلك كانت تطلبها المرأة العربية ولا تجد فيها غضاضة ، بل على العكس كانت تجد فيها طرافة وإعلاناً عنها وتمهيداً لأن يطلبها الأزواج[٢] .

وهذا الذوق العام هو الذى أشاع الغزل فى المرأة العربية الشريفة . وأخذ عمر بن أبى ربيعة يستغله ويبعد فى استغلاله لا فى فتيات مكة ونسائها ، بل فى فتيات العرب جميعاً ونسائهم ممن يحججن إلى مكة ، وتقع عينه عليهن ، وكأنما كانت عينه « عدسة » مكة فى هذا العصر ، فلا تمر بها سيدة تستحق أن تصوَّر وأن ترسم فى المرآة الفنية المكية إلا وتهبُّ عين عمر وتهب عيون زملائه من الشعراء ، فيسجلون صورتها . ومن هنا كنا نقرأ دائماً فى أخباره أشعاراً وقصصاً عن جميلات الحواجّ . فهذه عائشة بنت طلحة تحج فتتعرض لها عين عمر أو عدسة عمر فترسمها[٣] ، وهذه فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية

---

(١) أغانى ١/١٩٠ وانظر ٢/٣٥٧ .
(٢) أغانى ١/٣٥٣ .
(٣) أغانى ١/١٩٩ وما بعدها .

تحج ، فتتلقفها العين أو العدسة[١] ، وهذه زوجة شيخ النحو أبى الأسود الدؤلى تحج ، فتأبى العين أو العدسة إلا أن تتبعها[٢] ، وهذه ليلى بنت الحارث البكرية مع وقارها ترسمها العين أو العدسة[٣] ، وهذه رملة بنت عبد الله الخزاعية تلمحها العين أو العدسة فتصورها[٤] . وهذا باب يطول تعداد الأسماء والشخصيات فيه ، فقد أصبح شغل الشعراء المكيين وعلى رأسهم عمر ، وأصبحت مواسم الحج مواسم للشعر والفن ترسم فيه صور العذارى والسيدات الجميلات ، وحتى أميرات بنى أمية كن يُرْسَمن ويُصَوَّرْن وكن يطْلُبْنَ ذلك ويبتغينه ، فهنا الشعر الجميل الذى يعرف كيف يصور جمال المرأة ، وهنا الأداة البديعة التى تعرف كيف تذيع هذا الشعر ، ونقصد أداة الغناء . فهذا الشعر الغنائى هو الشعر الذى ينتشر بسرعة على كل لسان ، والذى يملأ به الحجاج حقائبهم وهم عائدون إلى أوطانهم وديارهم . فليس غريباً إذن أن يطلبه النساء ، وأن يتحول عمر ومغنياه ابن سريج والغريض إلى ما يشبه المصورين فى صحافتنا الحديثة ، فهم يتخللون الحجاج ، وقد يخرجون لاستقبالهم كى يلتقطوا أخبار الفتيات والنساء الجميلات . وأظننا لا نعجب بعد ذلك إذ نقرأ فى أخبار عمر أنه « كان يعتمر فى ذى القعدة ويُحل ، ويلبس تلك الحلل والوشى ، ويركب النجائب المخضوبة بالحناء ، عليها القطوع والديباج ، ويُسْبل

(١) أغانى ١/٨٤ وما بعدها .
(٢) أغانى ١/١٤٧ وما بعدها .
(٣) أغانى ١/١٥٦ .
(٤) أغانى ١/٢١٤ .

لمته ، ويَلْقَ العراقيات فيما بينه و بين ذات عِرق محرمات ، ويتلقى المدنيات إلى مَرّ ، و يتلقى الشاميات إلى الـكديد(١) » . أو تقرأ: «خرج عمر بن أبي ربيعة ومعه ابن سريج على نجيبين ، رحالتاهما ملبستان بالديباج ، وقد خضبا النجيبين ولبسا حلتين ، فجعلا يتلقيان الحاج ، و يتعرضان للنساء إلى أن أظلم الليل(٢) » .

وما يزال عمر وابن سريج صاحبه يستعرضان النساء فى النهار على هذا النحو حتى إذا أظلم الليل انطلقا إلى كثيب مشرف ، فألقى عمر على صاحبه ما لقفته العين أو العدسة ، وسرعان ما يضع له ابن سريج اللحن ، ثم يغنيه ، فيحبس الحجاج عن مناسكهم ، ويكاد بعضهم يركب بعضا من شدة الزحام ومحاولة القرب من مسرح الغناء(٣) .

وأظن فى هذا ما يصور كيف كان عمر بن أبى ربيعة يحيا فى مكة ، فهو يحيا حياة فنية قوامها الشعر والغناء ، وقد مدّه ثراؤه وترفه بكل ما يلزمه فى هذه الحياة ، فهؤلاء المغنون من حوله أمثال ابن سريج سمّاعون لشعره يغنون فيه و يلحنونه ، و يرتفعون فى هذا الغناء والتلحين إلى مدى واسع من الإحسان والتجويد . وما يزال مع هؤلاء المغنين يتغنى بفتيات مكة ونسائها حتى إذا دار العام وأتى موسم الحج تحول إلى جميلات الموسم يتبعهن و يصورهن . وفى أخباره أنه كان يشرب الخمر(٤)

(١) أغانى ٢٢١/١ . (٢) أغانى ٢٥٨/١ .
(٣) انظر الأغانى ٢٥٩/١ وما بعدها .
(٤) أغانى ٢٠٧/٨ والديوان ص ٢٣٣ .

وأكبر الظن أن ترف عمر وفراغه وأوساط المغنين الذين كان يعاشرهم هو الذى دفعه أحياناً إلى الشرب ، ولكن فى غير إسراف ، بل نظن أن ذلك كان فى الندرة . وتناول عمر للخمر فى الندرة يدل على أنه كانت فيه روح عبث ، وهو جانب يتضح فى غزله وفى أحاديثه عن المرأة ، وماذا نريد إلى شخص مترف نُشِّئ فى الحلية والزينة والحرير والإستبرق والطيب والعطر ؟ إن حياته تكون مليئة بالمرح والعبث ، ونفس ذلك جعله تياهاً مُدِلاً بنفسه . وعمر فى الواقع مثال لأبناء الطبقة الراقية الذين يشعرون بأنفسهم فى المجتمع الذى يعيشون فيه . وكان يعيش كما يريد « مهيباً معظماً لا يقدر عليه سلطان ولا غيره [١] » . وأكبر الظن أنه كان أموى الهوى ، فقد هجا مصعب بن الزبير حين قتل زوجة المختار الثقفى ، ومما قاله فى ذلك [٢] :

إن من أعظم الكبائر عندى قتل حسناء غادةٍ عُطْبولِ
كُتِب القتلُ والقتال علينا وعلى المحصنات جَرُّ الذيول

وطبيعى ألا يُعْجَب عمر بمصعب وأخيه عبد الله ، فقد كان الأخير خاصة مُتَزَمِّتاً ، ولم يكن يُعْجَب بعمر ولا بشعره [٣] ؛ بينما كان يعجب به عبد الملك [٤] ، وقد استصحبه الوليد معه ، حين حج ، إلى

(١) أغانى ٦/٢٢٧ .
(٢) الديوان ص ٢٤١ وانظر أغانى ٩/٢٢٩
(٣) أغانى ١/٧٣ .
(٤) أغانى ١٨/١٣٣ وانظر زهر الآداب للحصرى ١/١٢٠ والأمالى ٣/٦٨ وكذلك الأغانى ١٥/٧ وما بعدها .

الطائف وغنّاه الغريض فى أشعاره[١] .

ولسنا نعرف تفاصيل واضحة عن حياة عمر الشخصية فى أسرته وبيته ، وكل ما ذكره المؤرخون فى هذا الجانب لا يتعدى ذكرهم لزواجه من كلثم بنت سعد المخزومية ، وأنها ولدت منه ولدين كان أحدهما يسمى جُوَانا ومانت عنده[٢] . ويذكرون أيضا أنه تزوج من جُمَحِيَّة[٣] ، ولا يذكرون اسمها ، وهى زينب بنت موسى الجمحية ، وله فيها غزل كثير[٤] . وكانت له بنت تسمى أمَةَ الواحد[٥] ، وقد تسمى أمة الحميد أو أمة المجيد[٦] .

وهذا هو كل ما لدنيا من معلومات عن حياة عمر الشخصية ، وهى معلومات لا تكاد تُبِينُ عن شىء ، إلا أنها على كل حال تدل على أنه لم يتزوج كثيراً . ولسنا ندرى هل تزوج الجمحية بعد وفاة كلثم أو أثناء حياته معها . وإذا عرفنا أنهم فى هذا العصر كانوا يتزوجون فى العادة غير واحدة ، أمكننا أن نعرف أن عمر كان غير قلق فى حياته الزوجية .

والرواة إنما يمدُّوننا فى الواقع بقصَصٍ كثير عن غزليات عمر ، أما حياته وتفاصيلها فقلما عُنوا بها ، وحتى موته نجدهم يضطربون فيه جدا

---

(١) أغانى ١/١١٢ وانظر ٢/٣٩٥ وكذلك ١/١١٩ .
(٢) أغانى ١/٢٠٤ وما بعدها . (٣) أغانى ١/٢٢٠ وما بعدها .
(٤) أنظر أغانى ١/٩٣ ومابعدها . (٥) أغانى ١/٧٠ .
(٦) أغانى ١/١٦٥ .

فالمشهور أنه عاش سبعين سنة[١] فإذا كان قد ولد سنة ٢٣ هـ فإنه يكون قد تُوُفِّى سنة ٩٣ هـ . ومعنى ذلك أنه توفى فى عصر الوليد بن عبد الملك وأنه لم يلحق عصر سليمان الذى تولى الخلافة سنة ٩٦ ولا عصر عمر بن عبد العزيز الذى ولى الخلافة سنة ٩٩ . وهنا يبدو خلط الرواة فنحن نرى بعضهم يزعم أن سليمان — وكانت فيه شدة — نفى عمر إلى الطائف[٢]، وأكثر من ذلك نرى بعضهم يزعم أن عمر بن عبد العزيز نفاه كما نفى الأحوص شاعر المدينة الغنائى إلى دَهْلَك[٣] ، وأبعد من ذلك أن نرى بعضهم يقول إن عمر غزا بالبحر فأحرقوا سفينته فاحترق[٤]. وهناك رواية تزعم أنه تعرض لسيدة فتغزل بها وهى تحج ، فدعت عليه ، فمات[٥].

وكل هذه فى رأينا فروض أملاها خيال الرواة ، وخاصة من قالوا باحتراق عمر حتى يجعلوه شهيدا ، ولعل أهم ما يدل على فساد ما يقال من أن سليمان نفاه إلى الطائف وأن عمر بن عبد العزيز نفاه إلى دهلك أنه لم يعش إلى عصرهما ، فقد روى أبو الفرج فى حديث بين الثريا والوليد بن عبد الملك عنه أنها قالت : يرحمه الله[٦] . ونحن نعرف أن

---

(١) أغانى ١/٧١ .
(٢) أغانى ٩/٦٧ .
(٣) أغانى ٩/٦٤ وانظر الشعر والشعراء ص ٣٤٩ ودهلك : جزيرة بالبحر الأحمر .
(٤) الشعر والشعراء ص ٣٤٩ .
(٥) أغانى ١/٢٤٧ وما بعدها .
(٦) أغانى ١/٢٣٧ .

الغريض فر إلى اليمن حين تعقب نافع بن علقمة المغنين فى عهد سليمان ولم يلبث أن توفى هناك ، ولو أن ابن أبى ربيعة كان حيا لحمى الغريض من نافع . وفى أخبار الغريض قبل فراره إلى اليمن أن الثريا مولاته ماتت ، وأنه أتى كثير بن كثير السَّهمى ، فطلب إليه يصنع فيها أبياتا لينوح بها على الثريا[1] . ومعنى ذلك أن الثريا تُوُفِّيَتْ إما فى أواخر أيام الوليد أو فى أوائل أيام سليمان ، ولو أن ابن أبى ربيعة كان حيًّا لرثاها ، ولطلب الغريض أبياته التى ينوح بها عليها من عمر لا من كثير السهمى . ومهما يكن فقد توفى عمر عن سن عالية .

٣

شعره الغنائى

يكتظُّ كتاب الأغانى بالأصوات أو الأدوار التى غنيت فى شعر عمر ، والتى اشترك فى غنائها كبار المغنين والمغنيات فى مكة والمدينة أثناء العصر الأموى . ويكاد الإنسان يؤمن بأن شعره كله قصد به إلى الغناء ، فقد كانت تغنيه فيه الجوارى فى بيته ، وكان يغنى فيه المغنون والمغنيات فى دور اللهو . وكان الحُجَّاجُ كلما ألموا بمكة ملأوا حقائبهم بهذا الشعر وأخباره ، وبماذا يقضون أوقاتهم ولياليهم الطويلة بعد انصرافهم من

---

(١) أغانى ١/٢٤٦ .

مناسك الحج سوى أن يسمروا ويتحدثوا ويغنيهم من حين إلى حين مغنٍّ أو مغنية بشعر عمر وأصحابه المكيين ؟ . وما يكاد المغنى ينتهى من غنائه حتى يبدأ السمر ، ويبدأ الحديث ، ويبدأ القصص عن عمر وأمثاله من أصحاب الشعر الغنائى .

ولعل هذا ما جعل القصص يكثر عن عمر ، فمخيِّلة القُصَّاص لعبت منذ حياة عمر نفسه بأخباره . ومن يرجع إلى ترجمته فى كتاب الأغانى يجد كل صوت يُرْوَى له ، تُرْوَى معه قِصَّة . ومن هنا كثر القَصَصُ عن عمر واختلطت صورته على الرواة القدماء أنفسهم كما اختلطت على الباحثين المحدثين ، لسبب بسيط ، وهو أن حياته امتدت أمام الناس لتتسع للتسلية والترفيه عنهم .

وربما كان أهم دليل على ما نزعم أننا إذا حاولنا أن نتبين خطوط أقاصيص حبه الذى عاناه ، والذى ذهب يعبر عنها فى شعره الغنائى لم نكد نتبيَّن منها شيئا واضحاً سوى قصة واحدة هى قصة حبه للثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد بن شمس . وكانت كما مر فى غير هـذا الموضع من شريفات قريش ، وهى — على ما يظهر — إحدى السيدات القلائل اللائى تَقَدَّمْنَ لحماية الفن فى عصرها ، ولم يكن حينئذ إلا الغناء وهذا الشعر الغنائى عند عمر وأمثاله .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم صلتها بالمغنين من جهة وعمر من جهة أخرى ، ففى دارها تخرَّج الغريض ويحيى قَيْل وسُمَيَّة من المغنين ،

كما مر بنا ، وفى دارها كانت تستقبل عمر ، وتستمع إلى أحاديثه ، وتسمر معه ، وكان لها ذوق أدبى ، فكانت تصطنع الشعر [(١)] . ولم تلبث أن تحولت الصداقة بينها و بين عمر ، وهو الآخر من أشراف قريش ومن أبناء عمها ، إلى ضرب من الحب والرضا والمودة ، فكانت تكثر من لقائه واستقباله والسمر معه فى مكة حين تكون فى مكة وفى الطائف حين تصيف فيها [(٢)] ، وكانت لا تجد فى ذلك حرجا . يقول عمر [(٣)] :

لم ترَ العينُ للثريّا شبيهاً ... بِمَسِيل التِّلاع يوم التقينا
أعملتْ طَرْفها إليَّ وقالتْ ... حَبَّ بالسائرين زَوْرًا إلينا
ثم قالتْ لأختها قد ظَلَمْنا ... إن رجعناه خائبا واعتدينا
فى خلاء من الأنيس وأمنٍ ... فشفينا غَلِيلَهُ واشتفينا
وضربنا الحديث ظهراً لبطنٍ ... وأتينا من أمرنا ما اشتهينا
فمكثنا كذاك عشراً تباعا ... فقضينا ديوننا واقتضينا
كان ذا فى مسيرنا ورجعنا ... علم اللهُ منه ما قد نَوَيْنا

وكانت الثريا جميلة [(٤)] ، فتعلق بها عمر ، وله معها حوادث كثيرة يروى أبو الفرج أطرافاً منها ، فتارة ترضى عنه فتزوره [(٥)] ، وتارة تغضب عليه [(٦)] ، وهى فى الحالين تمثل الإدلال والإعجاب بنفسها

(١) أغانى ١/٢٣٦ . (٢) أغانى ١/٢١٢ .
(٣) أغانى ١/٢٢٨ وانظر الديوان ص ١٠٦ .
(٤) أغانى ١/٢١٢ . (٥) أغانى ١/٢٣٢ .
(٦) أغانى ١/٢٣٠ .

وبجمالها . وغضبت عليه ذات مرة ، وامتنعت أن تلقاه ، فتولة عمر ، إذ رأى الفتاة الأولى فى مكة التى تعجب بفنه ، والتى تشتهر بذوقها قد انصرفت عنه ، وإنه ليفكر فى حبه من جهة وفى فنه من جهة أخرى ، فنراه يقول(١) :

مَن رسولى إلى الثريّا فإنى ... ضقتُ ذَرْعاً بهجرها والكتابِ
سلبتنى مَجَاجةُ(٢) المسك عقلى ... فسلوها ماذا أحلّ اغتصابى
وهى مكنونةٌ تحيّرَ منها ... فى أديم الخدّيْنِ ماء الشباب
أبرزوها مثل المهاة تهادَى ... بين خمسٍ كواعبٍ أترابِ
ثم قالوا تحبّها قلت بهرًا ... عددَ القَطرِ والحصَى والترابِ

ويروى أبو الفرج أن ابن أبى عتيق «سمع هذه الأبيات فى المدينة ، فقال : إياى أراد وبى نوّه ! لا جرم والله لا أذوق أكلا حتى أشخص ، فأصلح بينهما . ونهض ، ونهض معه مولاه بلال ، فجاء إلى قوم من بنى الدُّئل بن بكر لم تكن تفارقهم نجائب لهم يُكْرونها ، فاكترى منهم راحلتين وأغلَى لهم .. ثم ركب إحداهما وركب بلال الأخرى ، فسار سيراً شديدا ، فقال له مولاه : ابق على نفسك ، فإن ما تريد ليس يفوتك ، فقال له : ويلك (أبادر حَبْلَ الودّ أن يتقضّبا) وما حلاوة الدنيا إن تمّ الصدع بين عمر والثريا . وقدم مكة غير محرم ، فدق على عمر بابه

---

(١) أغانى ٢٢٢/١ . (٢) مجاجة المسك : يريد طيب ريقها .

فخرج إليه ، وسلم عليه ولم ينزل عن راحلته ، فقال له : اركب أُصالحك وبين الثريا ، فأنا رسولك الذى سألت عنه ، فركب معه وقدما الطائف . وكان عمر أرضى أمَّ نوفل ، فكانت تطلب له الحيل لإصلاحها فلا يمكنها . فقال ابن أبى عتيق للثريا : هذا عمر قد جَشَّمنى السفر من المدينة إليكِ ، فجئتك به معترفا لك بذنبٍ لم يجنه ، معتذراً لك من إساءته إليك ، فدعينى من التعداد والترداد ، فإنه من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون . فصالحته أحسن صلح وأتمه وأجمله[1] » . ورجع ابن أبى عتيق مع صاحبه إلى مكة ، ثم تركه إلى المدينة .

وأظن فى هذا الخبر ما يدل على حياة هذه الطبقة المترفة من أبناء قريش وبناتها ، أو من رجالها ونسائها ، فقد تحضر القوم وأصبح هناك الجوارى اللائى يدخُلن بين الرجال والنساء من أمثال أم نوفل ، وأصبحت المرأة القرشية ذات شخصية فى المجتمع الجديد . ولسنا ندرى فيم غضبت الثريا ؟ هل غضبت لأن عمر تغزل فى قرشيات غيرها ، أو غضبت لأنه ذكر فى غزله ما يشينها ؟ . أما الرواة فيقولون إنها غضبت عليه لأنه تغزل فى رملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية حين حجت[2] . وأكبر الظن أنه لم يذهب عن الثريا أن مثل هذا الغزل غزل عابر ، ولذلك كنا نميل إلى أنها غضبت عليه لإحدى اثنتين : إما لأنه لا يحتشم فى غزله معها ، وإما لأنه بدأ يتركها

(١) أغانى ١/٢٢٢ وما بعدها . (٢) أغانى ١/٢١٤ وما بعدها .

إلى فتاة أخرى فى مكة لعلها كلثم المخزومية التى اقترن بها ، ففى غزله أن الثريا كانت تود لو يكون لها بَعْلا(١) :

قد تمنيتِ أننى لكِ بَعْلٌ   قلت بل ليتنى بخدكِ خالا

ولسنا ندرى لماذا لم يحقق ابن أبى ربيعة للثريا أمنيتها ، لحياة عمر وحياة الثريا ليست مكشوفة لنا تماماً فى ديوانه . يقول(٢) :

خبّروها بأننى قد تزوّجتُ فظلّتْ تكاتم الغيظ سِرّا
ثم قالت لأختها ولأخرى   جزعاً ليته تزوّج عشرا
وأشارت إلى نساء لديها   لا ترى دونهن للسّر سترا
ما لقلبى كأنه ليس منى   وعظامى إخال فيهن فَتْرا
من حديثٍ نمى إلىّ فظيعٍ   خلتُ فى القلب من تَلَظّيه جَمْرا

فإذا صح أن هذه الأبيات قالها فى الثريا بعد زواجه من كلثم ، فإن عمر يكون حينئذ غير وفىّ لحبه . وفى أخباره أنه كان ملولا طَرِفا . على أنه ربما كانت الثريا هى التى امتنعت عليه ، فإن الرواة يحدثوننا أنها تزوجت من سهيل(٣) بن عبد العزيز بن مروان ، وأكبر الظن أنها اختارته على عمر ، ولعله من أجل ذلك تولى أسِفاً يقول(٤) :

---

(١) الديوان ص ١٤٠ .   (٢) الديوان ص ٢٣٤ .
(٣) أغانى ١/٢٣٣ .
(٤) أغانى ١/٢٣٤ .

أيها المنكحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا عَمْرَكَ اللهَ كيف يلتقيان
هى شاميّةٌ إذا ما استقلّتْ وسُهَيْلٌ إذا استقل يمانى

ويستمر الرواة ، فيقصون علينا لوعة عمر بعد زواج الثريا من سهيل وتدلهه ، وحرقة قلبه وفؤاده . ويروون له فيها هذه الأبيات الطريفة التى كتب بها إليها ، ينفث فيها حبه وشوقه[1] :

كَتَبْتُ إليكِ من بلدى كتاب مولَّهٍ كَمِدِ
كئيبٍ واكفِ العينيـ ـن بالحسرات منفرد
يُوَرِّقُهُ لهيب الشَّوْ قِ بين السَّحْرِ والكبدِ
فيمسك قلبه بيـ ـدٍ ويمسح عينه بيد

وبهذه الأبيات تنتهى قصة عمر مع الثريا فى كتاب الأغانى وفى ديوانه . وهى القصة التى تتضح خطوطها بين قصصه . أما بعد ذلك فلا نكاد نجد له على ألسنة الرواة قصة تتكامل .

على أن من يرجع إلى أخبار عمر فى الأغانى يجد اسم سيدة أخرى أكثرَ من الشعر فيها والتعلق بها ، وهى زينب[2] بنت موسى الجحية . وتدل أخبارها فى الأغانى على أنها من أهل المدينة ، فابن أبى عتيق هو الذى عرفه بها وأثنى على حسنها وجمالها[3] . وتتردد فى شعره بها أسماء

(١) أغانى ١/٢٣٥ . (٢) أغانى ١/٩٣ .
(٣) أغانى ١/٩٥ وأنظر الديوان ص ٤٧ — ٤٨ .

لمواضع بالمدينة مثل الصَّورين[١] وهو بالبقيع فى المدينة . ويظهر أن أول لقاء بينهما كان فى مكة ، فإنها خرجت مع أخيها إلى الحج ، فتعرض لها عمر وكفَّه أخوها قدامة أول الأمر[٢] ، ولكن أخته لم تلبث أن تعرضت له ، مدلة بجمالها وما وُهِبَتْه من إغراء وفتنة ، يقول عمر[٣] :

ما زال طَرْفى يَحَارُ إذ بَرَزَتْ ... حتى رأيت النقصان فى بَصَرى
أبصرتها ليلةً ونسوتها ... يَمْشِينَ بين المقامِ والحَجَرِ
قالت لترب لها تُحَدِّثُها ... لنفسدنَّ الطوافَ فى عُمَرِ
قومى تصدَّىْ له ليعرفنا ... ثم أغمزيه يا أخْتَ فى خَفَرِ
قالت لها قد غمزته فأبى ... ثم اسبطرَّتْ[٤] تسعى على أثرى
من يُسْقَ بعد المنام ريقتَها ... يُسْقَ بمسكٍ وباردٍ خَصِرِ[٥]

وانعقدت أواصر المودة بينهما فيما يظهر أثناء الموسم . فهى من شريفات قريش ونبيلاتهم اللائى يبرزن للرجال ويتحدثن معهم . وهى جميلة ، يغرى جمالها كل من رآها بالنظم فيها . وقد أعجبت بعمر ، كما أعجبت به من قبل فتاة مكة الثريا ، فالتقت به وأكثرت من اللقاء ،

---

(١) أغانى ١/١٠٥ وكذلك النعف ، انظر أغانى ١/١٨١ وهو موضع بالقرب من المدينة .
(٢) أغانى ١/٩٨ .
(٣) أغانى ١/١٠٣ .
(٤) اسبطر : أسرع .
(٥) خصر : بارد .

وكان المجتمع وما أصابه من تحضر يبيح ذلك ، ولا يجد فيه ما يشين الفتاة . وأخذ عمر يستخدم أفاعيه أو بعبارة أخرى جواريه اللائى كان يرسل بهن إلى من يهواهن ، يقول فى بعض غزله بها[١] :

لقد أرسلتُ جاريتى وقلت لها خذى حَذَرا
وقولى فى ملاطفةٍ لزينبَ نَوِّلى عمرا
فهزّت رأسها عجبا وقالت مَن بِذا أمرا
أهذا سحرك النسوا نَ قد خبَّرننى الخبرا

وفى أخبار الأغانى ما يدل بوضوح على أن أهل زينب لم يعجبوا بغزل عمر فى فتاتهم ، فطلبوا إليه منذ أول الأمر أن لا يتغزل بها . ولعل ذلك ماجعله يكنى عن اسمها كُنىً مختلفة ، فقد كنى عن اسمها بهند ، وتنبه أبو الفرج أو تنبه الرواة لذلك ، فأضافوا إلى أصواته فى زينب أصواتاً نوّه فيها بمن تسمى هندا[٢] . ومعنى ذلك أنهم لاحظوا أنه يريد بهند فى غزله زينب الجمحية . ومن يتتبع الأخبار التى تقرن بزينب يجدها تقرن بهند ، فعمر يذكر أنه أظل زينب فى يوم ماطر معه بثوب مورد :

وما نلت منها مَحْرَماً غير أننا كلانا من الثوب المورّد لابسُ

ونراه يكرر ذكر هذه الحادثة فى غزله بهند[٣] . وإذن فهند هى

---

(١) أغانى ١/٩٣ . (٢) أغانى ١/٩٩ .
(٣) أغانى ١/١٨٣ .

نفسها زينب الجحية . وقد أكثر من الحديث عنها فى ديوانه ، وتردد اسمها فى أصوات المغنين بمكة والمدينة . وربما كان مما يدل أيضا على أن هنداً هى نفسها زينب أننا نجد جارية تسمى « أسماء » تقترن فى الغزل بهما جميعا ، وكانت جارية لزينب[١] ، وهى غير أسماء جارية[٢] عمر . ومن الرسل أيضا بينهما بشرة[٣] وأروى[٤] وسليمى[٥] . وفى هذا ما يدل على أن الرواة لم يوفقوا حين زعموا أن عمر تغزل فيمن تسمى هندا[٦] بنت الحارث المرية ، فهو اسم لفقوه حين وجدوا اسم هند يشيع فى شعره ، ولم يجدوا أخباراً تكشفه لهم . ولسنا نشك فى أنها هى نفسها التى أرادها عمر بقوله[٧] :

قال الخليطُ غداً تصدُّعُنا ... أو بعده أفلا تُشَيِّعُنا
لتشوقنا هندٌ وقد علمتْ ... علماً بأنّ البَيْنَ يُفْزِعنا
عجباً لموقفنا وموقفها ... وبسمع تَرْبيها تراجعنا
ومقالها سرْ ليلةً معنا ... نَعْهَدْ فإن البين فاجعنا
قلت العيون كثيرةٌ معكم ... وأظن أن السير مانعُنا

(١) الديوان ص ١٥٣ .
(٢) أغانى ١/١٦٥ .
(٣) الديوان ص ٨٩ .
(٤) الديوان ص ١٣٠ .
(٥) الديوان ص ٥٥ ومن الرسل أيضاً بينهما قريب أو قريبة . انظر الديوان ص ١١ ، ص ١٠٦ ، ص ١٣٢ .
(٦) أغانى ١/١٥٤ وانظر ١/١٧٥ .
(٧) أغانى ١/٩٠ .

لا بل نزوركمُ بأرضكمُ فيُطَاع قائلكم وشافعنا

وهذه القطعة فى رأينا قالها حين همت زينب بالمسير من مكة ، أما ما يزعمه الرواة من أنه قالها فى فتاة لمحمد بن الأشعث فهو غير صحيح . وأكبر الظن أنه يريد بالعيون التى معها أخاها قدامة الذى مر ذكره . وتبعتها نفسه إلى المدينة ، والتقيا فى الصوْرَين ، ونعم بلقائها كما فى شعره وأخباره مراراً[١] .

وليس اسم هند هو الاسم الوحيد الذى اصطنعه لزينب ، وكناها به ، فقد كناها على ما يظهر كُنًى مختلفة . ولعل أهم كنية كناها بها بعد هند كنية نُعْم . واسم نعم هو الاسم الثانى بعد هند الذى يدور فى ديوانه وشعره . وتنبه أبو الفرج إلى أن نعما هذه جمحية[٢] ، ولكنه لم يربط بينها وبين زينب ، وكان ينبغى أن يلتفت إلى ذلك ، فحديثه إلى نعم فيه نفس الصبابة التى نجدها فى حديثه إلى هند أو قل إلى زينب . وأيضا فإن بعض القصص الذى يروى عنه مع هند يروى له مع نعم[٣] . وتنبه أبو الفرج نفسه فى موضع آخر من الأغانى إلى أن اسم نعم اسم رمزى[٤] ، وأن عمر قد يسمى صاحبة هذا الاسم باسم ذات الخال[٥] ، وأظننا لم ننس صلة ابن أبى عتيق بحب عمر لزينب ، فهو الذى

---

(١) أغانى ١/١٥٤ ، ١/١٧٥ وانظر ١/١٠٥ .
(٢) أغانى ٤/٢١٣ . (٣) انظر أغانى ٤/٢١٣ .
(٤) أغانى ٩/٢٣٩ وما بعدها . (٥) أغانى ٩/٢٣٩ .

وصفها له . ومن هنا كان ابن أبى عتيق[١] يتردد فى غزل عمر بالثلاث ، أو بالفتاة ذات الأسماء الثلاث زينب وهند ونعم ، بل ذات الأسماء والكنى الكثيرة ، فهى تكنى هندا ونعما وذات الخال وتكنى أيضا أو تسمى جُملا[٢] ، فهو يذكر مع جمل هذه البلاطَ وهو من نواحى المدينة ، وتكنى أيضا أو تسمى رامة[٣] ، وجاء فى بعض الأصوات :

حبكم يا آل نُعْمٍ قاتلى ظهر الحبُّ بجسمى وبَطَنْ

واستبدل الشطر الأول فى بعض الروايات هكذا (إن حبى آل ليلى قاتلى[٤]) . ولعل فى هذا ما يكشف عن العلاقة بين نعم وليلى فى الديوان ، فليلى اسم آخر سميت به نعم أو سميت به زينب . وإذن فلسنا فى حاجة إلى هذا القصص الذى يروى عنه وعمن تسمى ليلى بنت الحارث البكرية ، فهى مثل صاحبتها هند بنت الحارث المرية ، إنما اجتلبت لتفسر هذا الاسم ليلى الذى يدور فى شعر عمر .

وإن من يقف على مدى ما صنعه الرواة فى أخبار عمر من تلفيق لأسماء فتيات ونساء تغزل فيهن يعرف إلى أى حد تصاب الرواية الأدبية

---

(١) انظر أغانى ١/٩٥ وما بعدها وكذلك ٩/ ٢٤٢ وهو يذكره تارة باسم بكر وتارة باسم عتيق . انظر أغانى ٩/٢٤٢ والكامل للمبرد طبع رايت ص ٣٧٣ وانظر الديوان ص ١٩ .

(٢) الديوان ص ١٠٧ . (٣) انظر أغانى ٨/٢١٩ . وقد كنى عمر عن الثريا كثيراً باسم الرباب . انظر الديوان ص ١٨٠ إذ تذكر مع الثريا فى مقطوعة واحدة .

(٤) انظر أغانى ١/١٥٧ وانظر هنا الهامش .

فى كتاب الأغانى بالاضطراب . ولعل هذا الاضطراب لا يظهر فى أخبار ظهوره فى أخبار عمر، فقد كثرت الأصوات التى غنيت من شعره، وبالغ هو فى الرمز عن صاحبته زينب فاضطرب الرواة ، وأرادوا أن يثبتوا له فتيات ونساء تغزل فيهن ، ولم يجدوا أمامهم سوى التلفيق ، وأن يصطنعوا مثل هذه الأقاصيص .

وكانت زينب كالثريا مترفة غاية الترف ، فبيتها يكتظ بالجوارى ، ويكاد عمر لا يذكر لقاء بينه وبينها دون أن يذكر من كان معها من جواريها الحسان ، وما تغرق فيه من زينة الحلى وما يلون حياتها من نعيم ، حتى ليقول[1] :

لو دبَّ ذَرٌّ فوق ضاحى جِلْدِها ... لأبانَ من آثارهنَّ حُدُورُ

فهى منعمة مترفة مبالغة فى النعيم والترف ، حتى إن الذر لو علق بجسمها لبانت فيها من آثاره كلوم وحدور وجروح . وأظن فى هذا التصوير منتهى النعيم والترف .

ويظهر أن زينب تعلقت بعمر كما تعلقت به الثريا من قبل . وتعلق بها عمر تعلقاً شديداً لم يكد يُبْقِي فيه لأحد دونها بقية من ود أو حب ، حتى ليقول[2] :

ما أرى ما بقيتُ أن أذكر المو ... قفَ منها بالخَيْفِ[3] إلا شجانى

---

(١) الديوان ص ١٥ وانظر فى حليتها أغانى ١/٩٥ .

(٢) أغانى ١/٩٤ . (٣) الخيف : موضع عند منى .

لم تدع للنساء عندىَ حَظًّا غير ما قلتُ مازحاً بلسانى
هى أهلُ الصفاء والود منى وإليها الهوى فلا تَعذُلانى
حين قالت لأختها ولأخرى من قطينٍ مولَّدٍ : حَدِّثانى
كيف لى اليومَ أن أرى عمر المُرْ سِلَ سرًّا فى القول أن يلقانى ؟
قالتا نبتغى رسولا إليه ونُميت الحديث بالكتمان
إن قلبى بعد الذى نلتُ منها كالمعمىَّ عن سائر النسوان

وهذه اللهفة على زينب وأوقاتها ومجلسها نجدها دائما فى غزله ، وقد جذبته خيوط جمالها إلى موطنها المدينة ، فذهب إليها واستطاع لقرابته منها ، إذ يخاطبها دائما بابنة العم ، أن يصل إليها وأن يظفر منها بمجالس مع صواحبها ، واسمعه يقول[1] :

أيها الكاشحُ المعيِّر بالصَّرْ م تزحزحْ فما لها الهِجرانُ
لا مطاعٌ فى آل زينبَ فارجِعْ أو تكلَّمْ حتى يملَّ اللسان
نجعل الليل موعداً حين نُمسى ثم يُخْفى حديثَنا الكتمان
كيف صبرى عن بعض نفسى وهل يَصْـبر عن بعض نفسه الإنسانُ

فعمر لا يخشى الكاشح فى آل زينب ، فإنهم لا يأبون على ابن عمهم لقاء فتاتهم ، إذ كانت من شريفات المدينة اللائى من حقهن أن

(١) أغانى ١٠٢/١ .

يلقين الرجال وأن يبرزن لهم . ومرّ أن مجتمع مكة ومجتمع المدينة حظيا بضروب من الحضارة أتاح للمرأة حظوظا من الحرية ، وأعطاها حقوقا فى الحياة . ومهما يكن فقد أغرم عمر بصاحبته وتدلّه بها وذهب يروى قصة حبه لها والموضع الذى رآها فيه لأول مرة وهو الخَيْف ، فاستمر يردد ذكره فى شعره[1] :

دِينَ هذا القلبُ من نُعْمٍ بسَقامٍ ليس كالسُّقْمِ
إنَّ نُعْمًا أقصدتْ رجلا آمناً بالخَيْفِ إذ ترمى

وليس من ريب فى أن السهم تعمق فؤاده حتى الشغاف ، فإن عمر تبع صاحبته طويلا فى شعره وتبعه المغنون يغنون هذا الشعر الذى يُحدثه عمر فى زينب تارة باسمها الحقيقى ، وتارة أخرى باسمها المستعار هند أو نُعم .

ومهما يكن فنحن نستطيع الآن أن نفهم شعر عمر الغنائى فى صورة مقاربة ، فقد دار هذا الشعر حول فتاتين قرشيتين ، أو قل دار معظمه ، وهما الثريا وزينب . وكان حبه للثانية أشد عنفاً فإنها استغرقته ، استغرقت قلبه وفؤاده ، وكادت تنسيه من عداها من بنات ونساء جنسها وقومها من القرشيات .

ووراء هاتين الفتاتين فى شعر عمر تأتى صور أخرى لقرشيات وغير

---

(١) أغانى ٤/٢١٥ وانظر ٩/٢٤٣ .

قرشيات ، ولكنها صور عابرة التقطتها مخيلة عمر أثناء الحج . وفى ذلك يقول فى بعض شعره[(١)] :

ولم أرَ كالتجمير منظرَ ناظرٍ ولا كليالى الحج أفلتنَ ذا هوًى
فكم من قتيلٍ ما يُباء[(٢)] به دمٌ ومن غَلِقٍ[(٣)] رهناً إذا لفه مِنَى
ومن مالئٍ عينيه من شىءِ غيرِهِ إذا راح نحو الجمرة البيضُ كالدُّمى

ويظهر من شعر عمر ونظرائه أنهم كانوا يرصدون الحواج ، وكانوا يفردون للجميلات منهن صفحات فى دواوينهن . وقد أخذ الشاعر المكى فى هذه العصور يشبه تمام الشبه محفيّ عصرنا الحديث ، فكما أن هؤلاء يعنون بأن يمثلوا فى صحفهم صور المجتمع وأخباره بنسائه وفتياته ، فكذلك كان شعراء مكة فى العصر الأموى وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة ، فقد كانوا يعنون بأن يذيعوا صور نبيلات قريش اللائى يفدن على مكة وكذلك نبيلات العرب ؛ وأصبح عمر يرى فى الحج فرصة هائلة للاستعراض : استعراض الفتيات والنساء ممن اشتهرن بالجمال فى بلدانهن أو فى أنحاء العالم الإسلامى ، وكان يجد فى تتبعهن واستعراضهن لذة لا تقدّر ، ولعل ذلك ما جعله يقول[(٤)] :

ليت ذا الدهرَ كان حتماً علينا كلَّ يومين حِجَّةً واعتمارا

---

(١) أغانى ٩/٦٢ . (٢) يباء به : يقتل به .
(٣) غلق الرهن : لم يستطع الراهن افتكاكه .
(٤) أغانى ٩/٦٣ .

وعتب عليه عبد الله بن عمر حين أنشده هـذا البيت ، وقال له : أما تتقى الله ؟ فقال له عمر : بأبى أنت وأمى ، إنى وضعت ليتاً حيث لا تغنى . فعبد الله بن عمر يَعْجَب منه إذ يدعو أن تكون الأيام كلها حجا وعمرة ، وهو لا يريد الحج والعمرة من حيث هما ، وإنما يريد ما يحملان إليه من النسوة الجميلات . ومر فى غـير هذا الموضع أنه كان يخرج فى طريق ذات عِرْق يتلقى العراقيات ، وفى طريق الـكديد يتلقى الشاميات وفى مَرّ يتلقى المدنيات ، ويعود معهن فيشترك فى رمى الجمار والطواف ليطلع عليهن . يقول فى بعض شعره[1] :

يقصد الناسُ للطواف احتساباً وذنوبى مجموعـةٌ فى الطوافِ

ويخيل إلى الإنسان أن عمر لم يترك قرشية جميـلة تحج إلى مكة دون أن يتغنى بها ، ويصف محاسنها وفتونها .

وهـذا كله إنمـا كان يأتى فى شعره عرضاً ، وإن كان عمر على ما يظهر ، قد بالغ فى الوقوف عند الحواج وفى استعراضهن بنفس الشكل الذى قد نجده عند بعض الصحفيين حين يعلنّ عن بعض النساء اللائى لا يُحْبِبْنَ الإعلان عن أنفسهن .

ووراء فتاتى عمر وحواج قريش و بعض شريفات العرب ، نجد فى شـعره الغنائى غزلا فى جاريتيه بغوم وأسماء[2] . وأكثر من ذكر

(١) عيون الأخبار ٤/١٠٧ . (٢) أغانى ١/١٦٥ .

الثانية والتشبيب بها واختلطت صورتها على الرواة ، فظنوا أنها سيدة حرة أحيانا[١] .

وعلى كل حال الصورة الأساسية فى شعر عمر هى الغزل بالثريا وزينب ، وقد عبّر عما كانا فيه من ترف ونعيم ، وما تميز به المجتمع حينئذ من حرية تحت تأثير الحضارة الجديدة التى دخلت مكة والمدينة وما صاحبها من الجوارى الأجنبيات .

وليس من ريب فى أن شعر عمر طريف من هذه الناحية إذ يصور تصويراً دقيقاً مبلغ ما أصاب المرأة القرشية فى عصره من تحضر ، وما طُوِى فى هذا التحضر من ترف ونعيم . وكان ذوق عمر نفسه ذوقاً مترفاً غاية الترف ، فيه دقة ، وفيه حساسية شديدة ، وفيه أدب وظرف ، واستمع إليه يقول[٢] :

ليت حظّى كطَرْفة العين منها ... وكثيرٌ منها القليلُ المُهَنَّا
أو حديث على خلاء يُسَلِّى ... ما يُجَنُّ الفؤاد منها ومنَّا
كبرتْ ربِّ نعمةً منك يوما ... أن أراها قبل الممات ومَنَّا

فهو يرقّ فى أمانيه رقة شديدة هى رقة الرجل المتحضر الذى نشأ فى الترف والزينة ، بل الذى غرق فيهما ، غرقت عينه وغرقت نفسه .

وارجع إلى هذا الشعر الذى أنشدناه كله لعمر ، فإنك ترى فيه

---

(١) انظر أغانى ١/١٣٤ . (٢) أغانى ١/١٤١ .

آثار هذا التحضر وهـذا النعيم سواء فى أحاديث المرأة التى يقصُّ عمر أحاديثها ، أو فى تصوير نفسيتها ووصف خواطرها . ونفس عمر يتراءى شابا مترفا غاية الترف ؛ فيه إدلال المترفين وفيـه تيههم وعُجْبهم . ولعل لنشأته أثراً فى ذلك ، فقد كان وحيد أمه ، وكانت غريبـة عن مكة ، فكان كلّ شىء فى حياتها . وورثا معًا ثراء عظيما ، فدللته ، ونشّأته على الإدلال والإعجاب بالنفس ، وتصادف أنه كان جميلا . وليس بين أيدينا من الوثائق ما نعرف به إلى أى حد كانت أمه تعنى بملابسه وعطوره ، ولـكن تقدم أنه كان يعنى ، وهو كبير ، بحلله وزينته وطيبه . وأكبر الظن أنه بدأ ذلك فى حداثته واستمر معه فى بقية حياته . وماذا نريد إلى أم مات زوجها ، ولم يبق لها من دنياها إلا هذا الطفل الصغير ؟ إنها لابد تبالغ فى زينته ، وخاصة إذا كانت مثل أمّ عمر قد ورثت كثيراً من الذهب والفضة .

وهذه النشأة المترفة عند عمر ، أو قل هذا الذوق المترف هو الذى طبع شعره بطابع الإدلال والإعجاب بالنفس مما جعله فى كثير من جوانبه لا يصور فقط حبه للمرأة وما يلاقى فيه من عذاب وحرمان وما يتعطش إليه من وصل ولقاء ، وإنما يصور أيضاً حبها هى له وعذابها فى الحب ورغبتها الشـديدة فى رؤيته ولقائه . ولاحظ القدماء ذلك ، فقالوا إنه يتغزل بنفسه لحسنه وجمـاله[1] . وفى أخباره أنه أنشد ابن أبى عتيق :

(١) خزانة الأدب ٢/٤٢٠ .

بينما يَنْعَتْنَنِي أَبْصَرْنَنِي   دون قِيد المِيلِ يعدو بى الأغَرّْ
قالت الكبرى أتعرفن الفتى   قالت الوسطى نعم هذا عُمَرْ
قالت الصغرى وقد تيَّمتُها   قد عرفناه وهل يَخْفَى القمرْ

فقال له ابن أبى عتيق : أنت لم تَنْسُب بها وإنما نَسَبْتَ بنفسك ، كان ينبغى أن تقول : قلت لها فقالت لى ، فوضعت خدى ، فوطئت عليه[1] . والمسألة فى الواقع لم تكن مسألة جمال عمر فحسب ، وإنما كانت مسألة ذوق مترف أفسد الشعور الطبيعى عند عمر ، فجعله يشعر بجماله أمام المرأة ، أو قل بشخصيته ، فإذا هو يجعل نفسه شغل الفتيات الشاغل ، فهن ينعتنه ويصفنه وكأنه ليس فى أذهانهن سواه ، وما يلوح لهن على فرسه من بعيد حتى تسأل كبراهن عنه ، فتجيب الوسطى هذا عمر ، وتكتفى بذلك ، فهو العلم الذى لا تجهله فتاة فى مكة . وأما الصغرى فقد تيمها ونفذ حبه إلى قلبها ، فأجابت : قد عرفناه وهل يخفى القمر ، كأنها تلوم أختها على التساؤل ، فهو الفتى الذى شغل فتيات مكة والذى يقول عنهن[2] :

وكُنّ إذا أبصرْنَنِي أو سمعْنَنِي   سَعَيْنَ فرقّعْنَ الكُوَى بالمحاجرِ

وهنّ لا يكتفين بالنظر إليه من الكوى أو من وراء الحجاب ، بل يسعين إليه ، ويحاولن أن يشعرنه بوجودهن وأن يستملنه . وهن

(١) أغانى ١١٨/١ .   (٢) الديوان ص ٢١٧ .

يستعملن فى ذلك ضروب الإغراء المختلفة من ابتسامة بالشفة أو إشارة بالعين ، يقول فى بعض غزله[١] :

أليستْ بالتى قالت لمولاةٍ لهـــا ظُهُرَا
أشيرى بالسلام له إذا هو نحونا خطرا

فهنّ اللائى يلحقنه ، وهن اللائى يتبعنه ، وهن اللائى يسلمن عليه من بعيد ، وهن اللائى يشرن إليه ، أو يغمزنه أثناء سيره . فعمر فى كثير من غزله هو المتبوع لا التابع والمعشوق لا العاشق ، قد تيم النساء وملأهن صبابة به وحبا ، حتى الثريا وزينب فإنه يصف دائما إعجابهما به وطلبهما له وأخذهما الموعد منه[٢] . ومن الطريف فى هذا الصدد أن نجده كثيراً يذكر الوشاة والواشين على عادة المحبين ولكن لا ليشكو منهم ، وإنما ليبث شكوى صواحبه ، فهن اللائى يتحدثن بالشكوى منهم . يقول فى بعض غزله بزينب[٣] :

ولما التقينا سلّمَتْ وتبَسّمتْ وقالت كقول المُعْرِضِ المُتَجَنّبِ
أمن أجل واشٍ كاشحٍ بنميمةٍ مشى بيننا صَدّقته لم تكذّبِ
قطعت وصال الحبلِ منا ومن يطع بذى ودّهِ قول المحرّشِ يُغتِبِ

فهو لا يطلب الوصل من صواحبه ، وإنما هن اللائى يطلبنه ،

---

(١) أغانى ١/٩٢ .
(٢) الديوان ص ٨٠ — ٨١ . (٣) الديوان ص١٧٨ .

ومن ثم هن اللائى يعلنّ الشكوى من الوشاة والواشين ، ويظهرن الألم من سماع محبوبهن لهم وإيمانه بما يقولون . وتتكرر هذه الصورة كثيراً فى شعر الثريا وزينب .

وعلى هذا النحو تطلبه المرأة دائماً فى غزله ، فهى عاشقة له تتمنى قربه ولقاءه ، وتفتنّ فى ذلك فنوناً من اللهو البرىء ، فترسل إليه بالرسل ، يقول فى بعض غزله لزينب (١) :

إن هنداً قد أرسلتْ　　وأخو الشوق مُرْسِلُ
أرسلت تستحثنى　　وتفدّى وتعذُلُ

والرسل فى ديوانه بينه وبين محبوباته كثيرة كثرة مفرطة ، وهو يصور فى ثنايا ذلك كله تعلق النساء به وتساقطهن عليه من كل جانب . ولا ريب فى أنه يرضى بذلك دَلَّه وتيهه وغروره وهذا الذوق المترف الجديد الذى يجعل الرجل يشعر بنفسه أمام المرأة ، ويحس أنه المعشوق لا العاشق ، حتى ليأخذ مواقف المرأة فى حبها ، فيطلب أن لا تبوح باسمه (٢) :

ألم تعلمى ما كنت آليت فيكمُ　　وأقسمتِ لاتحكين ذا كرةً باسمى

فهو لا يريد أن يُعْرَف اسمه ، ولا أن يذيع سره (٣) . وأثناء ذلك

---

(١) أغانى ١٨٣/١ .　　(٢) الديوان ص ٧٨ .
(٣) الديوان ص ٨٥ .

كله يحكى صبابة المرأة به وجهدها فى استرضائه[1]. وقد استطاع فى خلال هذا أن يصور كل ما يدور بنفس المرأة من خلجات وترهات وأفكار مضطربة مختلطة حينا ومتناقضة حينا آخر. وليس من ريب فى أن هذا الجانب وما يتصل به من وصف عشق المرأة له أهم شىء يميز غزل عمر وشعره من جميع الغزلين فى العربية.

واتخذ عمر لذلك طريقة امتاز بها هى حديث صاحبته مع جواريها أو صديقاتها، وأثناء هذا الحديث يكشف لنا عن حب صاحبته له وخلجاتها فى هذا الحب، كما يكشف لنا عن أفكار المرأة فى مجتمعه وكل ما يميز هذه الأفكار من اختلاط واضطراب. وهذا لاشك يفيض على شعره حيوية، ففيه قرب من الواقع، وفيه هذا القصص عن النساء الذى يكشف عن نفسياتهن وما يضطربن فيه من أفكار وما تموج به أحاديثهن من متناقضات.

على أن عمر حين نزع هذا المنزع فى غزله فأكسبه هذا الحوار بين النساء الحجازيات فى عصره أو قل هذا القصص غير المتكامل، فليست هناك عقدة، وليست هناك قصة بالمعنى المألوف، وإنما هناك حوار وضرب من القصص غير التام، حين نزع هذا المنزع أصبح يشبه القصصيين من بعض الوجوه، فقلّ الغموض فى غزله،

---

(١) انظر الديوان ص ٣٧.

لأنه كشف لنا عن كثير من الحقائق ، وحاول أن يستخدم تجربته ومعرفته بمجتمعه وبالمرأة فى عصره ، وكأنما كان يحاول أن يزيل الحجاب عنها وعن نفسها .

وفى رأينا أن هذه المحاولة لم تكن تامة ، فإنه حاول ذلك من خلال الإعجاب بنفسه وما تميز به من دلٍّ وتيهه . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية اضطره هذا الاتجاه الجديد فى غزله ، اتجاه القصص ، إلى أن يدخل بنا فى تخيلات كعادة القصاصين ، فهم يخرجوننا من عالمنا إلى عالم ملىء بتخيلاتهم .

ومن هنا يكون من المبالغة أن نسمى بعض شعره غزلا إباحيا ، فلا إباحية فيه ، إنما فيه القصة وخيال القصاص . ولعل هذا قد غاب عن القدماء فقد اضطربوا فى عمر : أعفيف هو أم غير عفيف[1] ، ونسوا أن ابن عباس كان يحفظ كثيراً من شعره كما قدمنا فى غير هذا الموضع ، وكأنه عرف أن عمر إنما يقص ويحاول أن يبرز ، كعادة القصاصين ، العناصر العاطفية فى المجتمع .

وهذه الروح القصصية التى أملت هذا الشعر الغنائى لعمر تعاونت مع طبيعة هذا الشعر لا فى قربه من النفوس فحسب ، بل فى قربه أيضا من الألسنة ، فمن أهم ما يميز هذا الشعر الذى أنشدنا كثيرا منه أن لغته مألوفة ، وأكبر الظن أنها كانت من نفس لغة الناس اليومية .

---

(١) أغانى ١/٧٤ وما بعدها وانظر الحيوان ٢/٨٣ .

نستطيع إذن أن نقول إن الشعر الغنائى الذى كان يُغَنَّى هذا العصر فى المجالس والنوادى ظفر عند عمر بنوعين من التطور يتلاءمان والجمهور الذى يستمعه ، أما النوع الأول فهو هذه الروح القصصية التى تعبر عن مشاعرهم فى وسطهم ، وكأن عمر يريد أن يكون وسيطا بينهم وبين أفكارهم وتخيلاتهم ، وأما النوع الثانى فهو اتخاذ لغة هذا الشعر من لغة حياتهم اليومية . وبذلك أصبح الشعر الغنائى عند عمر يعبر عن محيط المكيين تعبيراً دقيقاً ، محيط مجتمعهم وما فيه من أفكار مضطربة متناقضة ، ومحيط لغتهم فى حياتهم التى تجرى تحت أعينهم .

وأتاحت طريقة الرمز التى رأيناها عند عمر فى زينب أن يتوسع فى خياله وفى أقاصيصه . ومن يدرى لعله كان ينسى أحيانا أثناء هذا الرمز صاحبته التى يقول فيها ، فيعمد إلى القصص الخيالى عن نُعْم وهند ونحوهما من الرموز الكثيرة فى ديوانه وشعره .

والذى نريد أن ننفذ إليه من هذا كله أن عمر توسع فى قصصه ، وأن هذا القصص دعاه إلى أن يستخدم اللغة المألوفة ، كما تدعو إلى ذلك طبيعة القصص دائما ، وكان أكثر المغنين فى شعره من الأجانب ، فكان من الطبيعى لهذا كله أن تكون لغته قريبة دانية ، إن لم تكن مماثلة ، لنفس اللغة اليومية .

والشعر الغنائى فى الواقع من هذه الناحية شعر شعبى ، فهو شعر

يراد به إلى مسارح الشعب ، ونقصد المسارح الغنائية التى يختلف إليها . فهو شعر يخاطب الشعب فى صورة واسعة ، ولذلك يختاره أصحابه من لغته ، ولعل ذلك ما جعله يتطور فى أقصى الغرب إلى الموشحات والأزجال .

وهذه الملاحظة فى لغة الشعر الغنائى عند عمر تضاف إليها ملاحظة ثانية ولكنها لا تتصل بلغته ، وإنما تتصل بأوزانه وقوافيه ، فإن من يقرأ ترجمة عمر فى كتاب الأغانى ويستعرض الأصوات التى غنى فيها المغنون يلاحظ أن أكثرها من الأصوات الخفيفة السهلة . وفرق بعيد جداً بين ديوان كديوان الفرزدق فى هذا العصر وديوان عمر ، فالأول يميل إلى الأوزان الضخمة غير المألوفة ، كما يميل أيضاً إلى الإغراب فى لغته وتراكيبه ، أما عمر فإنه يطلب الخفيف القريب فى اللغة وفى الوزن جميعا ، وقلما نجده يميل إلى الأوزان الطويلة المعقدة .

وكان أهم المغنين الذين يغنون فى شعر عمر ابن سريج والغريض وكلاهما كما قدمنا كان يميل إلى الغناء الخفيف ، فطبيعى أن يوفر لهما ذلك الجانب الشاعرُ الذى يغنيان فى شعره . ويمكن لتوضيح ذلك أن يقارن القارئ بين عمر وابن سريج والغريض من جهة وبين الأحوص فى المدينة ومغنيه معبد من جهة أخرى ، فقد كان معبد يميل إلى الأوزان الطويلة والصوت الضخم الممتلىء ، وكذلك كانت جميلة مغنية المدينة

كما يظهر من استعراض الأصوات التى تغنت فيها ، وكان لذلك أثره فى الأحوص ، فإن شعره يميل إلى الطول وقلما يعنى بالأوزان الخفيفة أو المجزوءة .

وعلى العكس من ذلك كان عمر يعنى عناية شديدة بالأوزان الخفيفة السهلة القريبة التى تطير عن الشفاه طيراناً ، والتى تكاد تنحلّ بنفسها غناء خالصاً .

ومهما يكن فإن عمر استطاع أن يوفر لشعره الغنائى ضروبا واسعة من التلاؤم بينه و بين حاجة المغنين فى عصره ، وهى ضروب وقفت عند الوزن ولم تتعدّه إلى القافية ، فإن التعديل فى القوافى تحت تأثير الغناء إنما تقوم به فيما بعد الأندلس . أما هنا وفى مكة أثناء العصر الأموى فإن التعديل وقف عند اختيار الأوزان الخفيفة من مثل الهزج والوافر والمتقارب والرمل والسريع والخفيف ، وإيثارها على الأوزان المعقدة الطويلة غالباً إلا أن تُجَزَّأ وتُقَصَّر ، وتقلّ كميتها على نحو ما هو معروف فى مجزوء الكامل ومجزوء الرجز . على أن عمر لم يكتف بمجزوءات البحور الطويلة ، فقد ذهب يجزّئ فى البحور الخفيفة نفسها . فكان كثيراً ما ينظم على مجزوء الوافر من مثل قوله[1] :

---

(١) أغانى ١/٣١٢ وانظر ١/٢٣٠ ، ١/٣٠٣ ، ١/١٨٢ .

تبعتهمُ بطَـرْف العيْـنِ حتى قيل لى افتضحا
يودِّع بعضـنا بعضاً وكلٌّ بالهوى جُرِحَا

وكذلك المجزوءات الأخرى من مثل مجزوء الخفيف[1] ومجزوء[2] الرمل . وعمر يتميز فى هذا الجانب تميزاً واضحاً . وقد جاءه من هذه الملاءمة بين شعره و بين الغناء الخفيف عند ابن سريج والغريض .

والحق أن ابن أبى ربيعـة نهض بالشعر الغنائى فى عصره نهضة واسعة سواء من حيث ما أشاع فيه من الروح القصصية ، أو من حيث ملاءمته بين لغته ولغـة جمهور السامعين ، أو من حيث ملاءمته بين أصواته وألحان المغنين .

ومن أجل ذلك كله يعد عمر زعيم هذا الفن من الشعر الغنائى فى العصر الأموى غير مدافع ، فقد أتاح له ضروبا من التطور وفنونا من الرقى فى المعانى والأفكار ، وفى اللغة والألفاظ ، وفى الأوزان والبحور .

٤

ديوانه

ترك عمر ديواناً كبيراً فى الشعر العربى يندمج كله فى هذه الصورة التى وصفناها لشعره الغنائى . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعره كله شعر

---

(١) أغانى ١/٥٨ ، وانظر ١/١٧٢ ، ١/١٨٣ .
(٢) أغانى ١/١٧٨ .

غنائى قصد به إلى الغناء قبل أى شىء آخر . وماذا تريد من سيد شريف من أشراف مكة وثرى من أثريائها فى العصر الأموى ينظم الشعر ويجيد نظمه ؟ إنه لا شك إنما يقصد به إلى التعبير فى حرية عن نفسه وعن مجتمعه ، وقد تعلق بقصة الحب التى شغلت حياته فصورها لنا بجميع أطرافها المختلفة .

فعمر ، كما رأيناه ، كان يعنى بوصف العناصر العاطفية لمجتمعه ، وقد تعلق بطبيعة المرأة يرسمها فى الشخصيات التى تعرف عليها ، عن طريق هذا الحوار الذى امتد به فى شعره والذى احتفظ به كتاب الأغانى ، كما احتفظ به ديوانه . فلا فارق مطلقا بين هذا وذاك ، إذ الكل ينبع من معين واحد ويريد له الشاعر غاية واحدة ، هى وصف المرأة فى عصره وصفاً يطلعنا على جميع مشاعرها ، بل لعله يطلعنا على القوى المحركة للمجتمع كلها ، ونقصد قوى التحضر والحياة الاقتصادية حينئذ .

ومن هنا تأتى أهمية ديوان عمر ، فهو يصوّر لنا قصة القلب الإنسانى كما كانت تنسج خيوطها فى هذا العصر وأيضا يصور لنا قصة المجتمع بجميع فصولها ورسومها وكل ما يُطْوَى فيها من خصائص وسمات . واستعان عمر فى ذلك بمخيلته كما رأينا وهذا الحوار المفتوح الذى لا يُغْلَقُ فى ثنايا ديوانه .

وعقلية عمر من هذه الناحية تشبه عقلية القصّصيين الذين يقصون

علينا فصول الحياة كما تقع فى أخيلتهم ، وهم لا يعزلونها عن الحياة الواقعية بل هم يستمدونها منها ، وكذلك كان عمر يستمد حواره الذى فتحه فى ديوانه من تجار به وخبراته التى شاهدها فى حياته .

ولم يستطع عمر أن ينفذ إلى القصة بمعناها الكامل من عقدة أو حبكة روائية ، لأن فكرة القصة على ما يظهر لم تكتمل فى نفسه ، لسبب بسيط ، وهو أنه كان يريد بهذا الشعر ، الذى يصنعه ، الغناء ، وأن يدور على ألسنة المغنيات والمغنين .

فشعر عمر كله الذى يحتويه ديوانه شعر أُلِّفَ للغناء ، وحقا لم يُغَنَّ كله ، فهناك مقطوعات كثيرة منه لا نجدها فى كتاب الأغانى . على أنه ينبغى أن نحذر هذا الحكم ، لأن كتاب الأغانى إنما يسجل القطع التى لحنت تلحيناً ممتازاً لابن سريج والغريض وابن محرز وغيرهم من مغنى مكة ، ومعبد ومالك بن أبى السمح وجميلة من مغنى المدينة . أما بعد ذلك فلا بد أن قطعاً كثيرة من شعر عمر غنيت ولم يصلنا غناؤها بين هذه القطع الممتازة التى سجلها الرواة . ونفس الرواة يقولون : إن عمر كانت عنده جاريتان تغنيانه فى شعره على نحو ما تقدم فى غير هذا الموضع ، وكان ابن سريج والغريض يلزمانه لزوماً ، ولا يكادان يفارقانه إلا لماما .

ولهذا كله نظن أن المقطوعات الأخرى فى ديوان عمر التى لم يصلنا

غناء فيها، غُنِّيَ كثيرٌ منها، ولُحِّن، وخاصة أن عمر كما قدمنا كان ثريا ثراء مفرطا ولم يكن له شغل إلا هذا الشعر. ومرَّ بنا كيف كان يعطى المغنين فى تلحين بعض مقطوعات من شعره ألوف الدراهم.

وما أظن أن مثل عمر فى ثرائه وغنائه يترك قطعة من شعره دون أن تُغَنَّى وتلحن وترتفع بها أصوات المغنين والمغنيات فى داره وفى دور اللهو بمكة والمدينة.

وأكبر الظن أننا إذا قلنا بعد هذا كله: إن كل ما فى ديوان عمر شعر غنائى بالمعنى الكامل لهذه الكلمة، أى أنه غُنِّيَ، أو على الأقل أُلِّفَ لكى يغنى فيه المغنون، لم نكن مبالغين ولا متجاوزين للواقع فى شىء؛ فقد كان صاحبه يعيش للشعر والغناء جميعا. وكانت حياته تقوم على العناية بالفنين، أما عنايته بفن الشعر فعناية مباشرة، وأما عنايته بفن الغناء، فهى عناية مسبَّبة أو معللة بالفن الأول الذى وهبه حياته وأصفاه نفسه.

وديوان عمر من هذه الناحية طريف فى حياة الشعر العربى، فهو أول شاعر يرصد شعره كله للغناء، كما يرصد حياته كلها للمعيشة فى أوساط المغنين، والائتلافِ معهم ائتلافا تتقطّر نتائجه فى فنه. ومن هنا لا يكون غريبا إذا قلنا: إنه الشاعر الغنائى الأول بالمعنى الكامل لهذه الكلمة فى تاريخ لغتنا العربية.

ولعل أهم ظاهرة سقطت فى شعره وتجلت فيه تحت تأثير الغناء أنه ليس قصائدَ بالمعنى المألوف القديم الذى كنا نفهمه للقصيدة ، فليس فيه مقدمات أطلال ، وليس فيه شىء خارج عن غايته ، إنما هو شعر يؤلَّف فى الحب ، وهو يؤلف فى مقطوعات قصيرة ، لأنه يراد به إلى الغناء لا إلى الإنشاء . وإذا استثنينا القصيدة الأولى فى الديوان ، لم نجد بعدها قصيدة طويلة لعمر . وما لعمر وللطول ، وهو لا يريد أن ينشد المنشدون شعره فى المحافل والمجامع ، وإنما يريد أن يغنيه المغنون ، وهؤلاء لا يمتد نَفَسُهم إلى أكثر من خمسة أو ستة أبيات إلا فى القليل النادر ، وقد كان ابن محرز يأبى أن يغنى فى أكثر من بيتين .

وإذن فعمر لا يستطيع الطول فى شعره ، لأن المغنين لا يعطونه الفرصة ، ولأن هذا الشعر نفسه الذى يقدمه إليهم بطبيعته شعر محدود ، يصف خواطر الحب عند الرجل أو عند المرأة أو عندهما جميعاً وهى فى أصلها محدودة .

ومع ذلك فقد أتاح عمر لهذه المعانى أن تتسع وأن تطول قليلا بفضل هذه الروح القصصية التى عممها فى ديوانه والتى ذهب يصوّر فيها عواطف المرأة المتحضرة حين تحبّ ، وما يكون بينها وبين جواريها من أحاديث عن صاحبها تارة ، وعن صواحب أخرى يحسدنها عليه تارة أخرى ، وكذلك ما يكون بينها وبين صديقاتها من فنون قول .

وعمر طريف فى هذه الناحية طرافة بالغة فى ديوانه ، فكل

من يقرؤه يحس أنه كان على علم دقيق بطبيعة المرأة وما يعتورها من ضعف فى الحب . ومن هنا يُعْجَبُ بعمر كل من يقرأ ديوانه ، إذ يحس كأنه يقرأ لشاعر حديث من ذوقه ، فقد استطاع أن ينفذ من شعره إلى رسم صورة حية للمرأة فى عصره ، وهى صورة تتطابق معها فى كل عصر وكل زمن .

وعمر فى الواقع تُرْفَع الحواجز بينه و بيننا لهذا كله ، فقد استطاع أن يضع تحت أعين الناس صورة تتجدد لهم فى كل زمان ومكان ، ونقصد صورة المرأة وحبها ، أو قل بعبارة أدق صورة الطبيعة البشرية وكل ما فيها من نقص وضعف .

على أنه ينبغى أن نشير دائما إلى وجوب الحذر من أقاصيص الرواة ، فقد شوّهوا لنا عمر وشوهوا معه المرأة المكية والمرأة الحجازية بصفة عامة فيما قصوه عنه وعنها قَصَصًا يتجاوز الواقع فى أغلب صوره . وهو قصص أُريد به كما قلنا غير مرة إلى السمر فى المجتمعات والنوادى الأدبية . وأتاحت طبيعةُ شعر عمر وأنه شعر غنائى يُغَنَّى فى دور اللهو والسمر لحياة عمر وحياة المرأة فى عصره كلَّ هذا الخلط والتشويش اللذين نقرؤهما فى كتاب الأغانى عن عمر ووقائعه مع المرأة فى زمنه .

ومهما يكن فعمر فى ديوانه كما فى الأصوات التى غنيت من شعره متكامل الشخصية ، أو قل متكامل الأسلوب . ولسنا نعرف شاعراً

تتضح جميع خصائصه فى مقطوعاته المأثورة عنه كما تتضح فى عمر ، فدائماً تقابلنا نفس السمات ونفس الصفات ، ودائما يقابلنا نفس الشخصية ونفس الأسلوب .

وعمر من هذه الناحية يصور لنا تطوراً حقيقيا أصاب الشعر العربى فى عصره تحت تأثير الحضارة الجديدة ، إذ ليس من شك فى أن شعره لا يماثل الشعر القديم ، شعر القصيد . وهذا شىء طبيعى لأن مكة قد تحضرت وسيطر أبناؤها على العالم ، أو قل على أطراف كثيرة من العالم ، وكان كل قرشى يشعر بشىء من الزهو إزاء هذه السيطرة ، وأخذت نفسه تتغير تحت تأثير الحضارات الأجنبية التى صبّت فى بلدته ، وأصبح يتصور الحياة فى صورة تغاير صورتها القديمة فى عقل أجداده وذهن آبائه . ومن أجل ذلك كله أصبح من المحتم أن يتطور هذا القرشى لا فى حياته ، فقد تطورت ، وإنما فى فنه وشعره .

ولا ريب فى أن عمر ، أو قل ديوان عمر ، يصور هذا التطور تصويراً طريفاً ، فهو يقصّ علينا حبه ، ولكن لا نقرأ هذا القَصَص حتى نحسّ أننا بإزاء مجتمع متحضر ، تكاد تقطع الصلة بينه وبين مجتمعات البدو القديمة ، ففيه للمرأة من الحرية ما لم تكن تتمتع به المرأة القديمة ، كما أن لها من الترف ومن الجوارى اللائى يخدمنها ما لم تكن تتمتع به المرأة القديمة . وفيه بجانب ذلك دلال المرأة المترفة وغزلها

ونفسيتها بكل ما فيها من اضطراب وتناقض . وفيه أيضاً بجانب ذلك ما يصور حياة الشاب المترف ، حياة عمر نفسه ، وما انطبع فى قلبه لجماله وثرائه من زهو ودَلّ ، وما انطبع به من طابع دقة الحس ورهافة الشعور .

فديوان عمر إذن أهم ما يميزه أنه ثمرة حياة متحضرة ، استطاع أن يعبر عن جميع جوانبها فى نفسه ، كشاب متحضر ، وفى نفس المرأة المعاصرة له التى أترف ذوقها وأترف شعورها .

ويحسّ قارئ عمر إحساساً تاما بأن الأسلوب القديم للشعر قد هُجِرَ ، أو أصبح مهجوراً لسبب بسيط ، وهو أن الحياة القديمة قد هجرت ، فأصبح لا بد أن ينشأ أسلوب جديد يتلاءم والحياةَ الجديدة ، أو قل الحضارة الجديدة .

وفرق بين شعر يقال فى بيوت مكة القديمة وشعر يقال فى قصورها الإسلامية الحديثة وما تكتظّ به من جوار وإماء وما تُملأ به من ألوان حضارات فارسية أو رومية . ومن هنا كنا لا نَقرن ديوان عمر إلى ديوان شاعر جاهلى قديم إلا نجد الفرق واضحاً جدا ، وهو فرق الحياة وما أصابها من تبدل وما تمّ لها من تطور . وهل كان من الممكن أن نجد فى الشعر القديم مثل الثريا وزينب صاحبتى عمر ، وكل ما لهما من دلال ، وكل ما لهما من ثراء ؟ ونفس عمر هل كان من الممكن

أن نجده فى الشعر القديم بهذه الشخصية المتميزة التى تفرده عن أسلافه ؟ لقد كانت الحياة القديمة راكدة ، ولذلك كانت الصور الفنية راكدة أيضاً ، فكان فيها هذا التكرار الذى يشعر به كل من يقرأ الشعر الجاهلى ، وكان فيها هذا الجمود الذى يجعل أساليب الشعراء متشابهة .

وقد تبدل العرب فى مكة وتبدلت حياتهم القديمة ، وعاشوا معيشة جديدة ، ونجم بينهم عمر ليعبّر تعبيراً كاملا عن هذا التبدل وهذه المعيشة ، ومن هنا كان أسلوبه يخالف أساليب الشعر القديم ، فهو أسلوب تكامل له تحت تأثير حياة متحضرة جديدة ، فيها ترف بالغ ، وفيها هذا الغناء الذى حوّله المغنون إلى نظرية كاملة .

لم يعد عمر ينظم شعره بالأسلوب القديم ، ولذلك نَفَرَ من القصيدة وهجرها فى نماذجه ، واختار مكانها هذه المقطوعات القصيرة التى تقال لا لتُنْشَد كما كان الشأن فى الحياة القديمة ، وإنما تقال لتُغَنَّى ، ولتسمعها الطبقةُ المترفة التى نشأت فى مكة وفى أختها المدينة .

وهذا هو معنى ما نقوله من أن الشعر العربى عند عمر تطور ، فقد أصبح شعراً غنائيا بالمعنى الكامل ، وأصبح مقطوعات بعد أن كان قصائد ، وأصبح يُتَّخَذ من لغة قريبة ، لغة مألوفة للناس ، ليس فيها هذا الإغراب الذى نجده عند الشعراء القدماء ، وليس هذا فيها التعقيد فى

التراكيب الذى نجده عندهم أيضا . وإن من يبحثون عن اللغة القديمة والتراكيب القديمة أو قل الأساليب القديمة ينبغى ألا يبحثوا عنها فى مكة أو الحجاز ، بل يبحثوا عنها فى البصرة والعراق حيث كان جرير والفرزدق والناس من حولهما يجترُّون حياتهم القديمة . أما فى الحجاز وفى مكة ، فقد انصرف الناس عن حياة آبائهم القديمة وغرقوا فى ألوان من الترف والنعيم ، ولذلك أصبحت أساليب الشعر القديم لا تلائمهم ، فإما أن يهجروا هذا الشعر كله ، وإما أن يظهر لهم شاعر يعبر لهم عن حياتهم بأسلوب جديد . وكانت الحياة العربية من القوة بحيث لا يمكن أن يُهْجَرَ الشعر ، وكانت من القوة بحيث لا بد أن يظهر الشاعر الذى يعبر للناس عن حياتهم الجديدة بأسلوب جديد .

وكان عمر بن أبى ربيعة هو الشاعر الذى استطاع أن يهجر أساليب الشعر القديمة ، ويسوّى للناس مكانها أساليب جديدة تقوم على القرب والدنو منهم ومن لغتهم اليومية ، كما تقوم من طرف آخر على تصوير العناصر العاطفية التى يزخر بها مجتمعهم عن طريق تصوير حبه وحب المرأة المعاصرة له ، وما بثّ فى هذا التصوير من حوار ، كأنه استمده من قلب كل امرأة تتحدث عن فتاها . وهذا جانب فى شعر عمر أعطاه قربا من النفوس فى كل عصر ، وهو من هذه الناحية لا يكاد قارىء يلم به حتى يحس كأن عمر قريب منه ، فهو يدنو من جميع العصور ومن جميع النفوس . ويظهر أن ديوانه لم يصلنا كله ،

فطبعة ليبسك ، وهى أهم طبعاته ، نجدها تُفرد ملحقا لمقطوعات بلغت نحو المائة لم تكن فى الديوان ، وإنما كانت متناثرة فى كتب الأدب وعلى رأسها كتاب الأغانى . ومعنى ذلك أن طَرَفاً من الأصوات أو الأدوار التى غنيت من شعره لم يسجل فى ديوانه ، ولاحظ الذين وقفوا على طبع الجزء الأول من كتاب الأغانى — وهو الذى يحتوى ترجمة عمر — فى أكثر الأصوات التى غنيت من شعره اختلافا كثيرا بين رواية الصوت ورواية الديوان[١] ، كما لاحظوا أن ترتيب الأبيات فى الصوت أو فى الدور قد يختلف مع ترتيبها فى مقطوعتها من الديوان[٢] . ولاحظوا أيضا أن أبيات الصوت قد تلفّق من مقطوعتين[٣] ، وأن الصوت قد يكون فيه بيت ليس لعمر[٤] ، ومن قبل لاحظ أبو الفرج هذه الملاحظة[٥] . ولعل فى هذا الجانب ما يدل على عمل المغنين فى شعر عمر ، وكيف أنهم كانوا يستبدلون أحيانا بعض ألفاظه ، وقد يضيفون إلى أبياته بيتا جديدا ، يتراءى لهم أنه يكمل المعنى أو يحدث فيه طرافة . ومهما يكن فإن ديوان عمر بن أبى ربيعة يشف عن

---

(١) انظر مثلا أغانى ١/٩٤ ، ١/١٠٤ ، ١/١٢٥ ، ١/١٥١ ، ١/٢٠١ .

(٢) انظر أغانى ١/١٨٠ وكذلك ١/١٨٣ ، ١/٢٣٧ .

(٣) انظر أغانى ١/١٨٧ .

(٤) أغانى ١/٩٥ وكذلك أغانى ١/١٧٠ ، ١/٢٤٢ .

(٥) أغانى ٤/٢١٣ .

شخصية صاحبه ، وعن عصره ومجتمعه وكل ما فيه . واستطاع عمر حقا أن يتميز من شعراء عصره والعصور التالية بهذه الروح القصصية النادرة التى قلما نصادفها فى شعراء العربية . ومن الطريف أنه نفذ إليها من خلال هذه المقطوعات الغنائية القصيرة التى كان يتناولها منه ابن سريج والغريض وأمثالهما من المغنين ، أو قل إنَّ قِصَرَ هذه المقطوعات لم يَحُلْ بينه وبين ما أراد من تصوير عصره عن طريق هذا الحوار الذى عقده تارة بينه وبين من أحبهم ، وتارة بين أنفسهنّ وبين أخواتهن أو صديقاتهن أو وصيفاتهن وجواريهن .

وما نعرف فى العربية شاعرا استطاع أن يعيش حياته فى تصوير قصة الحب على هذا النحو الذى نجده عند عمر . قد يوجد بعض الشعراء الذين قصروا أنفسهم أو كادوا على تصوير حبهم مثل العباس بن الأحنف ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يتحول بحبه إلى هذه الروح القصصية وما يُطْوى فيها من حوار عند عمر .

ونحن نعيد ما قلناه من أن الرواة — كما يمثلهم كتاب الأغانى — أفسدوا هذه الروح عند عمر بما أضافوا إليها من أقاصيص ماجنة ، وكأنهم لم يفهموا عمر ولا فهموا روح عصره . والمسألة لم تكن أكثر من شاعر مجدد استجاب لنزعة الحضارة الجديدة فى عصره ، ونهض بتمثيل أمواجها بل بتمثيل ذرات هذه الأمواج أحيانا ، ونقصد أمواج العواطف والوجدانات . ومَثَّلَ عمر ذلك من خلال إحساساته

وإحساس المرأة المكية أو المدنية فى عصره .

وكان عمر لذلك كله موضع إعجاب الناس من حوله حتى الفقهاء من مثل ابن عباس كانوا يروون شعره ويتناقلونه ، لأنهم لم يجدوا فيه ما حمّله القصاصون بعدُ من عبث ومجون ، وإنما وجدوا فيه صورةً حيةً لعصرهم ومجتمعهم ، قد يكون فيها ظرف ، وقد يكون فيها مبالغة بحكم أن الشاعر ينقلنا إلى عالم يعتمد على القصص والخيال ، ولكن ليس فيها على كل حال ما ينافى العفة الثابتة[1] .

(١) أغانى ١/١١٩ وكذلك ١/٢٣٧ وزهر الآداب ١/٢٩٢ .

الفصل الخامس

ابن قيس الرقيات

١

اسمه ولقبه وعشيرته

اختلف الرواة فى اسم ابن قيس وهل هو عبد الله أو عبيد الله . وقد ذكره الجاحظ[١] والمبرد[٢] باسم عبد الله ، وكذلك ذهب مذهبهما المسعودى[٣] والمرزبانى[٤] والجوهرى والصحاح والفيروزبادى ، فى القاموس « مادة رقى » . وفى الخزانة عن خط الشاطبى أن الأصمعى وافق ابن قتيبة على أن اسمه عبد الله[٥] .

وذكره ابن سلام فى كتابه طبقات[٦] الشعراء — وهو أقدم نص ورد اسمه فيه — باسم عبيد الله ، وترجم له أبو الفرج فى الأغانى بهذا

---

(١) انظر الحيوان ٧/١٥٤ .
(٢) الكامل للمبرد ص ٣٩٧ .
(٣) مروج الذهب ٥/٢٥٠ .
(٤) الموشح ص ١٥٠ ، ١٨٦ ، ٢٢١ .
(٥) خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق ٣/٢٦٦ .
(٦) طبقات الشعراء ص ١٣٧ .

الاسم[١] . وفى الخزانة أنه عبيد الله ، ومن الرواة من يقول الشاعر عبد الله وهو خطأ[٢] . وأجمعت نسخ الديوان المطبوعة والمخطوطة بدار الكتب المصرية على أن اسمه عبد الله .

وكما اختلف الرواة فى اسم الشاعر اختلفوا فى علة تلقيبه بالرُّقَيَّات ، أما ابن سلام فقال : إنه سُمِّى بذلك لأن جدّات له توالين يُسمَّين رُقَيَّة[٣] . وقال ابن قتيبة : إنه لُقِّب بذلك لأنه كان يُشَبِّب بثلاث نسوة يقال لهن كلهن رقية[٤] . وقال أبو عبيدة : فى كتاب النسب سمى بذلك لأنه كان يشبب بامرأتين كل منهما تسمى رقية[٥] . وفى الخزانة قيل إن قيساً تزوج نسوة كل منهن اسمها رقية[٦] . وفى الصحاح والقاموس إنما أضيف قيس إلى الرقيات لأنه تزوّج عدة نسوة وافق أسماؤهن كلهن رقية .

ومن يرجع إلى أخبار الشاعر وشعره يؤمن بأنه أضيف إلى الرقيات لأن أكثر تشبيبه فيمن سمين رقية . ولعل فكرةَ أن أباه تزوّج عدة نسوة يسمين رقية ، وكذلك أن جدات له تتابعن يسمين رقية ؛ لعل

---

(١) انظر الأغانى ٥/٧٣ .
(٢) الخزانة ٣/٢٦٧ وانظر الولاة والقضاة للكندى ص ٥٢ .
(٣) طبقات الشعراء ص ١٣٧ .
(٤) الشعر والشعراء طبع دى جويه ص ٣٤٤ وانظر الأغانى ٥/٣٧ .
(٥) الخزانة ٣/٢٦٦ .
(٦) الخزانة ٣/٢٦٥ .

ذلك جاء من أن كلمة الرقيات أضيفت إلى قيس ، فهو يشتهر بين الرواة باسم ابن قيس الرقيات .

وينسب الرواة الشاعر على هذا النحو عبيد الله بن قيس بن شُرَيح ابن مالك بن ربيعة (وهو النويعم) بن أُهَيب [١] بن ضباب بن حُجَير بن عَبْد بن مَعِيص بن عامر بن لؤى بن غالب [٢] ، فهو قرشى إلا أنه ليس من قريشِ البِطاح ، إنما هو من قريش الظواهر . وإذن فعشيرته ليست من العشائر الثرية التى كان لها شأن عظيم فى أمور مكة أثناء العصر الجاهلى على نحو ما كان لقريش البطاح . ومع ذلك يظهر أنها كانت تشتهر بالبأس والشجاعة . فأبو الفرج يقول : كان يقال لبنى مَعيص بن عامر بن لؤى و بنى محارب بن فهر الأجربان ، وكانا متحالفين ، وإنما قيل لهما الأجربان من شدة بأسهما ، وعَرِّهما من ناوأهما كما يَعُرُّ الجَرَب [٣] .

وتسمى عشيرة عبيد الله باسم جده الثامن ، فيقال بنو مَعيص ، وقد تنسب إلى جده السابع فيقال بنو عَبْد [٤] ، و إلى جده الثالث ربيعة

---

(١) فى الديوان (طبع ڤيينا) ص ٦٧ : وهيب .
(٢) أغانى ٥/٧٣ وانظر الديوان ص ٦٧ .
(٣) أغانى ٥/٧٣ .
(٤) الديوان ص ١٨٧ ، ١٩٣ .

الملقب بالنُّوَيْم ، فيقال بنو النويم[١] . ويفتخر عبيد الله بعشيرته فى ديوانه كما يفتخر بقرشيته ، فيقول[٢] :

نحن الصريحُ إذا قُرَيْشٌ قام منها النَّاسبُ
من سِرِّها وأُرُومها إذ للأروم مراتبُ

وكما يذكر عشيرته الأقربين يذكر أبناء عمهم مالك[٣] بن حِسْل ابن عامر ، وأيضاً فإنه يذكر بنى جابر بن وهب بن ضباب و بنى شبل ابن عبيد بن منقذ بن عمرو بن معيص[٤] ، وهو شديد الاعتزاز بهم جميعا .

وأمُّ عبيد الله قتيلةُ بنت وهب بن عبد الله بن ربيعة من بنى ليث ابن بكر بن عبد مَناة ، وقد افتخر بأخواله فى ديوانه[٥] كما افتخر بأهله . وكان له أخ يسمى عبد الله[٦] ، ولعل ذلك ما جعل الرواة يخلطون فى اسمه ، وأعقب عبيد الله أبناء مختلفين ، منهم سعد وأسامة وقد قتلا فى موقعة الحرة مع طائفة من عشيرتهما ، ورثى القتلى جميعا عبيد الله رثاء حارا[٧] . وفى أخباره أن أُثيلة بنت مسافع زوجة أسامة كان لها

---

(١) الديوان ص ١٩١ .
(٢) الديوان ص ١٢٥ .
(٣) الديوان ص ١٨٧ ، ٢١٣ .
(٤) الديوان ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .
(٥) الديوان ص ٢٤٤ .
(٦) تاريخ دمشق لابن عساكر (المخطوطة التيمورية بدار الكتب المصرية) مجلد ٢٥ الورقة ٢٠٨ .
(٧) الديوان ص ١٨٤ وما بعدها .

منه قيس وعقبة ومحمد ، وقد لجأت بهم بعد موقعة الحرة إلى عبيدالله[١] .
ولعل فى هذا ما يدل على أن عبد الله كان قد فارق الحياة وإلا لجأت إليه زوج أسامة ولم تلجأ إلى عبيد الله .

وليست لدينا أخبار واضحة عن أزواج عبيد الله ، وهو يذكر فى ديوانه زوجة كنانية[٢] ، ولكننا لا نعرف شيئاً عن هذه الكنانية .
وزعم صاحب الخزانة أنه لم يكن له عَقِب[٣] ، ولكن من يرجع إلى ديوانه يجد وصيته موجهة إلى شخصين يسميان شُرَيحاً ومِحْصَناً ، وهى أشبه بأن تكون وصية أب لابنيه ، إذ يقول[٤] :

أُوَصِّى شُرَيحاً إن هلكتُ ومِحْصَناً بعونٍ عَلَى الجُلَّى وتَرْكِ المحارمِ
وذبٍّ عن الجار الملبَّس حَبْلَهُ بحبليهما وبالحليف المقاسم
وإن حاربَ المولى فحاربْ بحربِهِ وإن سَالَمَ المولى عليك فسالِمِ

وفى الأغانى أنه كان له بنون ثلاثة و بنات ثلاث وأنه زوج البنين الثلاثة ببنات أخ له ثلاث ، كما زوج البنات الثلاث من بنى أخ له[٥] .

---

(١) الديوان ص ١٩٢ .
(٢) الديوان ص ٢٠١ — ٢٠٢ . (٣) الخزانة ٣/٢٦٥ .
(٤) الديوان ص ٢٤٧ . (٥) أغانى ٥/٩٣ — ٩٤ .

٢

حياته وأخلاقه وصفاته

نشأ ابن قيس الرقيات فى مكة ، ولكن يظهر أنه تركها فى مقتبل عمره إلى المدينة ، ومع ذلك فقد ظل يتردد عليها وعلى منزله [١] فيها .

وليس بين أيدينا معلومات واضحة عن هذه الفترة الأولى من حياته إلا ما يرويه فَنْد المغنى وهو من مغنى المدينة فى الصدر الأول [٢] قال : «حجّت رُقَيّة . . . فكنت آتيها وأحدثها فتستظرف حديثى وتضحك منى ، فطافت ليلةً بالبيت ، ثم أهوت لتستلم الركن الأسود وقبلته ، وقد طفت مع عبيد الله بن قيس الرقيات ، فصادف فراغنا فراغها ، ولم أشعر بها ، فأهوى ابن قيس يستلم الركن الأسود ويقبّله ، فصادفها قد سبقت إليه ، فنفحته برُدْنها [٣] ، فارتدع ، وقال لى : من هذه ؟ فقلت أو لا تعرفها ؟ هذه رقية بنت عبد الواحد بن أبى سعد ، فعند ذلك قال :

مَنْ عَذيرى ممن يضنّ بمبذو   لٍ لغيرى علىّ عند الطوافِ » [٤] .

ولا نجد بعد ذلك فى أخبار ابن قيس حادثة تتصل بحياته فى مكة . وتركها ، على ما يظهر ، إلى المدينة مع جماعة من أهله ، فإننا نجد هناك أولاد أخيه عبد الله وقد قُتِلَ منهم اثنان فى موقعة الحرة كما أسلفنا .

(١) أغانى ٥/٧٧ .
(٢) ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ .
(٣) أغانى ٥/٩٦ .
(٤) أغانى ٥/٩٦ .

ولعل أكبر دليل على نزوله المدينة أننا لا نجد له أخبارا مع مغنى مكة من مثل ابن مِسْجَح وابن مُحْرز وابن سُرَيج والغَرِيض ، إنما تساق أخباره دائما مع مغنى المدينة من مثل فند ، وسائب [١] خاثر ، وبُديح [٢] . وقد أشار فى بعض شعره إلى دار له فيها ، إذ يقول [٣] :

شَبَّ بالعال من كثيرة نارُ   شَوَّقتنا وأين منا المزارُ
تلك نارٌ لها أضاء سناها   لمحبٍّ له بيثربَ دارُ

فهو يشير إلى دار اتخذها لنفسه فى المدينة . وفى الأغانى ما يدل على أنه كان ينزل بها أثناء حكم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص لها فى خلافة معاوية ، فقد كان معاوية يُعقب بينهما يُوَلّى هذا سنة وهذا سنة [٤] ، وكانت فى مروان شدة وغلظة ، فلما ولى المدينة ولّى مصعب بن عبدالرحمن بن عوف الزُّهرِى شرطته ، وأعانه بمائتى رجل من أهل أيلة (العقبة) فضبطها ضبطاً شديداً ، فقال ابن قيس [٥] :

عَلِّل القوم يَشرَبوا   كى يَلَذّوا ويطربوا
إنما ضلَّل الفؤا   دَ غزالٌ مُرَبَّبُ
فَرَشَتْهُ على النما   رقِ سُعْدَى وزينب
حالَ دون الهوى ودو   نَ سُرَى الليل مُصْعَبُ

---

(١) أغانى ٥/٨١ . (٢) أغانى ٦/٢٢٠ .
(٣) الديوان ص ٩٤ . (٤) ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ .
(٥) أغانى ٥/٧٢ — ٧٤ .

وسياطٌ على أكـفِّ رجالٍ تقلَّبُ

فديوان ابن قيس يرتبط بحوادث المدينة أثناء خلافة معاوية ، وقد يكون فى هذه القطعة ما يدل على أن ابن قيس كان يَخْشَى من بعض الوجوه حياة لاهية ، فهو يتبع المغنين ، وهو يضج من صعوبة مصعب وسيده مروان ، وهو يدعو إلى الطرب والشراب .

على أن اتصاله بسائب خاثر وبُدَيح ، وكانا موليين لعبد الله بن جعفر سيد بنى هاشم ، يدل على أنه اتصل بسيدهما . وليست المسألة مسألة استنتاج ، فديوانه ملئ بأشعار فى مدح عبد الله ، وسنراه يلجأ إليه ويلزم حِماه فيما بعد . ونلاحظ هنا أن طبيعة حياة ابن قيس وشعره ، إذ كان يمدح به سادة قومه ، تدل دلالة قاطعة على أنه اتصل بعبد الله ابن جعفر ، جواد الحجاز ، منذ هذا التاريخ . وقد زعم بعض الرواة أنه شبب برقية ابنته(١) .

غير أن الرواة على عادتهم شوّشوا لنا فى أخباره وجعلوه لا يتصل بعبد الله فى هذه الفترة من حياته ، إنما يتصل به فيما بعد على ما سنرى . ويقول أبو الفرج : كان ابن قيس الرقيات منقطعاً إلى عبد الله بن جعفر وكان يصله ويقضى عنه دَينه(٢) .

وما نمضى بعد خلافة معاوية إلى خلافة يزيد ابنه حتى نجد ابن قيس

---

(١) انظر الورقة الأولى فى ديوان ابن قيس (مخطوطة بدار الكتب) رقم ٨٨ ش .
(٢) أغانى ٥/٨٢ .

يترك المدينة إلى الجزيرة و إلى الرَّقَّةِ خاصة . يقول السكرى جامع ديوانه : «خرج الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط سنة سبع وثلاثين حتى نزل الرَّقة ، فكان بها وكان معه العلاء بن عَبْد بن أُهبان بن جابر بن ضباب بن حُجَير بن عَبْد بن مَعِيص . وكانت تحته هند بنت عقبة أخت الوليد فى ناس من قومهم ، فيهم عبد الواحد بن أبى سعد بن قيس بن وهب فأقاموا معه . وأقبل عبيد الله بن قيس الرقيات ... فأقام فيهم حتى كانت وقعة الحَرَّة ، فقتل فيها ناس من أهل بيته ، وكان الذى كتب إليه بنعيهم ابن عم له يقال له يزيد بن على بن عبيد الله بن رَحْضَة بن عامر ابن رواحة بن منقذ بن عمرو بن مَعِيص ، فنعى إليه أسامة وسعداً ابنى عبد الله بن قيس الرقيات[1] » . ويمضى السكرى فيقول : « إن أُثَيلة بنت مسافع بن فضالة الخزاعية امرأة أسامة حملت أولادها قيساً وعقبة ومحمداً إلى الجزيرة حين قتل أبوهم وعمهم ، فبقيت بها ، فأقام عبيد الله ابن قيس كذلك . ثم أغار عُمَيْر بن الحُبَاب ، على بنى عامر بن لؤى ، وكانوا يحبون بنى أمية ، و إنما سمى واديهم « وادى الأحرار » بيزيد بن معاوية ، وكان نزل بهم فى خلافته ، وذلك لأن حَرْب بن عبد الواحد ابن أبى سعد أصاب رجلا من بنى ذَكْوان (من سُلَيم) فقتله ، فأتى عمير بن الحباب ألا يدع بوادى الأحرار رجلا إلا قتله به . وأغار عمير

(١) الديوان ص ١٨٤.

فأخذ عبيد الله بن قيس أسيراً ، فلما قدمه ليقتله وثب عليه رجل من بنى قُنْفُذ من رِعْل ، فمنعه[١] ، وقد ذكر ذلك ابن قيس فى شعره[٢] .

ونحن نعرف أن عمير بن الحباب كان من زعماء القيسية فى الموصل وأنه بايع مروان بن الحكم بعد وقعة مرج راهط ، ثم خرج عليه بعد قتل إبراهيم ابن الأشتر لابن زياد وهزيمة جيشه الذى وجهه عبد الملك لحرب المختار الثقفى والى ابن الزبير على الكوفة ، وكان ذلك أواخر سنة ٦٦ هـ .

ولجأ عمير إلى زُفَر بقَرْقيسيا وأخذ يكيد لتغلب واليمنية وأنصار الأمويين[٣] ، فكانت من ذلك غارته على عشيرة ابن الرقيات ، ونظن أن ذلك إما كان فى أواخر سنة ٦٦ للهجرة أو أوائل سنة ٦٧ . ويقول السكرى : إن ابن قيس ارتحل بعد ذلك سائراً إلى فلسطين[٤] ويظهر أنه لم تكن وجهته فلسطين ، وإنما كانت وجهته الحجاز ، فنحن لا نجد فى أخباره ما يدل على أنه اتصل حينئذ بعبد الملك ، وقد صارت إليه الخلافة بعد أبيه مروان منذ سنة ٦٥ للهجرة . وإن كنا نلاحظ من طرف آخر أن ابن قيس حتى هذا التاريخ لم يكن زبيريا ، فقد كان بين عشيرته فى الموصل ، وكانوا يحطبون فى حبل بنى أمية رغم من قُتِل منهم فى موقعة الحرة .

---

(١) الديوان ص ١٩٢ .
(٢) الديوان ص ١٩٤ وكذلك ص ١٩٧
(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير طبع أوربا ٤/٢٥٣ وما بعدها .
(٤) الديوان ص ١٩٩ .

ووَلَّى ابن قيس وجهه نحو الحجاز ، ونزل بالمدينة ، ولقى سعيد ابن المسيَّب ، فهشَّ وقال : مرحباً بظُفُر من أظفار العشيرة ، وكان سعيد مخاصماً للأمويين[1] ، ولعله هو الذى أملى على ابن قيس اتجاهه الجديد إلى الزبيريين . ويقول من حدّثوا بهذا اللقاء إنه أنشد سعيداً :

أتلبث فى تَكْرِيتَ لا فى عشيرةٍ ... شهودٍ ولا السلطان منك قريبُ
وأنت امرؤ للحَزْم عندك منزلٌ ... وللدِّين والإسلام منك نصيبُ

فقال سعيد : لا مقام على ذلك ، فاخْرُجْ منها ، قال : قد فعلت ، قال : قد أصبت ، أصاب الله بك[2] . وصمم ابن قيس ألا يعود إلى تكريت فى الموصل ، وآزر ذلك ووكّده فى نفس ابن قيس ما كان من قتل الأمويين وجنودهم لابنى أخيه فى موقعة الحَرَّة ، فانصرف عنهم إلى آل الزبير .

ويظهر أنه لم يذهب إلى مكة ، بل ذهب مباشرة إلى العراق حيث وُلى مصعب بن الزبير هناك على البصرة ، وكان بحراً فياضاً من بحور قريش ، فلزمه منذ ولايته هذه ، ورأى حربه مع المختار الثقفى والى الكوفة وما كان من قتله . وذكر ذلك فى شعره[3] .

---

(١) طبرى ٢/١١٦٩ . (٢) أغانى ٥/٩١ .
(٣) الديوان ص ١٧٥ ، ص ٢٧٣ .

وعلى هذا النحو لا نصل إلى سنة ٦٧ للهجرة حتى يصبح ابن قيس زبيريَّ[١] الهوى ، وعَزَلَ عبدُ الله بن الزبير أخاه عن العراق سنة ٦٧ بعد أن قتل المختار ، ثم أعاده ثانية[٢] سنة ٦٨ ، واستمر معه ابن قيس هناك بل أصبح شاعر الزبيريين الأول ، وهو فى الواقع كان شاعراً لمصعب نفسه قبل أن يكون شاعراً لأخيه ، وقد ذهب يتغنى غناء خالداً بأعماله وحروبه مع المختار ، والخوارج ، والجيوش التى أرسلها عبد الملك ، فباءت بالخيبة والفشل . وما زال مع مصعب يغنيه أعماله حتى تحرك عبد الملك إلى حربه . ونحن ننقل ما ذكره بنفسه عما كان من شأنه معه : « قال : خرجت مع مصعب بن الزبير حين بلغه شخوص عبد الملك بن مروان إليه ، فلما نزل مصعب بن الزبير بمَسْكِن[٣] ، ورأى معالم الغدر ممن معه دعانى ودعا بمال ومناطق ، فملأ المناطق من ذلك المال ، وألبسنى منها ، وقال لى انطلق حيث شئت فإنى مقتول ، فقلت : لا والله لا أريم[٤] حتى أرى سبيلك ، فأقمت معه حتى قُتِلَ ، ثم مضيت إلى الكوفة ، فأول بيتٍ صرت إليه دخلته ، فإذا فيه امرأة لها ابنتان كأنهما ظبيتان ، فرقيت فى دَرَجة لها إلى مَشْرَبة[٥] ، فقعدت فيها ، فأمرتْ لى المرأة بما أحتاج إليه من الطعام والشراب والفرش

(١) أغانى ٥/٧٦ (٢) ابن الأثير ٤/٢١٩ — ٢٣٨ .
(٣) مسكن : موضع قريب من دير الجاثليق على نهر دجيل .
(٤) لا أريم : لا أبرح . (٥) مشربة : غرفة .

والماء للوضوء . فأقمت عندها أكثر من حَوْل ، تقيم لى ما يصلحنى ، وتغدو علىّ فى كل صباح . . . وأنا فى ذلك أسمع الصياح فىّ والجُعْل . فلما طال بى المقام ، وفقدت الصياح فىّ وغَرِضت [1] بمكانى غَدَتْ علىّ ، فعرّفتها أنى قد غرضت ، وأحببت الشخوص إلى أهلى ، فقالت لى : نأتيك بما تحتاج إليه إن شاء الله تعالى ، فلما أمسيت وضرب الليل بأرواقه برَفيَتْ إلىّ ، وقالت إذا شئت ! . فنزلت وقد أعدّتْ راحلتين عليهما ما أحتاج إليه ومعهما عبد ، وأعطت العبدَ نفقة الطريق ، وقالت : العبد والراحلتان لك ، فركبت ، وركب العبد معى حتى طرقت أهلى بمكة ، فدققت منزلى ، فقالوا لى : مَنْ هـذا ؟ فقلت عبيد الله بن قيس الرقيات ، فولولوا وبكوا ، وقالوا ما فارقنا طلبك إلا فى هـذا الوقت ، فأقمت عندهم حتى أسحرت ، ثم نهضت ومعى العبـد ، حتى قدمت المدينة ، فجئت عبد الله بن جعفر بن أبى طالب عند المساء ، وهو يُعَشّى أصحابه ، فجلست معهم وجعلت أتعاجم ، وأقول : يا ريار ابن طيار ، فلما خرج أصحابه كشفت له عن وجهى ، فقال : ابن قيس ؟ فقلت : ابن قيس ، جئتك عائذاً بك ، قال : ويحك ما أجدّهم فى طلبك وأحرصهم على الظفر بك ! ولـكنى سأكتب إلى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، فهى زوجة الوليد بن عبد الملك ، وعبد الملك أرقّ شىء عليها ، فـكتب إليها يسألها أن تشفع له إلى عمها ، وكتب إلى أبيها يسأله أن

(١) غرض : ضجر .

يكتب إليها كتاباً يسألها الشفاعة ، فدخل عليها عبد الملك كما كان يفعل وسألها : هل من حاجة ؟ فقالت : نعم لى حاجة ، فقال : قد قضيت كل حاجة لك إلا ابن قيس الرقيات ، فقالت : لا تستثن علىّ شيئاً ، فنفح[1] بيدها ، فأصاب خدها ، فوضعت يدها على خدها ، فقال لها : يا ابنتى ارفعى يدك ، فقد قضيت كل حاجة لك ، وإن كانت ابنَ قيس الرقيات ، فقالت : إن حاجتى ابن قيس الرقيات تؤمّنه ، فقد كتب إلىّ أبى يسألنى أن أسألك ذلك ، قال : فهو آمن فمُرِيه يحضر مجلس العشية ، فحضر ابنُ قيس ، وحضر الناس حين بلغهم مجلسُ عبد الملك ، فأخّر الإذن ، ثم أذِن للناس ، وأخّر إذن ابن قيس الرقيات ، حتى أخذوا مجالسهم ، ثم أذن له ، فلما دخل عليه قال عبدالملك يا أهل الشام أتعرفون هذا ؟ قالوا لا ، فقال : هذا عبيد الله بن قيس الرقيات الذى يقول :

كيف نومى على الفِراش ولما ... تَشْمَلِ الشامَ غارةٌ شَعْواء
تُذْهل الشيخ عن بنيه وتُبْدِى ... عن خِدامٍ[2] العقيلةُ العذراء

فقالوا يا أمير المؤمنين : اسقِنا دم هذا المنافق ! قال آلآن وقد أمّنته وصار فى منزلى وعلى بساطى ؟ ! قد أخّرت الإذن له لتقتلوه ، فلم تفعلوا .

---

(١) نفح : ضرب ضربة خفيفة .
(٢) خدام : على نية المضاف إليه أى خدامها وهو الخلخال .

فاستأذنه ابن قيس أن ينشده مديحه، فأذن له، فأنشده قصيدته التى يقول فيها:

عاد له من كَثيرةَ الطَّرَبُ فعينه بالدموع تنسكبُ

حتى قال فيها:

إن الأغرَّ الذى أبوه أبو العاصى عليه الوقارُ والحجُبُ
يَعْتدل التاجُ فوق مَفْرِقِهِ على جبينٍ كأنه الذهبُ

فقال له عبد الملك يا ابن قيس: تمدحنى بالتاج كأنى من العجم وتقول فى مصعب:

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللـ ـه تجلَّتْ عن وجهه الظلماء
مُلكهُ ملكُ عِزَّةٍ ليس فيه جبروتٌ منهُ ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً.. وقال ابن قيس الرقيات لعبد الله بن جعفر: ما نفعنى أمانى، تركتُ حَيًّا كميت لا آخذ مع الناس عطاء أبداً، فقال له عبد الله ابن جعفر كم بلغت من السن؟ قال ستين سنة، قال فعمّر نفسك؟ قال عشرين سنة من ذى قَبل[1]، فذلك ثمانون سنة. قال: كم عطاؤك؟ قال ألفا درهم، فأمر له بأربعين ألف درهم، وقال: ذلك لك علىّ إلى أن تموت على تعميرك نفسك[2]».

---

(١) من ذى قبل: يريد فى المستقبل.
(٢) أغانى ٥/٧٦.

وإنما نقلنا ذلك الخبر على طوله مع أنه يشبه أن يكون قصة ، لأنه يتضمن فى ثناياه الحقيقة ، فإن ابن قيس استمر ملازماً لمصعب حتى قُتِلَ ، فلما قتل فرّ ، وأهدر عبدالملك دمه ، فكان لا بد له من الاختفاء . وهنا تلعب القصة دورها ، فقد زعم الرواة أن المرأة التى اختفى عندها هى كثيرة[1] التى شبب بها كثيراً فى شعره .

ويبالغ الرواة ويعطون القصة لونها الذى رأيناه ، فقد أمضى عند كثيرة هذه سنة تتعقبه شُرْطة عبد الملك ويتعقبه الصياح به وأنّ مَن وجده أو دل عليه فله ألف دينار[2] ، ثم تخف الحملة عليه ، ويفقد الصياحَ فيطلب من المرأة أو من كثيرة الخروج من دارها ، فتأتيه تحت الليل براحلتين وعبد معهما ، وتعطيه نفقة الطريق .

وربما كانت كثيرة هى المفتاح الذى نعرف عن طريقه حقيقةَ كل هذه القصة ، فابن خلكان يذكر أن كثيرة هذه تزوجت على[3] بن عبد الله بن العباس . وفى الطبرى أنه لما دخل عبد الملك الكوفة بعد مقتل مصعب سأل عن بعض أنصاره ممن أوغلوا الشام عليه وأفسدوا العراق ، فقيل قد أجارهم رؤساء عشائرهم ، قال وهل يجير علىّ أحد ؟ وكان عبد الله بن يزيد بن أسد لجأ إلى على بن عبد الله بن العباس ولجأ

---

(١) أغانى ٥/٨٤ .
(٢) تاريخ دمشق المجلد ٢٥ الورقة ٢٠٩ .
(٣) وفيات الأعيان طبع أوربا ص ٤١٢ .

إليه أيضاً يحيى بن معيوف الهمدانى ، فأمّنهما عبد الملك وظهرا[1] .

ونستطيع أن نصل الآن بين كثيرة وزوجها الذى كان يلجأ إليه من يطلبهم عبد الملك بعد مقتل مصعب ، وأن نظن أن ابن قيس إنما لجأ إلى على بن عبد الله لا إلى كثيرة نفسها كما ظن الرواة ، ولم يستطع على فيما يبدو أن يستصدر له أمراً بالعفو من عبد الملك ، لأنه سبق إلى إعلان إهدار دمه ، أو لأن ذنب ابن قيس كان عظيما ، فقد كان يدعو إلى حربه ، وكان يؤلب عليه ، مع مصعب ، بشعره . وأخفاه علىّ بن عبدالله عنده حتى إذا ضعف طلبه أعانه على الفرار إلى ابن عمه عبد الله بن جعفر ، فقد كان قريبا من نفس الأمويين وكان محبباً إليهم ، وأصهر إليه عبد الملك . على أن نفس ابن جعفر لم يستطع أن يطلب له الأمان من عبد الملك مباشرة ، بل أرسل إلى عبد العزيز بمصر ، واتخذ له وسيطا بنته عنده أم البنين ، فشفعت فيه على ما جاء فى القصة .

ولجوء ابن قيس إلى عبد الله بن جعفر تضافرت به الروايات[2] ، وفى شعره ما يؤكده ، بل ما يثبته من نحو قوله[3] :

تداركَنى عبدُ الإله وقد بَدَتْ ... لذى الحقد والشَّنْآن منى مقاتلى
فأنقَذنى من غَمْرة الموت بعد ما ... رأيتُ حياضَ الموت جَمَّ المناهلِ

---

(١) الطبرى ٢/٨١٦ وانظر اليعقوبى ٢/٣٢٧ .

(٢) انظر الشعر والشعراء ص ٣٤٤ والكامل للمبرد ص ٣٩٨ والخزانة ٣/٢٦٨ . (٣) أغانى ٥/٨٢ .

ومعنى ذلك أن استجارة ابن قيس بابن جعفر ثابتة ، ولكن بقيت فى القصة بقية ، فهل شفع له ابن جعفر عند عبد الملك مباشرة ، أو شفع له بواسطة أم البنين ؟ أما القصة السابقة فتزعم ذلك ، ولكن هناك قصصاً أخرى نجد ابن جعفر فيها يشفع له مباشرة . فأبو الفرج نفسه يروى أن ابن قيس استجار بعبد الله بن جعفر ، وأنه أعطاه فى أول لقائه ثمانمائة دينار ، فلما قبضها قال له : اسألْ أمير المؤمنين فى أمرى . قال : نعم ، فإذا دخلت إليه معى ودعا بالطعام ، فكل أكلاً فاحشاً . فركب ابن جعفر ، فدخل معه إلى عبد الملك ، فلما قدم الطعام جعل يُسيء الأكل ، فقال عبد الملك لابن جعفر من هذا ؟ فقال هذا إنسان لا يجوز إلا أن يكون صادقاً إن استُبْقى ، وإن قتل كان أكذب الناس ، قال : وكيف ذلك ؟ قال لأنه يقول :

ما نَقَموا من بنى أمية إلاّ أنهم يَحْلُمون إن غضبوا

فإن قتلته لغضبك عليه أكذبته فيما مدحكم به ، قال : فهو آمن ، ولكن لا أعطيه عطاء من بيت المال ، قال ابن جعفر ولمَ وقد وهبته لى ؟ فأحب أن تهب لى عطاءه أيضاً ، كما وهبت لى دمه ، وعفوت لى عن ذنبه ، قال : قد فعلت ، قال : وتعطيه ما فاته من العطاء ، قال : قد فعلت وأمرت له بذلك[1] » .

---

(١) أغانى ٥/٨١ .

وهذا الخبر وإن انتهى بطلب العفو عند ابن جعفر ، فإن أثر الانتحال فيه بيِّن ، لأن عبد الملك كان قبل طلب أبيه للخلافة يعيش فى المدينة ، وأسلفنا أن ابن قيس كان هناك أيضاً أثناء خلافة معاوية وحكم أبيه مروان للمدينة ، فيبعد أن لا يكون على معرفة به ، وخاصة أنه شاعر ، وكان شعره يروى فى المدينة حينئذ ، بل كان مروان أبوه نفسه يرويه[1] .

ولا يبعد أن يكون ابن جعفر قد طلب الأمان له ، وطلبه أيضاً عبد العزيز بن مروان عن طريق ابنته أم البنين ، ولكن على كل حال إنما يعترف ابن قيس فى شعره بأن ابن جعفر هو الذى أمّنه على نفسه .

ولسنا ندرى هل عاد ابن قيس مع ابن جعفر إلى المدينة ، أو أنه ولّى وجهه نحو وجهة أخرى ، ففى شعره ما يدل على أنه كان فى العراق سنة ٧٣ للهجرة ، إذ نراه يهجو من يسمى عبد العزيز بن عبد الله بن خالد ، وكان قد هزم أمام الخوارج[2] ، وفى الوقت نفسه نراه يمدح بشر[3] بن مروان ، ويقال إنه أنشده يوما قصيدة يقول فيها :

يا بشرُ يا ابنَ الجَعْفَرِيّةِ ما خَلَقَ الإلهُ يديك للبخلِ

فقال له بشر: احْتَكِمْ ، قال : اعطنى عشرين ألف درهم ، فقال

---

(١) ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ . (٢) طبرى ٢/٨٢٨ .
(٣) الديوان ص ٢٤٥ .

بشر : قبحك الله ، لك عشرون وعشرون وعشرون وعشرون وعشرون ، فأعطاه مائة ألف درهم[١] . ونحن نعرف أن بشراً وافته المنية سريعاً فسرعان ما توفى وخلفه الحجاج سنة ٧٥ للهجرة . وليس فى ديوان ابن قيس ولا فى أخباره ما يدل على أنه وفد على العراق بعدِ وفاة بشر ، ولعله لم يذهب مخافة الحجاج على نفسه ، أو لعله لم يذهب لأنه اتصل بعبد العزيز بن مروان والى مصر . ومرَّ بنا ما يقال من أنه كان أحد شفعائه عند عبد الملك ، ولا نعرف لماذا لم يذهب إليه مباشرة وذهب إلى العراق ، ولعله إنما ذهب إلى العراق لأنه ترك هناك بعض أهله ، وكان كثير من عشيرته فى الموصل .

ونحن نظن أن ابن قيس لم يستمر فى العراق حتى وفاة بشر وأنه عاد قبل ذلك ، فقد اتخذ على ما يظهر مكة مقاماً[٢] له ، وكان يرحل منها إلى المدينة لمديح ابن جعفر وأخْذ نواله ، كما كان يرحل منها إلى مصر لمديح عبدالعزيز وحمل جوائزه وعطاياه . وفى ديوانه قصائد كثيرة فى مديح عبد العزيز وابن جعفر . ويروى أبو الفرج أن صلةً جاءت ابن جعفر من لدن عبد الملك وابن قيس غائب ، فأمر عبد الله خازنه ، فخبأ له صلته ، فلما قدم دفعها إليه ، وأعطاه جارية حسناء ، فقال ابن قيس :

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى (طبع بيت المقدس) ٥/١٧٥ .

(٢) انظر أغانى ٥/٩٣ .

إذا زرت عبد الله ، نفسى فداؤه رجعت بفضلٍ من نَدَاه ونائل
حَبَانىَ لما جئته بعطيَّـــةٍ وجاريةٍ حسناء ذاتِ خلاخِل[1]

وما زال يأخذ صلات ابن جعفر حتى توفى سنة ٨٠ للهجرة ، وقيل بل سنة أربع وثمانين أو خمس وثمانين[2] . وأكبر الظن أن صلات عبد العزيز بن مروان لم تنقطع حتى توفى هو الآخر سنة ٨٥ للهجرة[3] ، فقد لزمه وكاد أن يكون شاعره .

ولا نجد ذكراً لابن قيس الرقيات بعد هذا التاريخ إلا ما يذكره الرواة من أن أم المؤمنين حجت فى خلافة زوجها الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ) فنظم الشعراء فيها وفى جواريها . وروى أبو الفرج لابن قيس شعراً قاله حينئذ فى أم البنين[4] . ومعنى ذلك أن ابن قيس عاش إلى ما بعد وفاة ابن جعفر وابنى مروان : عبد العزيز وعبد الملك ، ولكن ليس فى ديوانه ما يدل على أنه مدح الوليد . وأكبر الظن أنه لم يعش حتى آخر عهده بل لم يستمر فى خلافته طويلا ، فإن عمر بن عبد العزيز بن مروان ولى المدينة سنة ٨٧ للهجرة ، وليس فى ديوان ابن قيس مديح له . ولو لحقه ابن قيس لمدحه كما مدح أباه ولى نعمته ،

---

(١) أغانى ٥/٨٢ . (٢) أسد الغابة ٣/١٣٥ .
(٣) طبرى ٢/١١٦٥ وابن الأثير ٤/٤٠٩ .
(٤) أغانى ٦/٢٢٠ .

وقد كان يتعصب لبيته على بيت عبد الملك تعصباً شديداً . ويُروَى أن ابن جعفر قال له سنة ٧٣ للهجرة حين طلب له العفو من عبد الملك : عَمِّر نفسك ، فعمَّرها ستين ، وإذن فعبد العزيز بن مروان توفى وعمره اثنتان وسبعون سنة ، ويغلب على الظن أنه لم يعش طويلا بعد ذلك .

ونرى مما قدمنا أن ابن قيس عاش حياة طويلة ، وقد لُوِّنَتْ فى أوائلها وأثناء مقامه فى مكة والمدينة بألوان من اللهو[1] ، إذ كان يجرى فى أثر المغنيين والمغنيات ، وكان يتبعهم ، ويعقد الصداقة بينه وبينهم . على أنه سرعان ما اصطدم بالحوادث بعد ذلك ، فانتقل إلى الرَّقَّة ، وأسره عمير بن الحباب ، ثم افتكَّ أسره ، وقد أخذ يكثر من بكاء شبابه[2] منذ أن جاءته أخبار وقعة الحرة وموت ابنى أخيه : أسامة وسعد فيها ، وتعلو شعره من حين إلى آخر مسحة من الحزن والتفكير فى الحياة والموت كقوله[3] :

هل ترى من مُخَلَّدٍ غير أن اللـ ـه يَبْقَى وتذهب الأشياء
يأمل الناس فى غدٍ رَغَبَ الدَّهْـ ـرِ ألا فى غدٍ يكون القضاء

وطبيعى أن ترتفع هذه النغمة الحزينة فى شعر ابن قيس من وقت إلى آخر ، فقد ألمت به حوادث كثيرة ، وأوشك عبد الملك أن يطير به

(١) أغانى طبع بولاق ١٦/٥٩ .
(٢) الديوان ص ٦٨ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ٢٠١ .
(٣) الديوان ص ١٧٣ .

طيرة بطيئاً سقوطها ، ومن قبله أوشك عمير بن الحباب أن يقضى عليه . ومن هنا لا يكون غريباً أن تَغْمُرَ شعرَه ظلالٌ حزينة أحيانا .

وقد يكون لهذه النزعة فى طوايا نفسه أثر فى إقباله على الشراب ، ومرت بنا قطعة قالها فى أيامه الأولى بالمدينة حين وليها مروان بن الحكم وضبطها مصعب بن عبد الرحمن بن عوف برجال من أَيْلَةَ تتحرك السياطُ فى أيديهم ويخاف الناس من مغنين وغير مغنين بطشهم . ونراه فى هذه القطعة يدعو إلى الشراب . ويظهر أنه عُنِىَ بعد مفارقته المدينة به ، فمن يونس أنه شغل نفسه بالشراب بتكريت[1] ، وربما كان يونس مبالغاً . وفى ديوانه[2] :

وسلافٍ مما يعتَّقُ حِلٍّ زاد فى طيبها ابنُ عبدِ كلالِ

وأكبر الظن أنه يقصد نبيذ التمر الذى كانوا يحلونه فى المدينة[3] ، ولذلك نعته بأنه حل . ولكن على كل حال هذا بيت عابر فى الديوان ، ومثله بيت القطعة التى أشرنا إليها :

عَلِّلِ القوم يشربوا كى يَلَذُّوا ويَطْرَبوا

أما بعد ذلك ، فليس هناك ما يدل على ما زعمه يونس من أنه شغل نفسه بالشراب ، فأكبر الظن أنه إنما صنع ذلك فى فترات متقطعة ،

---

(١) أغانى ٥/٨٨ . (٢) الديوان ص ٢٠٦ .
(٣) أغانى ١٥/١٥ وانظر أغانى طبع دار الكتب ٢/٢٥١ وما بعدها .

وقد تكون حياة اللهو والبهجة فى المدينة هى التى دفعته أولا إلى شراب الخمر ، ثم أخذ يشربها بعد وقعة الحرة فى تكريت وغيرها لينفّس عن نفسه وما أصابها من حزن وحسرة ، غير أن ذلك كان عارضاً فى حياته كما عرض البيتان السابقان فى ديوانه .

وأهمُّ صفة تميزا بن قيس هى صفةُ الوفاء ، فقد كان وفيًّا لآله وأصدقائه ، أما وفاؤه لآله فيتضح فى تأثره الشديد بقتلاهم فى موقعة الحرة ، وما صاغه من شعر عقب ذلك . وأما وفاؤه لأصدقائه فيتضح فى رثائه لمصعب وقد بكاه طويلا فى ديوانه . وفى الأغانى أنه « كان عند عبد الملك ، فأقبل غلمان له معهم عِسَاس[1] خَلَنْجٍ ، فيها لبن البُخْتِ[2] ، فقال عبد الملك يابن قيس أين هذا من عساس مصعب التى تقول فيها :

ملكٌ يُطعم الطعامَ ويَسْقِى لَبَنَ البُخْتِ فى عِسَاسِ الخَلَنْجِ

فقال : لا أين يا أمير المؤمنين لوطرحت عساسك هذه فى عُسٍّ من عساس مصعب لوسعها وتغلغلت فى جوفه . فضحك عبد الملك ثم قال قاتلك الله يابن قيس ! فإنك تأبى إلا كرما ووفاء[3] » . وهذه شهادة عظيمة ، من خصم مصعب ، بوفائه وحرصه البالغ على الوفاء .

---

(١) العساس : جمع عس وهو القدح . والخلنج .
(٢) البخت : جمع بختية وهى الناقة الخراسانية .
(٣) أغانى ٧/١٦٧ .

٣

شعره الغنائى

احتفظ لنا كتاب الأغانى بطائفة من شعر ابن قيس الغنائى ، وأكثرها يدور حول الحب الذى شغلت أقاصيصُه الناس فى هذا العصر ، فقد كان العصرُ عصرَ فراغ وتعطل . لم تعد هناك هذه الحروب المدوية فى أطراف العالم الإسلامى ، وعاد الناس أو عاد كثير منهم إلى مسقط رأسه فى مكة والمدينة ، وامتلأت حجورهم بالمال الذى جلبوه من الخارج ، وأخذوا يعيشون على نمط جديد ، فيه فراغ من جهة ، وفيه ترف ودعة من جهة أخرى ، فظهر الغناء ، ولم يلبث أن ارتفع به المغنون إلى الأوْج أو إلى القمة ، وكاد أن يكون فى كل بيت من بيوت أشراف قريش مغن أو مغنية أو مغنونِ ومغنيات ، كَبَيْتِ الثريا فى مكة ، وقد تحدثنا عنه مراراً ، وكبيت عبد الله بن جعفر فى المدينة ، وكان فيه سائب خاثر وبُدَيح ونَشِيط ، وعلى أيديهم تخرَّج أكثر المغنين والمغنيات فى المدينة .

وكانت الحياة فى مكة والمدينة هذا العصر تدفع كل شاعر هناك للاتصال بالمغنين حتى يروج اسمه ، وتشيع شهرته بين النبلاء والأشراف ، الذين لم يكن لهم من عمل سوى الاستماع إلى الغناء وآخرِ ما أحدثه أصحابه من أُغنِيَات .

ولم تقف المسألة عند الرجال فإن المرأة القرشية الشريفة أخذت تعنى بهذا الجانب وما يتصل به من الشعر على نحو ما كانت السيدة ثريا تصنع فى مكة ، وفيها يقول ابن قيس الرقيات[1] :

يا سليمانُ إن تُلاقِ الثريا ... تَلْقَ عيشَ الخلود قبل الهلالِ

حبّذا الحج والثريّا ومن بالـ ... ـخَيْفِ من أجلها ومُلْقَى الرِّحالِ

دُرَّةٌ من عقائل البحر بِكْرٌ ... لم تنلهـا مثاقبُ اللآلِ

وهل هناك من شاعر يعيش فى مكة ، ويستمر له العيش فيها أو يفارقها ، إلا وهو يذكر الثريا صاحبة الغَريض ويحيى قَيْـل وسُمَيّة ، وكانت تستقبل فى منزلها الشعراء وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة الذى فتنته وشغفت قلبه حبا . إنها سيدة مكة ، سيدة شريفاتها اللاتى أظهرن ذوقا بديعاً فى العناية بفن الغناء الجديد وأصحابه من المغنين ومن يصنع لهم الأغانى من الشعراء . لهذا كله يكون من الطبيعى أن يذكرها ابنُ قيس ، فهى الزهرة الغضة الناضرة بمكة ، وهى صاحبة الذوق الفنى السليم فى تقدير الشعر والشعراء والغناء والمغنين .

ونحن لا بد أن نلاحظ الحياة القاسية التى مرت على الناس وعلى المرأة خاصة فى مكة أثناء عصر الخلفاء الراشدين ، عصر الفتوح والحروب والغزو والجهاد فى سبيل الله . ومن غير شك كانت مكة حينئذ مقفرة

---

(١) الديوان ص ٢٠٦ وانظر أغانى ١/٢١٣ .

أو تكاد من الشباب إذ كان فى شُغل عنها ، وكانت المرأة تحس بجفاف الحياة ، وتنتظر رجوع الشباب ، ولم تلبث الحروب أن انتهت ورأت المرأة القرشية نفسها تخرج من حياتها القديمة الخشنة إلى حياة جديدة مترفة زاخرة بألوان من الحضارات الأجنبية و بصنوف من الجوارى الأجنبيات ، فكان من الطبيعى أن تندفع فى هذه الحياة وأن تأخذ منها بحظ بل بحظوظ ، فتساهم فى المتاع بفن الغناء الجديد ، وتهيئ بما لها من مكانة رفيعة فى مجتمعها لهذا الفن جوّا من استحسانه والعناية البالغة به .

وأعد ذلك لنهضة حقيقية فى الغناء وفى الشعر الذى يتخذه هذا الغناء ، وكان ابن قيس ثانى اثنين ينهضان بهذا الشعر : هو من طرف ، وابن أبى ربيعة من طرف آخر ، غير أن ابن قيس لم تهدأ له الحياة هدوءها لعمر . ومعنى ذلك أن الأسباب لم تُكفَل له ، حتى يخصص نفسه لهذا الشعر الذى كانت تطلبه مجالس الأشراف والشريفات فى مكة والمدينة ونوادى الغناء فيهما ، ونقصد شعر الحب ، أو كما يسمى شعر التشبيب والغزل ، فقد ألهته أحداث الدنيا عن هذا التخصص ، ولم يكن ثَرِيًّا ثراء عمر ، فانقسمت نفسه بين المديح والحب .

ومع ذلك فشعر ابن قيس فى الحب أو فى الغزل والتشبيب يحلّق فى أجواء الفن العليا من حيث الصفاء وشفافية التعبير ، ومن حيث القيم الغنائية الخالصة ، فقد توفرت له المعيشة فى مكة ، هذه البيئة المترفة حيث

الثريا ومغنوها ومغنياتها ، وحيث ابن سريج وابن مسجح وابن محرز . ثم انتقل ابن قيس إلى المدينة ، وانعقدت أثناء مقامه بها الصداقة بينه وبين فند ثم بينه وبين سائب خاثر وبديح على ما مر فى غير هذا الموضع . وكما صحب هناك المغنين صحب المغنيات وعلى رأسهن سلّامة القس التى فتنت قسّ مكة المشهور عبدَ الرحمن بن أبى عمار الجشمى ، وفيها وفى أختها ريّا يقول [1] :

لقد فتنت ريّا وسلّامةُ القسّا ... فلم تتركا للقسّ عقلًا ولا نفْسا

فتاتان أما منهما فشبيهة الـ ... هلال وأخرى منهما تشبه الشمسا

وفى الأغانى أنه كان يجلس إليهما يستمع إلى غنائهما فى شعره وشعر غيره [2] . وحياة ابن قيس من هذه الناحية حياة شاعر غنائى بالمعنى الكامل ، فهو يلزم المغنين والمغنيات ويستمع إلى ألحانهم وأنغامهم ، ويقف على ما يريدون من تجديد فى الشعر تحت تأثير هذه الأنغام والألحان . وأثناء ذلك كان يقدم لهم ما يحدث من طرائف الشعر الغنائى ، فيذيعونه على قيثاراتهم .

وكل من يطّلع على الأغانى التى كان يلحنها المغنون والمغنيات فى شعره يعجب بمقدرته على النظم فى هذا الشعر الذى يقطّر فيه ابن قيس عواطف الناس من حوله ، وهى عواطف كان يعبق بها جو مكة

---

(١) أغانى ٨/٣٣٥ . (٢) أغانى ٨/٣٣٧ .

والمدينة ، وكان ابن قيس يجمع لنفسه منها كل ما يستطيع من قطرات نفسية و حَبَّات وجدانية ، ويرسلها فى الناس عن طريق المغنين والمغنيات ، فيضجون بالإعجاب والاستحسان الشديد[١] .

وتنوعت الأسماء التى احتواها شعر ابن قيس ، والتى تغنى بها فى ديوانه ، فنحن نجد هذه الأسماء عنده : أمَة الغفار وتُكْتَم وأم مساحق وأُثْلَة وقسيمة وليلى وأسماء (أم بشر) وريا وسلامة وسَعْدَة وسُعْدَى وسَلْمَى وسُلَيْمَى ومريم بنت الحوارىّ وعاتكة وسلْمَة ورقية (نعما ، أم عمرو) وأم الوليد وأم البنين وكثيرة والثريا وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين .

وأكثر هذه الأسماء جاء فى شعره عابرا ولم يُعْنَ به الرواة ، وهى كما نرى أسماء تختلط فيها الجوارى من مثل ريا وسلامة بالشريفات من مثل الثريا وأم الوليد بن عبد الملك وأم البنين زوجته وعاتكة بنت يزيد ابن معاوية زوجة عبد الملك و بنت الحوارى ولعلها أخت مصعب بن الزبير فهو يسميه كثيرا ابن الحوارى[٢] ، كما تختلط فيها أسماء قريباته من مثل ليلى وأسماء[٣] (أم بشر) وأثلة[٤] بغيرهن من غير قريباته .

---

(١) أغانى ٥/٩٩ .
(٢) الديوان ص ٢٨٧ وأغانى طبع بولاق ١٧/١٦٥ .
(٣) الديوان ص ١٨٨ وانظر ص ٢٣٧ وص ٢٥٣ وانظر ص ٢١٣ .
(٤) الديوان ص ٢٦٣ وانظر ص ١٩٢ .

والنساء اللائى تعلق بهن واللائى قال فيهن ما يمكن أن نسميه غزلا هنّ رقية بنت عبد الواحد ابن عمه وأختها سعدة ، وكثيرة ، ثم نساء بنى أمية وعائشة وسكينة زوجتى مصعب بن الزبير .

ولا بد أن نميز بين غزل ابن قيس فى رقية وأختها وغزله فى نساء مصعب وبنى أمية ، فهو فى غزله الأول يحكى عاطفة حقيقية ، أما فى غزله الثانى فيحاول أن يرضى السياسة أحياناً وأن يرضى عواطف الناس وعواطف هؤلاء اللائى تغزل بهن أحياناً أخرى .

وتتقدم النساء اللائى تغزل بهن جميعا رقيةُ ابنة عمه عبد الواحد ، وكان لتسميته معاصريه له بابن قيس الرقيات أثر بعيد فى اختلاط الأمر على الرواة كما تقدم فى حديثنا عن تلقيبه ، فقالوا إنهن ثلاث : رقية ابنة عمه ، ورقية ابنة عم لها ، ورقية ثالثة اختلفوا فيها ، فقال قوم : هى أموية ، وقال آخرون : هى ابنة عبد الله بن جعفر ، ورأى أبوعبيدة أنهن اثنتان لا ثلاث .

وكل هذا يدل على اضطراب الرواة ، وفى رأينا أنها لم تكن إلا رقية واحدة هى ابنة عمه عبد الواحد . ويقول السكرى جامع ديوانه إن الوليد بن عقبة خرج سنة سبع وثلاثين للهجرة حتى نزل الرقة فى جماعة من بنى عامر بن لؤى ، فيهم عبد الواحد بن أبى سعد ابن عم صاحبنا ، وأقبل عبيد الله فأقام فيهم ، وإنما لجّ عليه «الرقيات» لأنه كان يشبب

برقية وسلمة ابنتى عبد الواحد[١] ، ومعنى ذلك أن معرفته برقية جاءت بعد نزوله فى أهلها بالرقة . وفى الأغانى أنه رآها أثناء حجها مع أهلها كما قدمنا . وربما كان هذا الرأى أوجه من الرأى الأول ، فإننا نجد لابن قيس قطعة فى رقية تجرى على الألسنة فى المدينة ، ويرويها مروان ابن الحكم أثناء عزله عن المدينة زمن معاوية[٢] ، فمعرفة ابن قيس برقية قديمة .

ومن يطلع على ديوان ابن قيس يجده يكثر من حادث رؤيته لصاحبته فى الحج ، ولذلك كنا نظن بل نقطع بأنها صحبت أباها أثناء حج له . وهناك رآها ابن عمها فشغفت قلبه حُبًّا ، وحاول أن يسلو عنها بانتقاله إلى المدينة ، ولكن مرضه بها كان يعاوده ، وكان أقوى فى نفسه من أن ينصرف عنه ، فذهب يتغنى بها منذ فارق ركبها مكة[٣] إلى أن لقيها فى الرقة .

رقية إذن هى المرأة الأولى فى حياة ابن قيس ، وقد ذهب يملأ باسمها جميع أركان مكة والمدينة ونواديها ، يحاول أن يجد فى ذلك ما يخفف من لواعج الحب فى نفسه ، بل لعله كان يريد أن يذكيها ، وأن يشمل بها جنبات نفسه وجنبات المدينتين الكبيرتين من حوله . إنها ابنة عمه ، وهى أولى من غيرها بشعره ، إنها لا تقصر عن هؤلاء النبيلات اللائى

---

(١) الديوان ص ١٨٥ . (٢) ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ .
(٣) الديوان ص ٢٦١ و ص ٢٨٩ وهنا يذكر سلمة أخت رقية .

يتغنى بهن ابن أبي ربيعة . ويظهر أن ابن عمه عبد الواحد كان يعجب بذلك منه وكان يرضى عنه ، ففتيات بنى معيص بن عامر بن لؤى ليسوا أقل جمالا ولا تأثيراً فى نفوس الشعراء من فتيات الأمويين وغيرهم من نبلاء قريش ، فلما تبع ابن قيس هواه فى الرقة وجد هناك قلوباً تنتظره وأفئدة تصبو إليه ، فطاب له المقام هناك ترعاه عين رقية من بعيد وعين أختها سلمة وعيون قومه وعشيرته .

وتمتاز مقطوعات ابن قيس فى رقية بصدق العاطفة وحرارة الوجدان ودقة المشاعر والإحساسات ورهافتها رهافة بالغة ، هى رهافة المحب الذى يترجم عما فى قلبه ويعبر عما فى جوانحه على نحو ما نرى فى مثل قوله(١) :

رُقَىُّ بعيشكم لا تهجُرينا ... ومَنِّينا المُنَى ثم امطُلينا

عِدينا فى غدٍ ما شئتِ إنَّا ... نحبُّ وإن مطلتِ الواعدينا

فإما تُنجِزى عِدَتى وإمَّا ... نعيش بما نؤمِّل منك حينا

أغرَّكِ أننى لا صبرَ عندى ... على هَجْرٍ وأنكِ تصبرينا

وهو هنا يعلن أنه تبعها إلى الرقة وترك أهله فى المدينة أو فى مكة ، وأظننا الآن أدركنا حلاوة صوت ابن قيس فى مقطوعاته الغنائية التى ينظمها فى رقية ، ونراه يعبر عن ذوق حضرى فى تدليل محبوبته

---

(١) أغانى ٥/٩٤ — ٩٦ .

والتذلل لها والضراعة والتوسل ، فهو يطلب منها نائلا قليلا : أن تعده ، فهذا حسبه ، وسواء بعد ذلك أوفت بوعدها أو لم توف ، فإن ذلك يكفيه منها هناءة ومسرة ، واستمع إليه يقول فيها[١] .

حَبَّ ذاك الدَّلُّ[٢] والغُنُجُ والتى فى عينها دَعَجُ
والتى إن حَدَّثَتْ كذبت والتى فى وعدها خَلَجُ[٣]
وترى فى البيت صورتها مثلما فى البِيعة[٤] الشُرُجُ
خبِّرونى هل على رجلٍ عاشقٍ فى قبلةٍ حَرَجُ

فإنك تحس فى هذا الشعر أن قلب صاحبه يختلج بالفرح ، فهو يعبر فى سرور وخفة روح عن حبه ، وليس من ريب فى أن هذه الأبيات تمثل ذوقاً جديداً هو ذوق الشباب الحجازى فى عصر ابن قيس الذين رقّ شعورهم ، وصفا إحساسهم ، وأصبحوا روحاً خالصة . وما أظننا نبعد إذا قلنا إننا هنا أمام ذوق جديد وشعور جديد بالمرأة ، فرجل البادية لم يكن يدق شعوره كل هذه الدقة ، ولم يكن له هذه الخفة فى غزله ، ولم يكن ينفذ به إلى قلوبنا كل هذا النفوذ الذى نجده عند ابن قيس ، واستمع إليه يقول[٥] :

---

(١) أغانى ٥/٩٧ .
(٢) الدل : التدليل . الغنج : حسن الدل .
(٣) الخلج : الاضطراب وعدم الثبات .
(٤) البيعة : متعبّد النصارى .
(٥) أغانى ٥/٩٥ والديوان ص ١٤٠ — ١٤١ .

رُقَيَّةُ تَيَّمَتْ قلبى فوا كبدِى من الحبِّ
وقالوا داؤه طبٌّ ألا بل حبُّها طِبِّى
نهانى إخوتى عنهـا وما للقلب من ذَنْب
وما أقبل نُصْحَ النَّـا صحى من شدة الـكَرْبِ

فإنك تجد فى هذه الأبيات شَفَّافية عن القلب والفؤاد ، فليس هناك شىء يحجب بيننا و بين الشاعر فقد صهره الحب ، وأشعل قلبه ، فعبر عنه هذه التعبيرات الرقيقة .

واستمر ابن قيس متعلقا برقية يقول الشـعر فيها ينفث فيـه ما يختلج فى قلبه من عواطف و إحساسات حتى اضطرته الحوادث إلى مفارقة الرقة على نحو ما قدمنا . وفى ديوانه قطعة فى رثاء عبدالواحد[1] ، ولسنا ندرى أتوفى قبل مفارقته الرقة أو بعد ذلك . إلا أننا نلاحظ أنه انقطع عن ذكر رقية بعد هجرته من ديارها هناك ، أما القطعة التى جاء اسمها فيها وظن السكرى أنه وجهها فى مديح عبد الله بن الزبير لقوله أثناءها[2] :

وابن أسماء خير من مَسَحَ الرُّكْـ ـنَ فَعَالا وخيرهم بنيانا

فأظنه وَهَماً منه ، إذ ابن جعفر ممدوحه ابن أسماء أيضا ، وقد دعاه بأمه فى قطعة أخرى بالديوان[3] . وليس من شك فى أن صلته بابن

(١) الديوان ص ١٥٩ .
(٢) الديوان ص ٢٦٣ .
(٣) الديوان ص ٢٤٩ .

جعفر كانت أقدم من صلته بعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب ، وشعره في رقية إنما كان قبل اتصاله بهما ، وقد فارقها وهو يردد في نفسه[(١)] :

أَمْسَتْ رُقَيَّةُ دونها البِشْرُ[(٢)] فالرَّقَّةُ السَّوْداءُ فالغَمْرُ

وانطلق ابن قيس كما قدمنا إلى فلسطين فالحجاز فالعراق حيث مصعب ، وهناك رأيناه يتغزل أو يشبب بزوجتي مصعب : عائشة وسكينة غزلا أو تشبيبا لا يراد به إلى إعلان حبه لهما حقا ، وإنما يراد به إلى إعلان جمالهما ، وما يمتلك مصعب من دنيا المرأة ، وإنه لأولى بدنيا الرجال أن تزحف وراءه زحفا . ومن قوله في عائشة[(٣)] :

جِنِّيَّةٌ برزتْ لتقتلني مطليَّةَ الأصداغ بالمسْكِ

عجباً لمثلك لا يكون له خَرْجُ العراق ومِنْبَرُ المُلْكِ

فهو يخلط غزلها بالسياسة ، أو هو غزل أريد به إلى السياسة وبيان حق عائشة وزوجها مصعب في الملك والحكومة .

وعلى هذا النحو كان ابن قيس الرقيات يشبب بعائشة أو بسكينة ، ليشهرهما من جهة ، وليثبت حقهما في الملك والحكومة ، وإن لم يصرح بذلك كما صرح في البيتين السابقين[(٤)] ، فغرضه على كل حال الدعاية

---

(١) أغانى ٥/٩٤ والديوان ص ٢٨٥ .

(٢) البشر : جبل يمتد من الشام إلى الفرات .

(٣) أغانى طبع بولاق ١٠/٥٤ .

(٤) الديوان ص ١٣٠ .

لمصعب ولأهل بيته ، عن طريق الغزل . ولا نسميه غزلا بل نسميه مديحا لزوجتيه : عائشة وسكينة ، فالغزل حينما يصبح الغرض منه التعبير عن جمال المرأة والدعاية لها دعاية سياسية أو غير سياسية يخرج من بابه إلى باب المديح ، وفطن القدماء لذلك ، فعبروا كثيرا بقولهم : قال يمدح فلانة ، وهو إنما يشبب بها ، وماذا نريد فى مديح المرأة ؟ أنريد وصفها بالفروسية والشجاعة ؟ إن هذا إن حدث يعتبر هجاء ، فالمرأة فى كل عصر هى نفسها ، ثروتها كلها جمالها ، ولذلك كانت تعجب دائما بمن يصور هذا الجمال للناس من الشعراء ويريهم أو يسمعهم ما امتازت به من حسن وفتنة .

وهذا الغزل الذى يمكن أن نسميه مديحا فى عهده الجديد ، عهد ملازمته لمصعب ، اقترن به غزل آخر يمكن أن نسميه هجاء ، واختص به ابن قيس عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك وأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد بن عبد الملك ، فنراه يتغزل بالأولى فى إحدى قصائده لمصعب غزلا فيه حرية ، فهو يخاطبها ، وهى تخاطبه ، وإنها لتأسى على ما صارت إليه قريش من أضغان ، تجعلها لا تستطيع لقاءه ، يقول على لسانها[1] :

وقالت لو أنا نستطيع لزاركم طبيبان منا عالمان بدائكا
ولكن قومى أحدثوا بعد عهدنا وعهدك أضغانا كلفن بشانكا

فابن قيس يشبب بعاتكة هنا كما نرى ليؤذيها ، ويؤذى وقارها

(١) الديوان ص ٢٢٦ .

ووقارَ زوجها ، فهو غزل لا يراد به إلى مديح المرأة ، وإنما يراد به إلى هجائها إن صح هذا التعبير . فهو غزل لا تجد فيه المرأة ما يرضيها ، وإنما تجد ما يؤلمها ، فهو إلى الهجاء أقرب منه إلى أى شىء آخر ، وحاول أن يبلغ من هذا الهجاء كل ما يريد من إقذاع ولكنَ لا مع عاتكة ، وإنما مع أم البنين إذ يتغزل بها فى إحدى قصائده لمصعب على هذه الشاكلة[1] :

ألا هَزِئَتْ بنا قُرَشيَّةٌ يهتزُّ موكبُها
رأت بى شَيْبةً فى الرَّأْ س منّى ما أُغَيِّبُها
فقالت أَبْنُ قيسٍ ذا وغيرُ الشيب يُعْجِبها
رأتنى قد مضى منّى وغَضَّاتٌ صواحبها
ومثلك قد لهوت بها تمامُ الحسن أعْيَبُها
لها بَعْلٌ غيورٌ قا عدٌ بالباب يَحْجُبُها
يرانى هكذا أَمْشِى فيوُعِدُها ويضربها
ظَلِلْتُ على نمارقها أُفَدِّيها وأَخْلُبُها
أُحَدِّثُها فتؤمنُ لى فأصدقها وأكذبها
فَدَعْ هذا ولكن حا جةٌ قد كنت أطلبها
إلى أم البنين متى يقرّبها مقرِّبها

(١) الديوان ص ٢١٨ .

أتتنى فى المنام فقلـــتُ هذا حين أُعْقِبُها
فلما أن فرحتُ بها ومال علىَّ أعْـذَبُها
شربتُ بريقها حتَّى نَهِلْتُ وبتُّ أشرَبُها
وبتُّ ضجيعها جذلا نَ تُعْجبنى وأُعْجبُها
وأُضحِكُها وأُبكيها وأُلْبِسُها وأَسْـلُبُها
أُعالجهـــا فتصرعنى فأُرْضيها وأُغْضِبُها
فكانت ليلة فى النَّوْ مِ نسمرها ونلعبها
فأيقظنا منادٍ فى صلاة الصبح يَرْقُبُها

وواضح فى هــذه المقدمة الغزلية أن ابن قيس أراد السخرية من أم البنين ، حتى يخفض من تيهها ويطأطئ من كبريائها ، وإنه ليبتذلها فى غزله ، ويحيلها وكأنها مثل هؤلاء الجوارى اللائى يُبَعْنَ ، واللائى تَقْرُبُ منهن كل الأيدى وإنه ليبتذل معها زوجها فيرميه بالغيرة والغفلة . ثم ما يلبث أن يرسم هــذه الصورة المفرطة فى الابتذال ، فيتصور أنها جاءته فى الحلم ، وأنها لم تمنع منه شيئاً . كل ذلك يريد به ابن قيس إلى الإذلال والامتهان وإيذاء نفس أم البنين وزوجها الوليد وعمها عبد الملك . ومانظن إلا أن عبد الملك كان يضطغن على ابن قيس هــذه المقدمة الغزلية بأكثر مما يضطغن عليه هجاءه له مباشرة ، فتلك صورة ليس فيها هتك للحرمات ، أما صورة أم البنين

فصورة بشعة تؤذى النفس العربية الحرة . وهـذا ما كان يريده ابن قيس بغزله فى الأمويات حين كان يعيش فى ظل مصعب ، وحين كانت تزين له نفسه أن مصعباً سينتصر وسيتحول الأمر إليـه وإلى أخيه عبد الله لا فى الحجاز والعراق فحسب ، بل أيضاً فى الشام ومصر .

ولم تلبث آمال ابن قيس أن تحطمت فقتل مصعب وعبد الله وأصبح الأمر كله لعبد الملك ، ولجأ صاحبنا إلى ابن جعفر يشفع له ، فقد كان ذنبه عظيما ، وقيل إن عبد العزيز بن مروان وابنته أم البنين شفعا له مع ابن جعفر ، فتحول ابن قيس إلى مديح الرجلين وأراد أن يمدح أم البنين فلجأ إلى الغزل والتشبيب بها ، ولـكن فى صورة جديدة تقف عند تصوير حسنها وما يميزها من فتنة وإغراء ، ويظهر أنها أوتيت من الجمال حظاً بعيداً ، وقد ذهب يغنيها ويملأ باسمها جميع الأرجاء من الحجاز والشام إلى العراق ومصر ، ومن قوله فيها[1] :

أُمَّ البنـين سَلَبْتِنِى حِلمى ... وقَتَلْتِنِى فتحمَّلى إثمى
وتركتِنِى أدعو الطبيب وما ... لطبيبكم بالداء من عِلمِ
بالله يا أمَّ البنين ألم ... تَخْشَىْ عليكِ عواقبَ الظلمِ
خافى إلٰهكِ فى ابن عمك قد ... زوَّدتِهِ سُقْمًا على سُقْمِ
وتركته يمشى وليس له ... عَقْلٌ يعيش به مع الحزم

---

(١) الديوان ص ٢٥١ .

وابن قيس لا يريد حقا أن يعلن عن توله بأم البنين ، أو أم الوليد زوجة عبد الملك كما جاء فى بعض الروايات[1] ؛ وإنما يريد أن يعلن عن جمال المرأة ، أو قل بعبارة أدق إنه يريد أن يمدحها ، والمرأة إنما تمدح بجمالها وبفتنة الناس بها ، وكأن ابن قيس يريد أن يبلغ من ذلك كل ما تريده أم البنين . ولعل من الطريف أن نجده يقدم إحدى قصائده لعبد الملك بتشبيبه فيها ، فيقول[2] :

أصحوتَ عن أمّ البنـ ... ـينَ وذكرها وعَنائها
وهَجَرْتَها هَجْرَ امرئٍ ... لم يَقْلُ صفو صفائها
قرشيّةٌ كالشمس أشْـ ... ـرقَ نورُها ببهائها
زادت على البيض الحسا ... ن بحسنها ونقائها
لما استبكرَّت للشبا ... ب وقُنِّعَتْ بردائها
لم تلتفت لِلِداتها ... ومضت على غُلَوَائها
اسمع أمير المؤمنـ ... ـين لمدحتى وثنائها
أنت ابن عائشة التى ... فضلتْ أرومَ نسائها
ولدتْ أغرّ مباركاً ... كالبدر وسْط سمائها

وعائشة : أم عبد الملك وهى بنت معاوية بن المغيرة بن العاص بن

---

(١) انظر الأغانى ٦/٢٦٠ . (٢) أغانى طبع بولاق ١١/٤٩ .

أمية[١] ، فهو يجمع فى القصيدة بين مديح أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك وعائشة أم عبد الملك . ولعل فى هذا ما يرينا كيف أن الخلفاء فى هذا العصر لم يكونوا يكرهون أن يشبب الشعراء بنسائهم ، لأن الشعراء لم يكونوا يشببون فى الواقع ، وإنما كانوا يمدحون ، وهل يمكن أن يقبل عبد الملك غزلا أو تشبيبا خالصا من ابن قيس فى زوجة ابنه إلا أن يفهمه على أنه مديح ، وأن الشاعر قسم القصيدة بين زوجة ابنه وأمه وبينه ، وكان ابن قيس متصلا أيضا بعبد العزيز بن مروان بل كان شاعره إن أمكن أن نجعل له شاعرا ، فلا يعقل أن يشبب بابنته وهو يريد التشبيب من حيث هو ، وإنما كان يريد أن يمدحها ، وقد عرف عبد العزيز بأنه كان يطلب من الشعراء أن يشيدوا باسم أمه ليلى فى مدائحهم له ، وذكرها ابن قيس فى قصائده التى قدمها إليه مرارا[٢] .

ولعله شبَّبَ بكثيرة اعترافا منه بفضلها وفضل زوجها ، وقد أسلفنا أنها تزوجت على بن عبد الله بن العباس وأنه أجار على عبد الملك بعض الخارجين عليه مع مصعب . فإذا كان ابن قيس قد عاذ بكثيرة فلعله عاذ فى الواقع بزوجها ، فاختفى عنده ولم يستطع أن يستصدر له عفوا من لدن عبد الملك ، وأكرمته كثيرة أثناء ذلك ،

---

(١) انظر الطبرى ٢/١١٧٣ والعقد ٢/٣١٦ والديوان ص ٢١٤ حيث أخطأ السكرى فى نسبة القصيدة إلى عبد الله بن الزبير ومى فى عبد الملك .

(٢) الديوان ص ٨٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٦ .

فذهب يتغزل بها ، وإن كنا نلاحظ أنه ليس فى شعره ما يشير إلى أنه اختفى عندها أو لجأ إليها ، بل كل ما فيه أنها مترفة ونراه يلقبها بالأميرة[١] ويطنب فى وصف عطرها وملابسها[٢] ، ويقول إنها خزرجية[٣] ، وقد شبب بها فى القصيدة الأولى التى لقى بها عبد الملك سنة ٧٣ للهجرة إذ يقول[٤] :

عادَ له من كثيرةَ الطَّرَبُ فعينُه بالدموع تَنْسَكِبُ
كوفيَّةٌ نازحٌ محلَّتُها لا أمَمٌ دارُها ولا صَقَبُ[٥]
واللهِ ما إن صَبَتْ إليَّ ولا يعلم بينى وبينها نَسَبُ
إلا الذى أورثتْ كثيرةُ فى الـ ـقلب وللحبِّ سَوْرَةٌ عَجَبُ

وهو هنا يؤكد أنه ليس بينه وبينها صلة إلا الذى أورثته قلبه من هذا الحب الذى لا تخمد نيرانه ، وهو حب من طرف واحد . ويحس كل من يقرأ مقطوعاته الغنائية فيها أنه بثَّ فى غزله بها حنينه إلى العراق وإلى ما فاته هناك من نعيم الحياة ، وكأنه يتخذها رمز دنياه ونعيمها الذى طرد عنه ، ولذلك كان شعره فيها يُطْبَعُ بطابع من الحنين والأسف على دنيا زائلة .

---

(١) الديوان ص ١٨٩ وما بعدها .
(٢) الديوان ص ١١٥ وانظر ص ٩٤ .
(٣) أغانى ٥/٩١ .
(٤) الديوان ص ٦٧ وأغانى ٥/٧٩ .
(٥) أمم : قريب . صقب : ملاصق .

وهذا الجانب فى ابن قيس يلفتنا إلى مقدرة رمزية كامنة فيه، فهو يتخذ من كثيرة رمزاً لأيامه فى العراق ولذلك يكثر من بكائه ودموعه فى غزله بها . وفى ديوانه ما يدل على أن هذا الاتجاه انطوى فى نفسه مبكراً، فنحن نجده يرمز لرقية باسم نعم[1] تارة واسم أم عمرو[2] تارة أخرى ، وقد رمز لأم البنين باسم سليمى[3] ، ولا ندرى لماذا رمز لها ولا لماذا رمز لرقية إلا أن يكون هذا جانبا فى نفسه ، كان كامنا ، وكان يظهر بين الحين والحين .

ولعل من الطريف فى هذا الصدد أنه حين رضى عنه عبد الملك وقابل إساءته بالصفح وولى وجهه نحو العراق حيث بشر بن مروان ، حين أصابته كل هذه السعادة وجدناه يمدح بشرا فيقدم لمدحه بغزل لمن تسمى سُعْدَى ، وهو يتخذ من اسمها رمزاً لكل ما فى نفسه ، ولكل ما أصاب من تحقيق آماله ، يقول[4] :

قد أتانا من آل سُعْدَى رسولُ حبذا ما يقول لى وأقولُ
من فتاةٍ كأنها قَرْنُ شَمْسٍ ضاق عنها دمالجٌ[5] وحُجُولُ
حبذا ليلتى بعزَّةِ كَلْبٍ غال عنّى بها الكوانينَ غولُ

(١) الديوان ص ١٠٨ . (٢) الديوان ص ١٠٨ ، ٢٣٦ .
(٣) الديوان ص ١٤٨ وأغانى طبع بولاق ١١/٥٠ .
(٤) الديوان ص ٢٤٥ وأغانى طبع دار الكتب ٥/٩٩ .
(٥) الدمالج : جمع دملج وهو حلية تلبس فى العضد . والحجول : جمع حجل وهو الخلخال .

ومزّة كلب : قرية كبيرة فى وسط بساتين دمشق ، وواضح أنه يعلن بذلك سروره ، فقد عفا عنه عبد الملك ، وطابت بذلك أيامه ولياليه ، فالدنيا من حوله كلها بشر وسلام ، بل فرح ومسرة وهو يبث كل ما فى نفسه من ذلك فى اسم سعدى صاحبته التى أرسلت إليه رسولها ، فقد دنت منه السعادة ، بل قد مست قلبه وفؤاده . وهذه هى أول قطعة غنى فيها باسم سعدى ، وخليق به أن يغنى بهذا الاسم وقد ابتسمت له الدنيا من حوله . وعاد إلى ذكره مرة ثانية ، ولكن بعد أن توفى بشر ولزم عبد العزيز بن مروان وأصبح شاعره الذى يتكلم باسمه . وحدث أن فكر عبد الملك فى تحويل عهد أبيه بالخلافة من بعده إلى أخيه عبد العزيز ، وجعلها لابنه الوليد ، فغضب عبد العزيز وغضب شاعره ابن قيس ، وقال فى ذلك شعراً أغضب عبد الملك مما جعله يتهدده . حينئذ نظم ابن قيس قصيدة رمزية يذم فيها الذين يغتابونه عند الناس ويأكلون لحمه ، وبدأها بذكر سعدى ولكنه أضاف إليها ما يعبر تعبيراً رمزيا بديعاً عن كل ما فى نفسه إذ يقول[1] :

بشَّر الظَّبْيُ والغرابُ بسُعْدَى ... مرحباً بالذى يقول الغُرابُ
قال لى إنّ خَيْرَ سُعْدَى قريبٌ ... قد أَنَى أن يكون منه اقترابُ
قلتُ أنّى تكون سُعدى قريباً ... وعليها الحصونُ والأبوابُ

(١) الديوان ص ١٦٥ وأغانى طبع بولاق ١٦/٥٧ .

حبذا الرَّنْمُ ذو الوشاحين والقَصْــرُ الذى لا يناله الأترابُ
إنّ فى القصر لو دخلت غزالاً مُوصَدًا مُصْفقًا عليه الحجابُ
أرسلتْ أن فَدَتْكَ نفسىَ فاحذر شرطةً هاهنا ، عليك غضــاب
أقسموا إن رأوك لا تطعم الما ء وهم حين يَقْدرون ذئاب
قلت قد يغفل الرقيب وتُغْفِى شُرْطَةٌ أو يحينُ منها انقلابُ
أو عسى الله أن يُؤَتّى أمراً ليس فيــه على المحبّ ارتقابُ
ارجعى فأقْرَئى السلامَ عليها ثم رُدّى جوابنــا يا ربابُ
حدّثيهــا بما لقيتُ وقولى حُقّ للعاشق الكريم ثوابُ
رجلٌ أنتِ همُّه حين يُمْسِى خامرتْهُ من أجلك الأوصــابُ
لا أشمّ الريحانَ إلا بعينى كرمًا إنما تشمّ الكلابُ

ثم استطرد ابن قيس يحتقر المغتاب والمنافق ويذمهما ذما بليغاً ، وهو فى ذلك كله يريد أن ينفس عن نفســه . وأظن أنّ المقـدمة الغزلية اتضحت لنا الآن ، فقد حمّلها ابن قيس كل ما يريد من خوف عبد الملك على نفسه ، ومن بيان أن أبوابه أوصدت دونه ثانية ، فقد عاد ابن قيس يرسف فى أغلال الوجـل التى خلعها من يديه ابن جعفر وأم البنين . وهو هذه المرة مضطرب اضطرابا شديدا فهو لا يدرى من ينقذه من عبد الملك ، وربما كان ابن جعفر قد مات ، وهذا عبد العزيز لا يستطيع الآن أن يدافع عنه . إن الحياة قد أظلمت فى وجهه ، وإن

الفأل ليبشر بسعدى وأنها سترضى عنه ، ولكن الشؤم يتبعه ويلازمه . ولا نشك فى أن ابن قيس وفق فى هذه المقدمة التى تصف حركات نفسه الباطنة توفيقا بعيداً ، وقد ذهب يرمز فى البيت الأخير إلى عفته ، وأنه مهما تغزل برقية أو كثيرة أو أم البنين إنما يعبر عما رأت عيناه ، وعما يقولاه عن طريقها من دهشة وحيرة . أما بعد ذلك فنفسه طاهرة وروحه طاهرة وجميع أفكاره طاهرة ، وكأنه يريد أن يعبر عن طهرٍ عام فى أخلاقه ، فهو لا تدنسه لعبد الملك ولا لغيره أمنيةٌ سيئة ولا نية شريرة .

وإن هذه المقدمة الرمزية لتدل دلالة واضحة على تقدُّمِ الحياة وتقدم الذوق الفنى عند العرب ، فقد كان الشاعر القديم لا يرمز ولا ينطوى على نفسه ، فالحياة صريحة وليس فيها تعقيد ، أما فى هذا العصر الأموى فقد تغيرت الحياة تحت تأثير الحضارات التى عرفها العرب ، وأصبحت صلةُ الفرد برئيسه معقدة ، لم تعد كالصلة القديمة بين شيخ القبيلة وأفرادها ، بل أصبحت على هيئة جديدة ، هيئة معقدة ، فيها شرطة وفيها عقاب قاس حين يريد رئيسُ الدولة العقابَ .

والحق أن ديوان ابن قيس يعبر عن ذوق جديد لا فى هذه الناحية فحسب ، بل كما قدمنا فى ناحية التشبيب والغزل أيضا ، فالأفكار التى يؤلف ابن قيس منها غزلياته أفكار رجل متحضر ، فيها خفة ، وفيها دقة متناهية فى الحس ، ودقة بالغة فى الشعور .

وأظن الفرق واضحا جداً بين غزليات ابن قيس السابقة ومطالع القصائد فى الجاهلية ، تلك المطالع التى كانوا يقفون فيها عند الأطلال والديار يتحدثون عن النؤى والأثافى والأوتاد والآرام والظباء وبقر الوحش وهذه الحيوانات التى تجوس خلال الديار ، حتى إذا فرغوا من ذلك انتقلوا إلى وصف إبلهم ورحلاتهم فى الصحراء ، وقلما نجد أثناء ذلك وصفا معنويا للمرأة . وقد يذكر ابن قيس الديارَ ولكن فى بيت أو بيتين أو أبيات قليلة ، ثم يتركها إلى وصف خواطره نحو المرأة والتعبير عما لحبيبته فى نفسه ، فى تذلل وتوسل وضراعة ، وهو فى أكثر حالاته يعمد إلى ذلك دون مقدمة الأطلال والديار ، فهى لا تأتى إلا قليلا جدا ، وحينما يكون قد سافر حقا إلى ممدوحه من الحجاز إلى مصر مثلا ، ومع ذلك فإنه يتركها توًّا ليسرد لنا أفكاره وخواطره ، ويصف لنا عشقه وحبه .

وهذا هو معنى أن الحياة تغيرت فى الحجاز ، فقد أخذ الشعراء يعمدون إلى أساليب جديدة فى تعبيرهم ولم يعودوا يتمسكون بالأساليب القديمة ، فالحياة تغيرت تحت أعينهم ، ولم تعد الأساليب القديمة تصلح لهم كل الصلاحية إلا ما يمكن الاحتفاظ به من عناصرها كفكرة رحيل الأحبة وبكاء ديارهم ومنازلهم التى نزلوها كرحيل رقية وأهلها عن مكة . فالفكرة تستمر ويستمر معها بعض الأساليب القديمة التى كانت تعبر عنها ، ولكن بعد أن تُعَدَّل ، وبعد أن لا يكون وصف الأطلال

والديار غاية للشاعر ، وإنما تكون غايته التعبير عن دخائل نفسه .

وقد يكون فى هذا ضربا من شعور الفرد بنفسه أكثر مما كان الشأن فى القديم ، فقد أصبح العربى ، والعربى القرشى بصفة خاصة ، يرى نفسه يملك من بقاع الأرض ما يريد ، ويستخدم من سادة الشعوب المجاورة من يريد ، ويكتظ بيته بالرقيق و بضروب من الحضارة وحظوظ مختلفة من المتعة بالحياة ، فطبيعى أن يسود فى هذا العصر التعبير عن النفس وخاصة فى الحجاز وفى مكة و بين القرشيين . ولعل هذا أحد الأسباب المهمة فى شيوع شعر الحب ، فالشاعر يغنى نفسه ، ويعبر عنها ، ومن هنا لا تجور عليه الأساليب الفنية القديمة إلا بمقدار العنصر الصالح منها الذى يمكن أن يستمر وأن يتلاءم والتعبيرَ عن النفس .

وهذا التغيير الطارئ فى أساليب الفن والشعر فى الحجاز عند ابن قيس وأمثاله لا نلاحظه فقط فى هجر بعض الأساليب القديمة ، وهجر بعض المعانى التى كانت تعالجها ، وإنما نلاحظه أيضا فى اللغة نفسها ، فلغة ابن قيس ليست هى اللغة القديمة الزاخرة بالغريب التى نعرفها عند لبيد مثلا ، بل ليست هى اللغة التى نعرفها عند شعراء العراق المعاصرين له من أمثال جرير والفرزدق ، فإن تيار الشعر كان يستمد هناك من الصورة القديمة بشكل أعنف وأقوى مما كان الشأن فى الحجاز . وفرق بعيد جدا بين ديوان الفرزدق مثلا وديوان ابن قيس ، فعند الأول نجد الألفاظ الغريبة تنصب علينا انصبابا كما تنصب علينا العبارات الملتوية المعقدة ، بينما عند الثانى

لا نجد نتوءا فى التعبير ولا لفظا مهجورا ، فالأساليب الفنية قد أصبحت سهلة مستساغة تحت تأثير ما أصاب النفوس فى الحجاز من تغير أساليب الحياة وتعمق ألوان الحضارات التى غرقوا فيها إلى آذانهم .

وليس من ريب فى أن للغناء أثرا بعيدا فى هذا التطور الذى أصاب لغة الشعر فى الحجاز ، فإن المغنين كانوا من الأجانب غالبا ، وكان ذوقهم متحضرا يأبى الأسلوب المعقد المكتظ بالغريب ، فجاراهم الشعراء فى المقطوعات التى ألفوها لهم ، ولا بد أن الشعراء أنفسهم كانوا يسعون إلى أن يكون شعرهم شعبيا يشيع فى الناس ويدور على ألسنتهم ، ولذلك التمسوا له الأساليب الخفيفة السهلة ، ولم يقفوا بهذه الأساليب عند الغزل بل أشاعوها فى كل ما نظموا من موضوعات . وهل من ريب فى أن مدائح ابن قيس لمصعب وعبد الملك وعبد العزيز وابن جعفر هى من ذوق جديد فى اللغة غير ذوق الفرزدق ومن لف لفه ممن كانوا يأتمون قليلا أو كثيراً بالشعراء القدماء . واستمع إلى ابن قيس يقول فى عبد الملك(١) :

ما نقَمُوا من بنى أميــة إلا أنهم يَحلُمُونَ إن غَضِــبوا
وأنهم مَعْدِنُ الملوكِ فلا تَصْلُحُ إلا عليهمُ العَرَبُ
إن الأغر الذى أبوه أبو الـ ـعاصى عليه الوقارُ والحجُب
خليفــة الله فوق منبرهِ جَفَّت بذاك الأقلامُ والكُتُبُ

(١) الديوان ص ٧٠ وأغانى ٧٩/٥ — ٨٤ .

يعتدل التاجُ فوق مفرقِه   على جبينٍ كأنّهُ الذهبُ

فهذا مديح بلغة سهلة خفيفة وبذوق حضري جديد ، وليس من ريب فى أن الرواة أخطأوا حين زعموا أن عبد الملك لم يعجبه هذا الشعر وأنه قال لابن قيس : تمدحنى بالتاج كأنى من العجم ، ونسوا أن الحياة العربية تغيرت ، وأنها استعجمت فى بعض جوانبها ، فلا بأس أن يمدح الشاعرُ الخليفةَ بالتاج .

وهذا التغيير الذى نلاحظه عند ابن قيس فى لغة المديح وأساليبه نلاحظه أيضاً فى رثائه ، فهو ليس رثاء ضخماً مطولا على نحو ما نعرف فى الرثاء القديم ، وإنما هو مقطوعات قصيرة تسيل فيها النفس ويسيل فيها الحزن سيلانا . واستمع إليه يرثى مصعباً ، فيقول (١) :

إن الرزيّةَ يوم مَسْــكن والمصيبة والفَجيعَهْ
بابن الحوارىّ الذى   لم يَعْدُه يومُ الوقيعه
غَدَرَتْ بهِ مُضَرُ العرا   ق وأمكنتْ منه ربيعه
فأصبتِ وتْرَكِ يا ربيــع وكنتِ سامعةً مُطيعه
يا لهف لو كانت له   بالدّيْرِ يوم الدّيْرِ شيعَهْ

وواضح أن هذا الرثاء مكتوب بلغة دانية قريبة من مألوف الناس ، وكأنه نظم ليغنى ، كشعر الحب الذى ينظمه ابن قيس ، فيغنى فيه المغنون

(١) الديوان ص ٢٨٧ وأغانى طبع بولاق ١٧ / ١٦٥ .

والمغنيات . وغنيت هـذه القطعة فعلا فإنها ألفت فى الواقع لا لتنشد وإنما ليغنى فيها المغنون ، وليصنعوا فيها الألحان والأنغام . فشعر ابن قيس كله شعر يراد به إلى الغناء لا إلى الإنشاد ، ومن هنا تأتى جملة الخلافات التى بينه و بين أصحاب الشعر التقليدى ، فهو يؤلف أغانىَ فى الحب وفى المديح وفى الرثاء ، وقد اشتهرت له هذه الأغنية التى قالها فى رثاء أهله بعد موقعة الحرة وهى تجرى على هذا النمط[١] :

ذهبَ الصِّبا وتركت غِيَّتِيَهْ ورأى الغوانى شيب لِمَّتِيَهْ
وهَجَرْنَنِى وهجرتهنَّ وقد غَنِيَتْ كرائمها يَطُفْنَ بِيَهْ
إذ لمَّتى سوداء ليس بها وَضَحٌ ولم أُفجَعْ بإخْوَتِيَهْ
الحـــاملين لواء قومهمُ والذائدين وراء عَوْرَتِيَهْ
إنَّ الحوادث بالمدينـــة قد أَوْجَعْنَنِى وقَرَعْنَ مَرْوَتِيَهْ[٢]
وَجَبَبْنَنِى جَبَّ السَّنَام[٣] فلم يتركن ريشًا فى مناكِبِيَهْ
وأتى كتابٌ من يزيد[٤] وقد شُدَّ الحزامُ بسَرْج بَغْلَتِيَه
يَنْعَى بنى عبدٍ وإخوتهم حلَّ الهلاكُ على أقاربِيَه

(١) الديوان ص ١٨٦ . (٢) قرع مروته : أصابه بشر .

(٣) السنام : وحد أسنمة الإبل .

(٤) هو يزيد بن على بن عبد الله من بنى عمرو بن معيص وهو الذى نعى إلى الشاعر قتل ابنى أخيه ومن معهم من بنى عبد .

ونعى أسامةَ لى وإخوته فظللتُ مُسْتَكاً مسامعيه
كيف الرقاد وكلما هَجَمَتْ عينى ألمّ خيالُ إخوتيه
تبكى لهم أسماء معولةً وتقــول ليلى وارزِيَّتِيَهْ
تالله أبرح فى مقدمَــةٍ أَهْدِى الجيوش علىَ شِكَّتِيَهْ
حتى أُفَجِّعَهُمْ بإخوتهم وأسوق نِسْوَتَهم بنسوتِيَهْ

وليس من ريب فى أن هــذه قطعة رائعة وأنها تدل على ذوق جديد فى الرثاء ، فقد استطاع الشاعر أن يذيب نفسه وكل ما فيها من حسرة وتلهف على أقاربه فى هذه الأبيات الطريفة التى هى أقرب إلى أن تكون أنشودة حزينة أو نواحا وندبا منها إلى أى شىء آخر ، فهى قطعة قيلت لينوح بها بنو عَبْدٍ ، أو بنو معيص أو بنو عامر بن لؤى ، قتلاهم ، وليرسلوا فيها كل ما يريدون من تنهُّدات وزفرات .

وموسيقى القطعة متكاملة لكى تتيح لها كل ما يمكن من نواح بها وندب ، فقد اختار ابن قيس وزن الكامل الذى تكثر حركاته لكى يبطئ النائح بالكلمات وحروفها كما يريد ، وختمها بالهاء الساكنة ليقف الصوت عندها ويأخذ النائح الفرصة لإخراج آهاته ، فيعلو بالصوت ثم ينخفض به عنــد القافية ، وقد انسابت حركة الياء ، وختمت بالهاء ، ليتم له كل ما يريد من انطلاق بالصوت وانخفاض به شأن النائحين النادبين . ويقول الرواة إنه أنشد هذه القطعة عبدَ الملك ،

فقال له[1] : « أحسنت لولا ماخنثت به شعرك ، أو لولا أنك خنثت فى قوافيه ، فقال ابن قيس : والله ما عدوت قول الله عز وجل : ما أغنى عنى مَالِيَهْ ، هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ » ونحن نشك أن يصدر ذلك من عبد الملك ، وكان قارئاً للقرآن الكريم محدِّثاً قبل اعتلائه عرش الخلافة ، وأكبر الظن أن الرواة نسبوا ذلك إليه . وعلى كل فالقطعة تعتبر شذوذا فى الرثاء على ذوق الرواة ، وقد يكون عبد الملك أحسَّ هذا الإحساس لأنه لم يتعود أن يستمع إلى هذه الموسيقى وهذه القافية فى الرثاء .

وليس فى القطعة تخنث كما زعم الرواة ، وإنما فيها هذا التكامل الموسيقى لتؤدى غرضها ، وأظنها تدل أبلغ الدلالة على هذا الذوق الجديد فى صنع الشعر ، وهل من الممكن أن يصل شاعر إلى هذا التعبير الشفاف عن حزنه دون أن يدعم ذوقه بأسباب حضارية ؟ إن الحياة المتحضرة الجديدة التى أبدلت ذوق الناس فى الحجاز ، وجعلتهم أرق شعوراً وأدق إحساساً هى التى هيأت للتبديل والتغيير فى ذوق الفنانين وبالتالى فى أساليبهم .

وكان للغناء أثر عميق فى ذلك كله ، فالشعراء أخذوا يتأثرون بألحان المغنين وأنغامهم ، وأخذوا يحاولون أن يكملوا لأشعارهم كل ما يمكن من قيم صوتية . ومن المعروف أن المغنى يهمس أو يجهر فى بعض الحروف وبعض الحركات ، أو بعبارة أخرى يطيل أو يحذف فى بعض الحروف وبعض الحركات . وكان الشعراء يلاحظون ذلك ،

(١) الشعر والشعراء ص ١١٣ .

ومن غير شك كان ابن قيس وأمثاله من أصحاب الشعر الغنائى يحاولون أن يقيسوا شعرهم على أسس النظرية الجديدة للغناء التى سبق أن وصفناها وألحانها من ثقيل أول أوثان وخفيف رمَل أو هزَج ونحو ذلك ، وكان الشعراء على اتصال دائم بالمغنيين والمغنيات . وقدمنا أن ابن قيس كان صديقاً لفند وسائب خاثر وبديح وسلامة . ومعنى ذلك أنه كان على اتصال دائم بالمغنين والمغنيات وما يطلبونه من الشعر .

وليست المسألة مسألة إثبات نظرى ، فهذا ديوان ابن قيس أمامنا نستطيع إذا رجعنا إلى ما فيه من أوزان ثم قابلنا بين أوزانه وأوزان أصحاب الشعر التقليدى أن نلاحظ الأوزان الخفيفة فى شعره ، فهو يكثر من المديد والكامل والوافر والمتقارب والرمل والهزج ، وإن استعمل الأوزان المعقدة مثل الطويل أحسسنا كأن الوزن يتغير تحت تأثير ذوقه واختياره لألفاظه . ونراه بجانب ذلك يكثر من مجزوءات البحور كمجزوء الكامل ومجزوء الوافر ، وكل ذلك إنما تَمَّ عنده وعند نظرائه من أصحاب الشعر الغنائى تحت تأثير نظرية الغناء الجديدة وما يطلبه المغنون . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى ما أنشدناه من شعره ليرى التجزئة فى الأوزان ، بل ليرجع إلى ما لم يُجزَّئ فيه ليرى آية ما نقول من أن الشعر عند ابن قيس تأثر الغناء الجديد ، فكثير من القطع يكاد ينحل إلى أصوات خالصة .

والحق أن شعر ابن قيس قيل ليغنى ، ولم يُقَلْ لينشد ، ومن هنا

يأتى الخلاف الشديد فى موسيقاه وموسيقى الشعر التقليدى ، فالفرزدق وجرير ونظراؤهما لم يكونوا يفكرون فى الغناء ، ولذلك كانوا يصنعون مطولات ، أما ابن قيس وأضرابه ، فكانوا يفكرون فى الغناء قبل كل شىء ، ولذلك كانوا يصنعون مقطوعات ، أو كما يسميها أبو الفرج نفسه أغانى ، فهم يصنعون قطعا لتغنى ، وهم يرتبطون بحياة الغناء الجديدة وذوق المغنين وما يريدون من ألحان وأنغام . وهذا هو معنى أن شعر ابن قيس شعر غنائى بينما شعر جرير والفرزدق وأمثالهما شعر تقليدى . ولعل هـذا هو السر فى أننا لانجد عند ابن قيس ولا عند ابن أبى ربيعة عناية بالصور الشعرية ، فالأخيلة قليلة والاحتفال لعمل الصور فى الشعر قليل ، وقد تأتى بعض الصـور فى شعرهم ولـكنها قليلة ونادرة ، فهم مشغولون عنها بالاهتمام بالموسيقى ، فهى كل همهم وكل شغلهم ، وكل عنايتهم مقصورة عليها قصرا .

على كل حال الصورُ نادرةٌ عند ابن قيس ، ولـكن الموسيقى والقيم الصوتية متوفرة ، وهو يرتفع فى هذا الجانب ويحلق فيه إلى الغاية التى يمكن أن تنشد من مثله ، فقد تحقق للشعر عنده كل ما يمكن من صفاء فى موسيقاه ونقاء فى ألفاظه ، وكأنما وضعت اللغة بين يديه ليختار منها ما يريد من كلمات داخلية فى الأبيات وقوافى خارجية ، يختم بها هذه الكلمات ، ولعل ذلك ما جعل حمادا الراوية يقول : « إن أردت أن تقول الشعر فارْوِ شعرَ ابن قيس الرقيات فإنه أرق الناس حواشى

شعر[1] » . فهو شعر يموج بالخفة والرقة حتى فى الموضوعات الكئيبة المحزنة ، وهو شعر يكتمل له الصوت المفرح حين يكون صاحبه فرحا مسرورا ، ويكتمل له الصوت المحزن حين يكون مكتئبا محزونا .

٤

ديوانه

تنطبق الصورة العامة التى صورنا بها شعر ابن قيس الغنائى على ديوانه انطباقا تاما ، فهو كله يخضع لفكرة صنع الشعر من أجل الغناء لا من أجل الإنشاد . وأول ما يلاحظ من ذلك أنه مقطوعات ، وقد توجد فيه القصيدة من أجل المديح ولكنها لا تطول ، ولا يحتفل صاحبها بمقدمات المديح الطويلة . هى فى الواقع أنشودة تكتب وأغنية تنظم .

وهذه الأغانى التى يتضمنها ديوان ابن قيس ، أو هذا الشعر الغنائى تطبعه كله طوابعُ أسلوب واحد ، فالمرونة والقرب من لغة الناس وقلوبهم والشفافية الشديدة التى تشف عن الحركات النفسية للشاعر كل ذلك يتجلى فى صفحات الديوان ، لا فارق بين صفحة وصفحة ولا بين مقطوعة وقصيدة .

ولعل هذا أهم خلاف يفرق بين دواوين أصحاب الشعر الغنائى

---

(١) شرح شواهد المغنى للسيوطى طبعة الخانجى ص ٤٧ وتاريخ دمشق المجلد ٢٥ الورقة ٢٠٨ .

ودواوين أصحاب الشعر التقليدى ، فالأولون فرديون أكثر من الثانين ، يشعرون بذاتهم وشخصياتهم أكثر مما يشعر زملاؤهم ، ويعطون فى شعرهم من أنفسهم ودخائلهم أكثر مما يعطون . وهذا هو الذى يجعل شعرهم قريباً من نفوسنا ، فهم يخاطبوننا مباشرة دون أساليب ملتوية تحشد من القديم ، فهمّ الشاعر ليس حشد الأسلوب القديم ، وإنما همه حشد نفسه وحشد وقائع الحياة من حوله ، وهولذلك لا يتخذ الأسلوب القديم ، فهو لا ينهض بما يعبر عنه ، وإنما يتخذ أسلوبا جديدا أساسه القرب فى اللغة من الحياة اليومية ، ومن الوقائع النفسية لمعاصريه ، فهو يؤمن بنفسه وبعصره وبمجتمعه وبالحياة التى تجرى تحت عينه . ومن أجل ذلك يتصل بهذا كله ويحاول التعبير عنه ، فيضطر اضطرارا إلى استخدام أسلوب جديد ، ليس هو الأسلوب القديم . قد يستمد منه كما هو الشأن عند ابن قيس ولكنه لا يطغى عليه ، فمثلا قد يذكر الأطلال والديار ، ولكن فى بيت أو أبيات قليلة جدا . وليس هذا كل ما يدخله من تعديل فهو يضيف إليه خواطر حبه وتوله بمحبوبته ، ثم هو لا يذهب بعيدا فى الغريب على عادة القدماء ، فالقديم قد يأتى فى شعره ، ولكن بعد أن يحوّر ويعدل ويطبع بطابع جديد .

وأكثر منظومات ابن قيس والجمهورُ الأكبر من شعره لا يكاد يستمد من القديم . فهو مقطوعات تقال فى الحب ، تحكى عواطفه وعواطف الناس من حوله فى أبيات قليلة قلما تجاوزت عدد أصابع اليدين . وكل

من يقرأ هذه الأبيات يحس الفرق الواضح جداً بين أسلوبها والأسلوب القديم . ولم لا ؟ لقد تغيرت الحياة العربية تحت تأثير حضارات جديدة جلبتها الفتوح العربية إلى الحجاز ، وأصبح من الضرورى أن يحطم الفنان الأسلوب القديم ، أو على الأقل يحطم إطاره فى بعض جوانبه ، ليعبر عن الحياة الجديدة .

ومن غير شك نهض ابن قيس نهوضاً حسنا بصنع هذا الأسلوب الذى يتراءى فى المقطوعات السابقة التى أنشدناها من شعره ، وكانت لديه مقدرة رائعة فى ذلك ، فلم يبدل فقط فى أسلوب الغزل والتشبيب ، بل بدل أيضا فى أسلوب المديح ، وظهر التبديل أوضح فى أسلوب الرثاء ، إذ جعله على نحو ما قدمنا غناء خالصا ، فغنى فيه المغنيات والمغنون .

وليس هذا كل ما نجده عند ابن قيس فى ديوانه من جديد ، فنحن نجد جديداً آخر ، ولكن هذه المرة لا نلاحظه فى صورة الشعر ، وإنما نلاحظه فى جوهره ، فمن أهم ما يميز شعره فى ديوانه رقة حسٍّ بالغة ، وهى رقة تعبر عن كل ما أصاب القوم فى شعورهم وأذواقهم تحت تأثير الحضارة الجديدة ، رقة نشاهدها عند الرجال المهذبين فى الأمة حين تتحضر فنرى جماعة يدق إحساسهم دقة بالغة ، ولعل من أهم ما يصور هذا الجانب فى ديوان ابن قيس أننا لا نجد فيه هجاء إلا قطعة واحدة قيلت فى عبد العزيز بن عبد الله بن خالد الذى فشل فى حرب الخوارج وفر مهزوما أمامهم وترك لهم زوجته ، وهى قطعة لا تعد هجاء بالمعنى

الكامل ، بل هى أقرب إلى أن تكون عتابا له ، فإنه لم يحارب مع جيشه بل تركه ولا أمير عليه ونسى عِرْسَه فسباها الخوارج ، فقال ابن قيس[1] :

عبدَ العزيز فضحتَ جيشك كلهم ... وتركتَهم صَرْعَى بكل سبيل
من بين ذى عطشٍ يجود بنفسه ... ومُلَحَّبٍ بين الرجال قتيل
هلا صبرت مع الشهيد مقاتلا ... إذ رُحْتَ مُنْتَكِث القوى بأصيل
وتركت جيشك لا أمير عليهمُ ... فارجع بعارٍ فى الحياة طويل
ونسيت عرسك إذ تقاد سبيَّةً ... تُبكى العيون برنَّةٍ وعويل

فابن قيس لا يهجو حقا ، وإنما يعتب . وفرق بعيد بين هذا العتاب وبين أهاجى جرير والفرزدق المعروفة التى تقوم على القدح والإقذاع فى الهجاء إقذاعا يؤلم الذوق المتحضر فى أكثر الأحيان . ولم تصح نسبة قطع فى الهجاء لابن قيس سوى هذه القطعة . وهذا لا شك غريب على ذوق من يقرأون الدواوين العربية إذ يجدون دائما بابا فيها للهجاء ، أما عند ابن قيس فهذا الباب قد أوصد أمام القارىء ، بل قد أوصد أمام نفسية الشاعر بسبب هذه الدقة فى الشعور التى وصفناها ، وهى رقة تمنع الرجل المهذب من أن يخوض فى أعراض الناس أو يذكرهم أو يصفهم بما يسوءهم .

---

(١) الديوان ص ٢٩٣ وانظر الطبرى ٢/٨٢٨ وابن الأثير ٤/٢٧٩ .

ديوان ابن قيس إذن ديوان شخص متحضر أثرت الحياة الحضارية الجديدة التى عاشها فى ذوقه وفى حسه وفى فنه . ومن هنا كان قارؤه يشعر بأنه صاحب أسلوب جديد ، وأنه يعبر عن حياة جديدة صُهِرَ فيه صهرا وذاب فيها ذوبانا . وقليل هم الذين يستجيبون للحياة الجديدة على نحو ما يستجيب ابن قيس للحياة فى عصره . وكأنما هو قيثارة وهبتها الطبيعة للحجاز حين تحضر ، لنسمع فيها كل التغيرات التى أصابته تحت تأثير الحضارة من جهة ، وتحت تأثير الغناء والتعبير عن عواطف الناس من جهة أخرى .

وشعر ابن قيس من هذه الناحية ينسجم انسجاما تاما مع عصره ، ولعل هذا هو أهم سبب يتيح له هذه الرشاقة التى تميز أسلوبه والتى تجعلنا نُسْحَر به كلما قرأنا فيه ، فهو أسلوب تام من جهة الألفاظ وانتخابها ومن جهة العواطف والتعبير عنها تعبيراً حاراً حينما تطلب الحرارة ، وهادئا حينما يطلب الهدوء . وكل ذلك يعلوه تموج رشيق ، كما تعلوه هذه الجدة فى الحس وهذه الرهافة فى الشعور التى تميز ابن قيس فى كل ما ينظم وكل ما يقول .

ولقد مرت به أوقات كان فيها متحزبا لمصعب وأخيه عبد الله ضد عبد الملك وأسرته ، ومع ذلك فقلما نجد عنده الكلمة النابية ، بل إننا نجده دائما محزونا أسفا على ما أصاب قريشاً من تفريق كلمة أبنائها

وإنه ليذيع ذلك فى قصائده التى يمدح بها مصعبا ، يقول فى بعض مدحه[١] :

فقطع أرحامٌ وفُضَّتْ جماعةٌ ... وعادتْ رَوَايا الحلم بَعْدُ رِكائكا[٢]

وفى جميع جوانب مدحه لمصعب نجده يأسى على هذا النحو لما صار إليه أمر قريش من تقاطع وتنابذ وانقسام كلمة ، واستمع إليه يقول فى بعض مدائحه له[٣] :

حَبَّذَا العيشُ حين قومى جميعٌ ... لم تُفَرِّقْ أمورَها الأهــواء

قبل أن تطمع القبائلُ فى مُلْـكِ قُرَيْشٍ ... وتشمتَ الأعداء

أيها المُشْتَهِى فناء قريش ... بيـد الله عُمْرُهَا والفناء

إن تُوَدِّعْ من البلاد قريشٌ ... لا يكن بعدهم لحىٍّ بقاء

لو نُعَفِّى ونترك الناس كانوا ... غنمَ الذئب غاب عنها الرِّعاء[٤]

فابن قيس يؤذيه اختلاف قريش إيذاء الشخص المهذب رقيق الحس . وهذا جانب يتردد فى مدائح مصعب مما يدل على أنه يصدر عن شعور صادق . وقد يُظَنّ أن هذا يدل على بعد نظره وأنه يوطّىء لنفسه حين يتحول الأمر إلى الأمويين إن تحول ، ولكن هذا فى الواقع تعليل سطحى لا يتفق ونفسية ابن قيس ، إنما التعليل الصحيح هو رقة حسه وبؤسه

(١) الديوان ص ٢٢٨ .

(٢) روايا الحلم : الحلماء . ركائك : جمع ركيك وهو الضعيف .

(٣) الديوان ص ١٧٢ . (٤) الرعاء : الرعاة .

حين رأى قريشا تنقسم هذه الانقسامات ، فيقتل الحسين ، ويقتل عثمان وعلى والزبير وطلحة من قبل ، ويقتتل عبد الملك ومصعب أخيراً ، وتذهب أثناء ذلك فى ذمة الله ضحايا الحرة . لقد كان ذلك يؤذيه فى ضميره كما يؤذى القرشى فى عصره رقيق الشعور . وبلغ من رقة شعوره أن أشاد بعثمان أثناء مدحه لمصعب بعد الأبيات السابقة فقال[1] :

الذى أُشْرِبَتْ قريشٌ له الحـــبَّ عليه مما يحبُّ رداه

ولعل هذه الرقة هى التى جعلته يفى لمصعب بعد موته على نحو ما أسلفنا ، فقد كان من رهافة الشعور ودقة الحس بحيث لا يستطيع أن ينكر ماضيه ولا أن يكون كنودا لمن أحسنوا إليه .

الوفاء إذن عند ابن قيس خيط من الخيوط التى تتصل برهافة الشعور ورقة الحس ودقته عند الرجل المتحضر المهذب . وهناك خيط ثان يتضح فى شعره لمصعب وعبد العزيز بن مروان ، فكل من يقرأ الديوان يلاحظ أن ابن قيس لزم مصعبا دون أخيه عبد الله الخليفة ، كما لزم عبد العزيز أيضاً دون أخيه عبد الملك . وكان لذلك أثره فى شعره ، فعبد الله بن الزبير لا يكاد يظهر إلا فى قصيدتين سبق أن وضحنا زيف القول بأنهما فى مدحه ، فإحداهما فى مدح عبد الملك والثانية فى مدح ابن جعفر . أما عبد الملك فقد مدحه فى الديوان مراراً لأنه عفا عنه ، وأكرمه[2] .

---

(١) الديوان ص ١٧٩ . (٢) الديوان ص ٧٦ .

والخيط الذى نشير إليه هو خيط المبالغة فى الشعور فإن عطايا مصعب وعبد العزيز تأسره ، فنرى اندفاعا شديداً فى مدحهما ، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه كان يعطى مصعبا صفات الخليفة ، فهو الخليفة الحقيقى فى حسه ، يقول فى بعض مدحه[1] :

على بيعة الإسلام بايَعْنَ مصعبا ⁂ كراديسَ من خيلٍ وجَمْعًا مباركا

وكأنه كان يؤمن بأن مصعبا خليفة أخيه عبد الله وأن بيعته بالخلافة تتضمن بيعة أخيه ، وذهب يبالغ فى مدحه وكأنه يعتبر نفسه داعية له . وهذا الجانب نجده فى مدائحه لعبد العزيز وكان ولىّ عهد فعلا لأخيه عبد الملك ، فلما فكر عبد الملك فى خلعه وتولية ابنه الوليد مكانه رأيناه يثور معه وفاء له وعرفانا بجميله ، فيقول[2] :

لِتَهْنِهِ مصرُ والعراق وما ⁂ بالشام من بَزِّه ومن ذهبهْ
يَخْلُفُكَ البيضُ من بنيك كما ⁂ يخلف[3] عودُ النُّضار فى شُعَبهْ
نحن على بيعة الرسول وما ⁂ أُعطِىَ من عُجْمِهِ ومن عَرَبِهْ

وما من ريب فى أن هـذا اندفاع وتهور جلبتهما رقة حس ابن قيس ورهافة شعوره ، فكان إذا أخلص بالغ فى إخلاصه و باع نفسه لصديقه .

---

(١) الديوان ص ٢٣٠ وانظر الأغانى طبع بولاق ١٦/٥٧ .
(٢) الديوان ص ٨٢ — ٨٤ وانظر الأغانى ١٦/٥٧ .
(٣) يخلف : ينبت عودا بعد عود .

على كل حال ابن قيس فى ديوانه مثال للرجل المتحضر الراقى الذى لا تخدشه العيوب الخلقية ، وهو فى شعره مثال للشاعر الغنائى المتحضر الذى لا تخدش شعره عيوب فنية . وأظن أننا لا نبالغ بعد كل ما قدمناه إذا قلنا إن ابن قيس ماهر فى الضرب على قيثارة الشعر الغنائى الجديدة ، وأنه استطاع أن يستخرج منها أصواتا رائعة تدل على إحسانه فى فنه وإتقانه لفهمه ، أصواتا نجد فيها صورة عصره وما اضطرب فيه من أحداث ، بل صورة نفسه وما اضطرمت فيه من وقائع سياسية وعاطفية ، وقد لا نبالغ أيضاً إذا قلنا إنه شدّ إلى القيثارة المعاصرة وترا جديداً ، فكل من يقرؤه يستطيع أن يميز شعره وأن يميز أسلوبه بما يجرى فوق سطحه وفى داخله من أمواج نفسية تشف عنه إشفافا ، وكأن شعره مرآة صافية لعصره ولنفسه ، ولما تأثرت به هذه النفس من ألوان حضارة وأصباغ حياة .

ابن قيس إذن صاحب أسلوب واضح فى تاريخ الشعر الغنائى عند العرب ، وهو أسلوب يميزه من نظرائه ، وقد استطاع أن يعمم هذا الأسلوب فى موضوعات الشعر التقليدى ، وكأنه خلق ليكون شاعرا ، وكأن روحه كانت تحوى قبسا لا يمس شيئاً إلا تحول إلى غناء . وطبعا إنما تم هذا كله تحت تأثير حياة جديدة شفعت بنظرية جديدة للغناء كما شفعت بألوان حضارية مختلفة . وانطلق ابن قيس يعبر عن ذلك فى أساليب جديدة ، وهى أساليب حية ، كانت تستمد من مألوف الناس

فى لغتهم وعواطفهم ، كما كانت تستمد من التهذيب الهائل الذى حصل لفن الغناء نفسه ، وأيضاً فإنها كانت تستمد من الذوق المتحضر الجديد . وكل ذلك نهض به ابن قيس ، واستطاع أن يوقعه على قيثارة الشعر العربى ، بل استطاع أن يشد أوتار هذه القيثارة شدا جديداً ، بل كاد أن يضيف إلى أوتارها وترا ، حتى تصبح أكثر بساطة وأكثر ألفة للناس وقربا من نفوسهم وأكثر صدقا وصراحة فى التعبير عن عواطفهم .

خاتمـــة

حاولنا فى الفصول السابقة أن نرسم صورة صحيحة صادقة لمجتمع مكة فى العصر الأموى وما ازدهر فيه من شعر غنائى تغنت به الأجيال المعاصرة والتالية . وذهبت أبحث أصول الحياة فى هـذا المجتمع وجذورها منذ العصر الجاهلى ، حتى تتبين لى هـذه الحياة من جميع وجوهها ، وحتى تكون الخطوط والألوان التى أصنع منها الصورة غير ملتبسة ولا مكتسية بإبهام أو غموض .

ولاحظت أن الترف الذى أصيبت به مكة فى العصر الأموى لم يكن شيئاً حادثا ، فقد كان بها فى الجاهلية حياة تجارية خصبة ملأت حجور كثير من القرشـيين بالمال والثراء المفرط . على أن الإسـلام لم تلبث أضواؤه أن ظهرت فى الأفق وأخـذت تعم فى الجزيرة العربية وسرعان ماحمل المسلمون مشاعلها يريدون أن يضيئوا بها العالم ، فكانت الفتوحُ الإسلامية ، وكانت مغانم لا تحصى من أموال ورقيق وجَوَارٍ . وصبَّ ذلك كله فى مكة ، وصبَّت معه الحضارات الأجنبية وما لوّنها فى بيئاتها الأصلية من ترف .

وكان من آثار هذا الترف والتحضر أن نما الغناء ، وأن أخذ بعض

المغنين يحاول أن يخضعه لرسوم وتقاليد ، فكانت النظرية الغنائية المبثوثة فى الأغانى ، حين نجد أبا الفرج يعلق على الصوت بقوله مثلا : خفيف ثقيل أول أو ثقيل ثانى أو خفيف رمَل ونحو ذلك مما عرضنا له فى موضعه . وما زال المغنون فى مكة يصعدون على أدراج هذه السلالم الموسيقية ، كل يحاول أن يصل إلى مراقى الغناء العليا ، وحققوا لأنفسهم كثيرا من التفوق والنبوغ .

تغيرت الحياة فى مكة ، وكان الفرد يشعر بنفسه شعوراً تامًّا ، فقد أصبحت الدنيا ملكا له ولقريش ، وأصبح البيت القرشى يعج بالرقيق الأجنبى ، ولم تعد فى مكة تجارة إلا ما قد يكون أثناء الحج ، أما التجارة القديمة التى عرفناها فى الجاهلية ، فقد قضى عليها الإسلام حين استولى على العراق والشام ، فانفتح أمام توابل الهند وصادراتها طريقُ الموصل ، ولم تعد هناك حاجة إلى الطريق المعقد ، طريق مكة القديم .

ومع ذلك فمكة عرفت فى العصر الأموى ثراء لم يعهده أهلها فى القديم ، وهو ثراء جاءها من الفتوح الإسلامية ومغانمها وأسلابها ، ثم من هذا العطاء المنظم الذى فُرِضَ لأهلها منذ عمر بن الخطاب . ومن هنا تكونت فى مكة طبقة من الشباب العاطل الذى لا يعمل فى تجارة ، فقد أغناه آباؤه الذين اشتركوا فى الفتوح الإسلامية ، وأغناه العطاء المنظم الذى يَرِدُ من دمشق .

وعلى هذا النحو تكوَّن فى مكة جيلُ الشباب العاطل الفارغ الذى لا بد له من ملهاة أو تسلية يمضى فيها أوقاته . واستطاع الرقيق الأجنبى أن يرضى رغبته عن طريق هذا الغناء الذى وصفناه وما استحدث فيه من ألحان وإيقاعات وأنغام .

واندفع الشباب فى إعجابهم بهذا الفن وأصحابه واندفعت معهم المرأة القرشية ، وأخذت تلمع حينئذ أسماء بعض الفتيات والسيدات ككل المجتمعات المتحضرة الراقية ، فأصبح هناك الرجل الذى يأخذ بيد هؤلاء المغنين ، كما أصبحت هناك المرأة التى تأخذ بيدهم أيضا .

ترف وغناء ، هذا هو مجتمع مكة فى العصر الأموى ، وأثناء ذلك اعتداد بالنفس وشعور بالغ بها ، فأى شِعْرٍ يسود فى هذا المجتمع ؟ أيسود الشعر التقليدى الذى يمجد الآخرين على نحو ما نعرف فى المديح ؟ طبعا لا يمكن أن يسود مثل هذا الشعر الذى يعنى بالآخرين ، وكذلك لا يمكن أن يسود قرينه من شعر الهجاء والنقائض الذى نجده عند جرير والفرزدق فقد كان القوم مترفين ، ولم تكن فى نفوسهم كل هذه الحزازات الجاهلية التى كانت فى نفوس أهل العراق من القبائل العربية .

ولم تُعْرَفْ مكة فى الجاهلية بشىء من هذه الحزازات ، بل لقد كان أهلها يعملون على موتها إبان ظهورها ، ولعل مرجع ذلك أنهم كانوا يعيشون معيشة فيها شىء من التحضر ، ولذلك كانت أكثر أشعارهم التى رويت لهم فى السيرة أشعارا فردية تعبر عن شعور القرشى إزاء حادثة

من الحوادث . ومعنى ذلك أن القرشيين كانوا مُعَدين منذ العصر الجاهلى للشعر الغنائى بأكثر مما أعدوا للشعر التقليدى .

فلما كان الإسلام رأينا عبد بنى الحسحاس ينظم شعراً شبيها بالشعر الغنائى الذى شاع بعد حين ، مما جعلنا نظن أن الشعر الغنائى فى العصر الأموى يرجع إلى أصول جاهلية . وتقدمنا فوجدنا أبا دهبل الجمحى ينظم شعراً لا يكاد يختلف فى شىء عن شعر عمر بن أبى ربيعة ، وعاش أبو دهبل أشواطاً من الزمن فى العصر الأموى . كل شىء كان يُعِدُّ إذن لنمو الشعر الغنائى ، فهناك أصول قديمة أَعَدَّتْ له ، وقد أعدت له أيضا هذه الحياة المترفة التى عاشها القرشيون فى العصر الأموى ، وأعدّ له أيضا شعور الفرد بنفسه وإحساسه بها إحساسا قويا فى هذه الحياة ، وكان مما أعدّ له أيضا أن المرأة القرشية ساهمت فى العناية بفن الغناء الذى يقوم عليه . وكان للمغنين أنفسهم أكبر الأثر فى نمو هذا الشعر وتطوره ، فإنهم طلبوه ، وطلبتهم النوادى والمجالس . فكان لا بد أن يوجد الشعراء الذين ينهضون بحاجة المغنين وحاجة الناس من حولهم ؛ وحاجاتهم أنفسهم فى إرضاء المغنين من جهة والتعبير عن إحساساتهم من جهة أخرى ؛ ثم حاجة المرأة القرشية وإرضائها من حيث تصوير جمالها وما أوتيت من سحر وفتنة .

كان كل شىء فى مكة يدفع إلى نمو الشعر الغنائى ، وأن يحسنه الشعراء إلى أقصى حدود الإحسان وأن يطوّروه مع فن الغناء الجديد إلى أقصى

حدود التطور ، ولمعت حينئذ أسماء كثيرين عرضنا بالتفصيل لاثنين منهم وهما : ابن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات . وكان يشتهر بجانبهما الحارث ابن خالد المخزومى والعَرْجي ، غير أن ما روى لهما من شعر محدود جدا ، ولا يمكن درسهما من خلاله . وكل شعر الحارث تقريبا فى عائشة بنت طلحة ، تارة يتغزل بها مباشرة ، وتارة يتغزل بها عن طريق جاريتها بُشْرة تعريضا (١) ، وليس فى هذا الشعر جديد بالقياس إلى الموجتين الحادتين الكبيرتين : موجة ابن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات . وكذلك الشأن فى العرجي حفيد عثمان بن عفان ، فقد أضاع الرواة شعره الغنائى إلا مقطوعات نظمها فى أم محمد بن هشام المخزومى والى مكة لابن أخته هشام بن عبد الملك ، وأخرى فى زوجة محمد بن هشام (٢) ، وهى جميعها يراد بها الهجاء لا الغزل الصادق . وقد اشتهر له قوله فيها (٣) :

أماطتْ كساءَ الخزِّ عن حُرِّ وجهها   وأدْنَتْ على الخدين بُرْداً مُهَلْهلاَ
من اللاءِ لم يَحْجُجْنَ يبغينَ حِسْبَةً   ولكن ليقتلنَ البرىءَ المغفَّلاَ

ويجمع الرواة على أن العرجي خلف عمر فى مكة وأنه كان يحتذى على مثاله (٤) ، ولكنهم لم يحتفظوا لنا بما يصور ذلك من شعر العرجي وغزلياته .

---

(١) أغانى ٣/٣١٧ وما بعدها وكذلك ٣/٣٢٩ ، ٣٣٥ .
(٢) أغانى ١/٣٨٥ ، ٤٠٤ — ٤٠٨ .
(٣) أغانى ١/٤٠٤ .   (٤) أغانى ١/٣٨٥ .

أما ابن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات فقد خلد لكل منهما على مر الزمن ديوانٌ كبير يصوره ويصور مجتمعه خير تصوير . واستطاع ابن أبى ربيعة أن ينهض حقا بالشعر الغنائى ، فديوانه كله نسجت خيوطه من قصة القلب الإنسانى ، وهى معروضة فى قصص بديع . وعمر من هذا الجانب يتقدم جميع الشعراء فى العربية فلا نعرف قبله ولا بعده من نحا بغزله كله نحو القصص ، وأن يملأ ديوانه بعوالم من واقعه وخياله جميعا ، فقد اتحد فى ديوانه الواقعُ والخيال ، واستطاع بمواهبه الفنية أن يؤلف مادة فنية بديعة .

على أن الغاية من هـذه الأشعار والأقاصيص وأنها أريد بها إلى الغناء جعلت عمر لا يطيل فيها ، فهو ليس من أصحاب القصائد المطوّلة ، وإنما هو من أصحاب المقطوعات التى تغنّى ، ولذلك فلما نجد عنده قصيدة بالمعنى الكامل . وحاول عمر أثناء هـذه الغاية الغنائية أن يحقق لموسيقى شعره ضروبا من التلاؤم بينها وبين الغناء ، وكأنها كانت تصنع من نفس الألحان والأنغام التى يصنع منها الغناء ، وكان من آثار ذلك أن كثرت التجزئة والتعديل فى شعره ، وأن خفت لغته خفة شديدة .

وكأنما كان عند عمر هدف واضح أن يحقق لمعانى غزله ضروبا من التطور عن طريق هذه الخيوط القصصية التى نسجه فيها ، وليس ذلك فحسب ، بل أيضاً أن يلمس قلوب الناس وأفئدتهم بما يقطّر فى شعره من عواطفهم ، وهى عواطف قوم تحضروا ، وأصبح لهم ذوق جديد

يتلاءم وكلّ متحضرين من بعدهم . ولعل ذلك ما جعله يختار اللغة الخفيفة السهلة اللينة التى تجرى على كل لسان . وليس ذلك ما صنعه عمر فحسب ، فإنه أيضاً استطاع أن يلائم أوسع ملاءمة بين شعره وبين ألحان المغنين وإيقاعاتهم حتى لكأنه كان ينظم شعره على نفس الآلات الوترية التى يضربون عليها .

وكان يعاصره ابن قيس الرقيات ولم يهب نفسه كلها للشعر الغنائى ، فقد خرج من مكة واضطرب فى الحوادث السياسية التى نشبت بين مصعب بن الزبير وأخيه عبد الله من جهة وعبد الملك بن مروان من جهة أخرى . ومع ذلك فهو يعد شاعرا غنائيا من طراز ممتاز ، لا من حيث شعره الغنائى ، بل من حيث ما نظمه من مدائح ومراث ، إذا ستطاع أن يحول كل ما نظمه من شعر تقليدى إلى شعر غنائى تام . وهنا تظهر مهارة ابن قيس فإن الطاقة الغنائية فى شعره كانت قوية إلى أقصى حد .

وطبيعى أن نجد عند ابن قيس شيئاً من الأساليب التقليدية بحكم اهتمامه بالشعر التقليدى ولكنها نادرة جدا ، فقد جعل نصب عينيه أن يترك هذه الأساليب وأن يضع مكانها الأساليب الغنائية التى تتلاءم وعصره . ومن هنا قلنا إن شعره كله شعر غنائى بالمعنى التام ، فهو شعر كتب ليغنى فيه المغنون لا لينشده المنشدون .

وتميز ابن قيس بذوق حضرى مترف حساس بالغ الحساسية ، فلم يَهْجُ أحدا ، ولم يحاول أن يؤذى شخصا ، وكان فى غزله بل فى شعره كله رشيقا منتهى ما يكون من رشاقة ، وهى رشاقة مردها إلى هذا الذوق المترف الذى عرف كيف يصهر الشعر فى ألحان المغنين ، وكأنما كانت لديه حاسة سادسة يستقرئ بها فى دقة الألفاظ بل المعانى التى تدل عليها الألفاظ ، أو هما جميعا .

والحق أن أصحاب الشعر الغنائى فى مكة وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات استطاعوا أن يحققوا لشعرهم كل ما يمكن من نهوض ورقى به ، وإن أسماءهم ما تزال تطن فى سمع اللغة العربية بل فى سمع الموسيقى العربية ، فهم الذين نهضوا بهذه الموسيقى حقا من حيث المطابقة بينها و بين أوزانهم ، فقد عاصروها فى بدء نشأتها حينما تحولت إلى النظرية المعروفة فى كتاب الأغانى ، واستطاعوا أن يقدموا للمغنين والمغنيات كل ما احتاجوه لفنهم الجديد ، وأن يشتقوا لأنفسهم أثناء ذلك أساليب فنية بارعة ، تعبر عما أصاب الحياة فى مدينتهم من تطور تحت تأثير الحضارات الجديدة ؟

فهرس الموضوعات

صفحة

مقدمة ... ... ا — ح

الفصل الأول : مكة ... ... ١ — ٥١

(١) موقع مكة ١
(٢) مكة فى العصر الجاهلى ٣
(٣) فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين ١٦
(٤) فى العصر الأموى ٢٧
(٥) ثراء وحضارة ٣٤
(٦) ترف ولهو ٤٤

الفصل الثانى : الغناء فى مكة ... ... ٥٢ — ٩٧

(١) فى العصر الجاهلى ٥٢
(٢) فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين ٥٧
(٣) فى العصر الأموى ٦١
(٤) الغناء المتقن ٦٩
(٥) أشهر المغنين : ابن مسجح ، ابن محرز ، ابن سريج ، الغريض ، الأبجر ، الهذلى ٧٩

الفصل الثالث : الشعر الغنائى فى مكة ... ... ٩٨ — ١٤٦

(١) الشعر فى مكة ٩٨
(٢) الشعر الغنائى ١٠٧
(٣) خصائص ومميزات فى الشعر الغنائى ١١٨
(٤) فتنة المكيين بالشعر والغناء ١٢٨
(٥) الشعر الغنائى على كل لسان ١٣٥

الفصل الرابع : عمر بن أبي ربيعة ... ... ١٤٧ — ٢٠٣

(١) نسبه وعشيرته وأهله ١٤٧
(٢) حياته وأخلاقه وصفاته ١٥٠
(٣) شعره الغنائي ١٦٤
(٤) ديوانه ١٩١

الفصل الخامس : ابن قيس الرقيات ... ... ٢٠٤ — ٢٦٨

(١) اسمه ولقبه وعشيرته ٢٠٤
(٢) حياته وأخلاقه وصفاته ٢٠٩
(٣) شعره الغنائي ٢٢٨
(٤) ديوانه ٢٥٩

خاتمة ... ... ٢٦٩ — ٢٧٦

DATE DUE

JAFET LIB.
19 APR 2012
Circulation Dept. 5

JAFET LIB.
22 MAR 2012
Circulation Dept. 5

JAFET LIB
21 JUN 2012
Circulation Dept. 2

808.1:D27sA:v.2:c.1
ضيف، شوقي
الشعر الغنائي في الامصار الاسلامية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
0103774

808.1
D27sA
V.2